LAILA ALATRASH

ليلى الأطرش

لا تشبه ذاتها

رواية

www.shorok.com

مكتبة 513

رقم الإيداع في دائرة المكتبة الوطنية
(2018/12/5983)

الأطرش، ليلى باسيل
لا تشبه ذاتها / ليلى باسيل الأطرش - عمان دار الشروق للنشر و التوزيع
2018

( ) ص.

ر.إ : 5983 / 12 / 2018
الواصفات : /الادب العربي // الروايات العربية //العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية اخرى.

ISBN: 978-9957-00-727-0

- لا تشبه ذاتها
- ليلى باسيل الاطرش
- الطبعة العربية الأولى: الإصدار الأول 2018
- الاخراج الداخلي: دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع.
- جميع الحقوق محفوظة ©

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠١٩ ١٠ ١٧

دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان - الأردن رام الله - فلسطين
email: sheroek@orange.jo
sheroekpr@planet.com
www.shorok.com ALSHOROUK

دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف :4618190/ 4618191/ 4624321 فاكس :4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11118 عمان - الاردن
دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - المصيون : نهاية شارع مستشفى رام الله
هاتف 2975633 - 2991614 - 2975632 فاكس 2965319/02

لا تشبه ذاتها

رواية

مكتبة | 513

ليلى الأطرش

تعرف المدن عاشقها.

تشربّتُ مدينتك على مهل، غيّرتني. توقّع المدن على أرواح ساكنيها. ينابيع تشكّل من يرتوي منها ويعيش فيها، غيّرتني.. لم أعد أشبهني.

اشتدّ عودي فيها، نجحت وحتى خذلني الحب ثم جسدي، فتساوى الحب والكره في تناقض المشاعر، لم أعد أدري في أي الاتجاهات أسابق الحياة، وهباء وهج للعشق كان.

أسابق قدري، أعدو لأنتصر.

يلحّ شريط الحياة.

يعزّ العمر ومن يسابقك عليه يتربّص بك بعد أن عشت طويلا في أمان خادع.

الكلمات كلها بلا معنى في محاولة اطمئنان لا يملكه أحد.

إلهام ملحّ جرفني كي أبوح. أن أنفث ثقل الصدر، والبوح شفاء. أهدم بالاعتراف حاجزا ارتفع بيننا، لم ترغب أنت في إزالته، وفشلت محاولاتي. أضاف قهري من إهمالك إليه علّوا.. اتهامك بأنني أعيد وأزيد في موضوعات انتهينا منها، أنني أسيرة التفاصيل وتكرارها، ولا تدري أن المشاعر تكرار وإلا تجمّدت. وأقامت سدًّا تراكمت خلفه النجوى والعتاب والخذلان، وانفجر مدوّيا مع قرار الطبيب.

قرّرت أن أصارحك ومنار فيما أخفيته عنكما سنوات. أنني في سباق مع العمر. وأفكاري أوراق في عاصفة. شجرة تقاوم رياح

الخريف. عاجزة عن إيجاد بداية مناسبة في زحام ذكريات من الانتصارات والانكسارات، من الفرح والحزن، فأين أبدأ وكيف؟ وأدرك أن البوح في تجاوز البداية.

- الرياضة واليوغا علاج.. قال الطبيب.

لم أقتنع أن الجلوس في هدوء سكينة لنفس مضطربة مثلي، تريد القفز خارج حدود جسدها رافضة لما يحدث له. أهرول أسابق غزو عدوّي لجسدي. حاولت طرده فمارسْت الزار في غرفتي. صور أمّي وتجلّياتها في حلقات الذكر في المسجد الأزرق.. أدور حول نفسي بعنف أكبر، وحدي في دوران محموم لم يتوقف حتى تهالكت على السرير بلا قوة.

تبتعد الصور، تغيب حلقات الذكر هناك. أتخيّل رقص الأفارقة، سفر أرواحهم مع اشتداد تصفيقهم. يتمايلون في الحزن وفي فرحهم، تعلو تراتيل صلواتهم، تشتد لتصل إلى الله، الرقص إعلان الروح عن قوة مشاعرها، تحتجّ وترفض لوتشكر، ويشتدّ تمايل الأجساد مع حزنها والابتهال.

ألقى الطبيب حكمه في هدوء. لا بدّ من تغيير العلاج مع هجوم جديد للمرض.

رفضت الاستسلام، قاومت الخوف وما زال يؤكد عنف آثار الدواء الجديد، ويطمئن على توفّر أدوية لتخفيفها.

الخوف أساس التديّن. الرهبة من عدم فهم المصائب، والعجز عن سيطرة العقل على قوة خارقة، فعبدت بعض الشعوب الشمس

والفيضان، جعلت الرعد والعواصف والنار وجبروت الطبيعة آلهة تصلي لها وتطلب الرحمة منها. عبد البشر آلهة تخيّلوها، للخير والشرّ والحبّ والكره، لكن البعث بعد الموت ظلّ هاجسا. لم يحتمل البشر فكرة الفناء، أن حضورهم إلى الحياة بالميلاد والرحيل بالموت بلا سبب، أن المرور في الحياة مجرّد عبث. صار الدين سريرا للخوف من الفناء.

احتمي بالله من خوفي وازداد قوة بإيماني.

حين تأتي النهاية أريد لمنار أن تعرف أنني أخفيت سرّ انهيار الشركة ومرضي لأنني لا أريد أن يذبل الأمل في نفس تتوثّب للحياة، أن ينحصر أفق حياتها في انتظار نهاية قد تطول أو تقصر. أحاول تأخير فجيعتها ما أستطيع. وأريدك أن تكون حاضرا، حائطا يسند اهتزاز حياتها رغم وجود فردوس والعائلة.

تثقل الصدور بالأسرار الكبيرة.. سمعتها حين شكت لك تغيّري وبكت خوفها. وأكّدت أن خروجك من حياتي أساس مشاكلي.

كبر حزني لحيرتها... منار وصلة حب انبتّت في خلافاتنا.

سأكتب لها الحقيقة، ما أحسّت به وأنكرتُه بصمتي رغم خوفي من عذاب شكوكها، لكن الشك أرحم من مواجهتها بالحقيقة، عبثت في أوراقي تبحث عن دليل. وأجدتُ لعبة التخفّي دائما.

أكتب لكما.

ابتسمت مدرّسة الهاي سكولْ في لندن وأكّدت موهبتي في التعبير وترتيب أفكاري، صدّقت، الآن.. لا أدري كيف أبدأ، تزاحمت بدايات عديدة ثم فقدتها.

حاولت.

عرضت فردوس فصلين مما أنجزت على ناشر عربي في لندن صديق لعائلتها. قال تجربة مثيرة وستصدر باللغتين. ستترجم إلى العربية عن الإنجليزية لتفوق الكاتبة في التعبير عن ذاتها.

ولأنني أعرف أن النسخة ستخضع للتحرير سأترك النسخة الأصلية مع فردوس.. فمن حق منار أن تقرأ ما كتبت قبل تدخّل المحرّر.

بلا ترتيب أكتب لأنني أروي قصة حياة، لا أشيّد عمارة بمواصفات فنيّة، ولا أكتب رواية أبحث فيها عن الشهرة.. هي قصة امرأة لا تشبه من أحببتك وغيّرت حياتها من أجلك.

إلحاح فردوس دافع قوي كي أنشر ما كتبت.. قالت لكل تجربة خصوصيتها، وقد تفيد سيّدة تمرّ بمثلها. قلت لكن نصف نساء العالم يعانين من المرض أو مهدّدات به، ولا اختلاف في تجارب الطلاق.

رغم ذلك واصلت الكتابة، أضأت بالكلمات عتمة الماضي، عالجت جروحه، فسّرت ضياع ما تعتقد منار أنه حقّ لها علينا، أن نظلّ معا.

على الطريق السريع أنطلق بالسيارة. بلا هدف، أهرب من نفسي إلى نفسي، سفر الروح إلى فضاءات ممتدة. أتبتّل في سماء تخصّني. أتخفّف من أحمال الجسد، تخذلني قواي في معركة لم أكن أريدها، أشرب المزيد من الماء، أبحث في الإنترنت. استسلم لجهاز يشبه ما تنتهي فيه الحياة، بلا حراك يصرخ، تُنفّس عميقا واكتم أنفاسك. يمكنك التنفّس عن ذاتها.

- الوضع ثابت.... أكد الطبيب.

ذاهلة على باب غرفتي، وجه منار غارق بفيضان عينيها، وأنا أدور مع الموسيقى الصاخبة.. أدقّ الأرض لأطرد شيطان المرض.. احتضنتني: الطلاق ليس نهاية العالم.

عجزت لحظتي عن البوح وأنا أحتضنها ونبكي معا.

الكتابة رحمة للمشاعر.

هل أبدأ مع تلك الطفلة الجامحة هناك؟ أم مع صبية مهاجرة فتحت لها لندن أبواب الحياة بثراء والدها ومكانة العائلة؟ أم عن حبي الكبير لك ثم خذلاني به؟

الشريط مرتبك.

هل أصارح منار بأسباب اختلافنا؟ حقائق أخفيتها كانت صخورا سدتّ دروبنا، كلما نسفت أحداها تطاير ركامها وجرّحني، بارود فتّت احتمالي مثلما فعل بتلك الصخور في غور الصافي ليشقّ الطريق إلى حلم الثراء ناسفا ما اعترضه من قيم ومبادىء؟

وحدها المشاعر لا تكفي للحكاية. التعبير موهبة.. يأتي كلمة أو لحنا، تمثالا، أو لوحة لجسر يقهر عنفوان نهر، حديقة يتمازج فيها إبداع العقل مع قدرة الخالق. روايات وأفلاما ومسرحيات تسطع بالأفكار.

وأنا بحر أفكار عاصف.

والكتابة وسيلتي لمواجهتك بحجم ما في صدري.

تطوّح بي الجرعات إلى خمول يعطّل الحواس. أقاوم الغثيان بالأدوية، بروق تسطع لحظات.. تنطفىء، تدفع بي إلى ضباب التيه وعدم التركيز.

أسابق الوجود بالكتابة.

صحوي صور الماضي والحاضر، وارتخاء أقهره بالحركة فتخذلني قواي، ويهزمني النوم.

المدينة حولي هادئة. وجه منار الملائكي طاقة أمل، جمال يسابق تكوينه.

قالت أمّي حين قرّرنا الاكتفاء بها: الشمعة الواحدة تبدّد الظلمة، والإنارة تحتاج حزمة شموع.

أندم على الاكتفاء بها. أشفق عليها من وحدتها وفكرة الغياب، يبكي الموبايل معها من عدم فهمها لتغيّري. لا أستطيع إلا التنصّت على هواجسها وهي تبثّ لك ألمها من عدم إدراكها ما يحدث لي. ولا أدري بماذا أجبت وكيف فسّرت طلاقنا وتحويل الشركة لي.

التنصّت عادة طفولتي... خرقت به قانون العائلة بأن نعرف بمقدار ما يُسمح لنا، وألا نقترب من أسرار حمتها سطوة الطبقة.

دائما أردت أن أعرف.. المعرفة تمرّد على السائد.

حين صالحَتْ مدينتُك غربتي، كنا قد ابتعدنا مسافة لا رجعة فيها. سار كلّ في اتجاه. وأنا اخترت مواجهة الحياة وحدي، أن أقاومها وأنتصر.

تغيّرت عمّان، كبرت بجمال لا يشبه ما رأيته منها أول مرّة.

بتوق الاكتشاف سابقت من معنا من ركّاب الدرجة الأولى. ذراعك طوّقني بينما السلم الكهربائي يجاذب باب الطائرة بين قبول وردّ.

لهيب تموز صفع وجهي.

لا حسرة في الابتعاد عن مكان أثير إن غادرته مع من تحبّ. بشوقي إلى حياة جديدة معك يظللها الحب تنازلت عن علاقتي بلندن.

لندن أعطتني العلم والنجاح وصداقات ومرحا، حياة جميلة رغم ما تجاذبها من ماض حاولنا أن نرفع معه جدران النأي والنسيان، فظلّ شفّافا يعكس إلحاح الصور.

أجرّ حقيبتي الصغيرة وراءك إلى تفتيش الجوازات، تعلّقت بذراعك. طوّقتني ابتسامتك... هطل الحب.

أنا حبيبة العين أرسلان الغلزاني... قدري الهجرة، أحس أنني من مكان لا أعرف. ولدت في بلد، وتشكّل وعيي في بلد، وأبدأ معك في بلد لم يخطر على البال.

أشباح نفسي تنقضّ على الأمكنة الجديدة. تعايشها. تتكيّف معها... تعتادها.

لندن الوعي. وما قبلها ذكريات مختلطة عن وطن بعيد نسجته من تناثر القصص، من بقايا رؤى وأحلام، ومن شاشات لا يغيب الوطن عن أخبارها.

يفسد الحنين إلى الماضي وهج الحاضر.

وأنا قدري الترحال. أسلّم شراعي للمجهول وأمضي.

ليالي المدن من نوافذ الطائرات أكثر سحرا، كأنما خطّطت ليطلّ عليها المسافرون، ومعرفتها نهارا لا تزيل وحشة الاغتراب ولا تشبه سحر الأنوار.

تغيّر الأمكنة ساكنيها.. يتنوّعون مثلها.

كبرت في مدينتك دون أن أشبه ذاتي.. تلك ذات أخرى كانتُ هناك، طفلة متمرّدة، صارت صبيّة ناجحة في لندن.. لكنني حين اختلفنا وضاع الحب أفتقدت ذاتي. تلك الذات التي أجادت القفز على الحواجز دون أن تعرف الاستكانة. صراع ذاتين يسحبني إلى طفولة هناك، غنيّة متقلّبة كعواصف شتاء الوطن البعيد، باردة كالثلج المتراكم على جبال تشهق نحو السماء بلا توقّف، دافئة كصيف قصير قائظ في فصول أربعة تفرض حضورها، ومناخ يخلع رداءه بهدوء.

ذكرياتي حائرة بين حقيقة وخيال، لوحات من الحنين في قصص أمّي، وحقائق من كلام أبي القليل.

لا تخطىء كيمياء الحب هدفها في لقاء أول. غيّمت روحي بالخوف من مدينة جديدة، لكن دفء يدك أعادني من خشيتي، والسيّارة نهبت الطريق إلى مدينة الدوائر المغلقة، المنابت والأصول والعشائر.

خبرت مثله وعشناه في وطن بعيد تركته طفلة.

التفاخر بالأنساب يفرض المكانة في دوائر المعارف. تفيّأت شجرة أبي الزعيم وأمّي الشريفة في دوائر المعارف والعمل فارتسمت هالة

حولي. تحدّثت عنهما كثيرا فذاب جليد التحفّظ مع الآخرين، وفتحت لي المدينة بعض أبوابها... كان العمل هو الطريق الأقصر لفرض الوجود، ثم لقاء الأهل في مدارس باهظة التكاليف صارت منار من طلاّبها.

الحدود والطبقات سمات يتشابه فيها البشر.

يدبّر القدر فرصا يلهو بها، قصصا أغرب من الخيال، فتشابهت حكايات الحب والحظوظ الكبرى في موروثات الشعوب.

تصنع الصُدَف أحداثها ويرتّب آخرون صدفهم.

أنت صدفتي التي دبّرتها وحدك، وكنت اعتقدتُ أن شِباك القدر نسجت حكاية حب عادية، فتاة شرقية مهاجرة رضخت لإرادة أبيها في خيارها الدراسي. وشاب طموح يبحث عن فرصة في لندن فالتقيا.

في لحظة حبّ، بعد ولادة منار بقليل قلت إنك حاصرتني بشباك صيدك، وحضورك إلى عيادة دكتور جونسون لم يكن صدفة، بل من أجلي.

أعجبني أن تحبني قبل أن تراني.. أو هكذا اعتقدت.

قلت مازحة: ماذا إن لم أحبّك؟

- كنت واثقا أنني سأخرج بك من العيادة.

الصراحة المتناهية تزعج العواطف. ابتلع الحب جرعة غرورك برضى.

- لو تمسّكت بخياري ولم أجامل أبي في تخصّصي لكنت الآن طبيبة نفسية ولم نلتق.

- كنت سأدّعي الجنون لتعالجيني.

كان رفض والدي لاختياري دراسة الطب النفسي عنيفا، وجرحه من اختيار مهاب وعالم لدراستيهما ما زال طريًا.

- هل تعتقدين أن أحدا هناك سيقبل بعملك حين نعود؟ طبيبة نفسية في بلاد لا تفرّق بين المرض النفسي والجنون! صحيح أن الشعب كلّه هناك يحتاج العلاج، لكنهم سيذهبون للمشعوذين لا للأطباء.

- لكننا في لندن، والعمل متوفّر وبمستوى مرموق، الشركات الكبرى توظّف الأطباء النفسيين لتحسين العلاقة بين موظفيها فيزيد إنتاجهم، والمدارس توظّفهم لمعالجة مشاكل الطلبة، وأتمنى التطوّع للعمل مع أطفال الحروب والصراعات، والطلب من المنظمات العالمية على هذا الاختصاص كبير.

- هذا هنا، لكننا سنعود.

حُلْم أبي بالعودة إلى الديار لم يتوقف رغم ما تحقّق لنا جميعا من نجاح وأمان ورفاهية.

- ابنة الغلزاني مع المجانين؟ أليس هذا هو الجنون بعينه!.... تدخّلت أمّي.

- ابنة السفير في المصحّات ومستشفيات المجانين والمدمنين؟ أردف أبي بسخرية وأسى.

رغم قصر عمل أبي الدبلوماسي لبلد لم يعد يعترف به، ورغم ما يكتب على مغلّفات الدعوات الرسمية إلى رجل الأعمال المرموق ظلّ أبي يقدّم نفسه السفير السابق، ولا يكفّ عن الحديث كخبير عن قضايا بلاد لم يعد إليها، وبلد لم يتوقّف عن تبديل الزعامات منذ غادرنا قبل سنين طويلة.

نجاح أخويّ مُهاب وعالِم التجاري لم يغفر لهما الخروج عمّا أراد. أجهضا حلمه بمهندسيْن يديران شركة مقاولات كبرى تحمل اسم الغلزاني، تعود لإعادة إعمار وطن مزّقه صراع العقائد والسياسة.

تلقي الأوطان بأزماتها على نجاحات المهجر. تحتلّ تجمعات اللاجئين، حتى إذا تكيّفوا مع الجديد، علّقوا الأوطان صورا في بيوتهم، وكرّسوها ذكريات وأعيادا وطنية في السفارات ونوادي الجاليات... وبلا حدود أفاق الأحاديث السياسية بعيدا عن الخوف.

الوطن قيّد انطلاق المهجر بحضور لا يغيب، حبل سرّي تغذّيه أخبار الشاشات بلا توقّف.. فرض الوطن المأزوم هواجس عمّقت الغربة، منعت الاندماج في بلاد تفتح ذراعيها لطموح الغرباء. لم يغب الماضي عن لقاءات أبي الزعيم البشتوني ورجل الحكم البائد مع أصدقائه، نغّص علاقات ومنع أخرى بين جالية هاجسها الخوف، أطياف متنازعة، عقائد وأفكار وشكوك واتهام بالجاسوسية لضبّاط مهاجرين، والخيانة لحاشية الملك ورجال الأعمال.

سأكتب قليلا عن وطن طفولتي.. ذكرى بهيجة في خراب الجسد. عن وطن وذكريات تتأرجح بين حقيقة وخيال.. صور باهتة تعزّزها

شاشات الأخبار وعواصف السياسة، أغراب يقاتلون باسم الله فوق أرضنا، ويزرعون الحشيش ويهرّبون الأفيون ويشترون السلاح باسم الدين.

لا خلاص من ماض حبلك السريّ مشدود إليه.

وحدها الإشارات جمعت حكاية الخوف وقرار اللجوء إلى بريطانيا.

مكتبة
t.me/t_pdf

يضيع اليقين حين لا يملكه أحد.

الذكريات مشوّشة.... تتداخل!

سأبدأ من قراري مجاملة أبي في تخصّص علمي اختاره لي.

في جامعة إمبيريال كولج Imperial College في لندن. تخصّصت في الأمراض الجلدية. عملت مع مستر جونسون، أحد أشهر أطباء الجلدية في بريطانيا.

وجئت مريضا إلى عيادته فأشقيتني بالحب من نظرة أولى.

لم تلاحظ توتّري. لكنني كنت.

طاقة فرح تسبق الحب، تنثر رحيق الشغف، تميّز ولادة العشق.. شهب تضيء العيون، أحسست ابتسامتي في حرج جميل. كانت الغرفة تتسع لما هو أكبر وأعمق من لقاء طبيبة ومريض.

- وحده الفحص بالشريط اللاصق سيعطي النتيجة الأفضل، حساسية لمادة أو طعام.... قلْت بينما أتفحّص البقع الحمراء على يديك وعنقك.

- منذر الشرفا.. مهندس أدوات طبّية.

- قرأت الاسم على الملفّ. هل الشرفا من الأشراف؟

وافقت بثقة واعتداد.

- في بلادنا سلالة أشراف أيضا. ربما كان لهم صلة مع الأشراف عندكم؟ ... قلت.

في موضوع الاتّكاء على الأسلاف والتفاخر بالتاريخ صرْتَ أكثر جديّة.

اعتدلت في جلستك:

• عندنا سادة في بلاد العرب مشرقها ومغربها وأشراف وأنصار، ولا أدري إن كان لهم صلة بمن عندكم. لكنّ السادة من بقايا فتوحاتنا أينما وجدوا.

• حبيبة ماء العين الغلزاني. من سادة بلادي ولا صلة لنا بكم أو بفتوحاتكم، قبائلنا عاشت في خراسان قبل وصولكم.

تعمّدت الحديث ببرود في موضوع أثارني.

لم أبادلك الابتسام. وفي تحدّ وبلا انفعال وأنا أمطّ الحروف أضفت: وأمّي من أشراف العرب من سبط الرسول، وصل أجدادها بلادنا في عهد المعتصم، فلقّبوهم بالشرفاء وأحيانا السادة. أما أبي فسيّد قومه أبا عن جدّ ـ ولا صلة له بالعرب.

لا فاصل بين المشتهى والحب في إقدام رجل جريء.

لم أؤمن بحب النظرة الأولى حتى جرّبت. كيمياء هزتّ الروح، يقين داهم بأن الآخر اقتحم حياتك، وسيلعب دورا فيها تحدّده ظروفك، تنشغل به، تتصيّد حروفه، تضيّع الساعات في تفسير حركاته، وتحمّل كلماته ما يُرضي عواطفك.

تشتعل الأحاسيس بعدم اليقين في مغامرة سراجها القلب. لا تشبه مشاعر منتصف العشرينيات مناوشات الحبّ في مدرسة مختلطة، إعجابا يولد من أوهام الصغر، ثم يتناثر على دروب النضج ووعورة مسالكها.

مكانة والدي الزعيم البشتوني لاحقتنا في المهجر فحدّدت علاقاتنا، وهم كبير عن رقابة الوطن على حياتنا الجديدة، خوفنا من تجارب حبّ يزهو بجنون المغامرة كما الناس حولنا. متعب أن تعرف أن غريبا يراقبك لأنه يعرف من تكون، جالية كبيرة لاجئة حملت وطنها وأفكارها معها، تبحث في فضول عمّن سبقوها، تلوك قصص الاغتراب وتتباهى بالاحتفاظ بتقاليدها.

يضيق فضاء الأمكنة حين يزدحم بمن تعرف. متعب أن تحس أنك مراقب من عيون لا تراها، تحصي خطوك لأنك مولود لرجل غير عادي، مرغما تحجم عن تجارب الحياة يمارسها من في عمرك لأن من يملك أمرك غرسك في فضاء اختاره دون استشارتك، تنموَ في تربة لا تشبه ما اعتاد عليه، يمنع جذورك من امتصاص قيم محيطك الجديد لتظلّ فرعا أصيلا يرفض التهجين.

مثل قدم صينية في قالب حديدي كبرْت. قاسية برودة القوالب وحدودها. قيّدتني مكانة لأبي يهتم بها محيطه. هيبة رسمت ما يجب ولا يجوز.

أفسد الماضي حاضرنا في مدينة الدهشة لندن.

تفحّص مستر جونسون وجهي باستغراب في يوم موعدك الثاني، ابتسم، وبتهذيب انجليزي متحفّظ أبدى إعجابه بما أرتدي "نايس دْرِسْ" Nice dress قال.

تركت نصف خزانتي على السرير. غيّرت المكياج مرّات. تطاير عطري، ابتسمت أمّي ولم تسأل، ملامحها تمنّت ما لم تفصح عنه، لقاء ينهي عزوبية ابنة تجاوزت الخامسة والعشرين، شرقية، عادية الجمال، ناجحة، ابنة أصل ومال لم يتقدّم لخطبتها أحد.

بجملة قلّما تغيّرت كأنما تعتذر عمّا لا تملك:

- الله أعلم أين النصيب، اقتلاع الجذور يقلّل الفرص، وهرم الحظ يضيق كلّما ارتفع.

تثاقلت ساعات انتظاري حتى وصلت.

مرّات، في لحظاتنا الحميميّة، أحجمت عن الاعتراف بأن قشعريرة مثيرة من فوح عطرك أربكتني. أن أصابعي سابقتني بينما ألصق الشريط بموادّ يتحسّس منها البشر على عري ظهرك، وأكتب أسماءها بالقلم أمامها. وسمرة جسدك مصقول بالتمارين والسباحة كتمثال إغريقي.

- كأنما تتعبّد في الشمس؟! التعرّض الطويل لأشعتها ضار كما تعرف.

- شمس لفحت وجوه الأنبياء من إبراهيم وموسى إلى هارون وعيسى في بلادي لن تضرّ أحدا.

كون جديد ولد من ابتسامتك، وغابات إعجاب أينعت في عينيك المغروستين في وجهي.

ارتبكت.

- لا ماء على منطقة الظهر لثلاثة أيام وتعود.

ضحكنا على اعتراضك العنيف بعدم الاستحمام.

- لا بأس بالشامبو الجاف لعدة أيام.

لولادة الحب إشعاع والعيون تفضح المشاعر.

جئتَ مبكّرا إلى موعدك الثالث وكنت أنتظر.

أمام علامة وحيدة انتفاخ واحمرار.

- حساسية المعادن! ربما واحد في المئة يصابون بها وأنت منهم؟... قلت في دهشة وأصابعي ترتعش بينما أمسح عدوان التجربة عن ظهرك، وامتزاج رائحة ابطيك مع عطرك أكثر إثارة.

- من سيفطن إلى حساسية كهذه؟ لهذا فشلت العلاجات كلّها! الحمد لله، معظم الأدوات الطبيّة الآن من البلاستيك وقليل من المعادن.. قلت وارتديت ثيابك على مهل.

- استعمل القفازات وتناول حبّة من الكلاريتين مساء حتى تزول العوارض أو عند الحاجة.

سألتني عن موطني والصراعات فيه، وإن كان لوالدي أي دور سياسي الآن.

يضفي الحب غباشا على الحقيقة، انتشيت بمكانة لوالدي يعرفها غريب مثلك.

قلت إنك مهاجر مثلنا، خبرت الاغتراب بعد تهجير عائلتك من القدس. تملك شركة للأدوات الطبيّة في عمّان، فرع لشركة أمريكية بريطانية كبرى.

نبّهني مستر جونسون بلطف وحرج أن المريض التالي ينتظر منذ مدّة.

بلا تردّد قبلت دعوتك للقاء بعد العمل.

*****

للحب سطوته، لا رغبة لي في التباهي بالمعرفة. لا شهوة للمناكفة أو إثبات الحضور، عادتي كلما التقيت أحدا أول مرّة. عادة خسرت بها بعض الأصدقاء. كثيرا نبّهتني فردوس لأتوقّف، لم أستطع.. هل أنا مسكونة بسطوة لأبي في مجلسه كانت، إعجاب طفلة بوالد عارف، يصمت الحضور إذا نطق، ظلّت له خواتيم الكلام، وحين يقوم ينفضّ من حوله؟

- أرسلان الغلوازي يحبّ الاختصار لأنه يعرف، طاف العالم ودرس في أكبر جامعاتها، عمله في البلاط علّمه الصمت رغم علمه ببواطن الأمور. ولا ننسى أنه كلّما اتّسعت الرؤية ضاقت العبارة.

تختتم أمّي إعجابها الكبير بأبي بمقولتها الصوفيّة... ولم يكن الشيخ ابن عربي الأثير لديها بل جلال الدين الرومي:

- الشهرة جزء من حظ الإنسان، وبعض المنشدين وشيوخ الحضرة في باحات المسجد الأزرق أكثر معرفة وأشد تأثيرا على النفوس من معلّميهم، كلماتهم وأناشيدهم أفضل من الكبار. قالت لأبي مرّات
- لولا تميّز الكبار لما حملهم الزمان إلى أيامنا وصار هؤلاء امتدادا لهم.

في مقهى الشاي الصغير في هارودز كان لقاؤنا الأول بعد عملي، أمواج من تناقض بشر وأجيال، عجائز لندن في طقس شاي الثالثة

عصرا. وجوه من أجناس مختلفة تزاحمت في متجر صار عنوانا للملكة وتاجها قبل أن تنتزعه ثروات وافدة.

تركت لك فضاء الحديث في نشوة الهوى.

للتفاخر بالأنساب في موعد أول معنى لا تخطئه عاشقة. يبحث الحبّ الوليد عن دلالات تؤكّده.

كأنك كنت تعرف، لم تسألني عن عائلتي. قلت بينما نستعد للسفر إلى بلادك إنك جئت إلى عيادة مستر جونسون من أجلي، ثم عرفت بعد انفصالنا أن قريبة لك وزميلة دراسة لي، نصحتك بمستر جونسون لعلاج الحساسية، وأنها حذّرتك من التعامل مع دكتورة أفغانية مهاجرة، تتصرّف كأميرة لاجئة، متعالية، تتفاخر بأصلها وما حقّقت عائلتها.

لم تذكر زميلتي تلك يوما وحتى كشف صديقك أنك قررت الزواج بي قبل أن تراني. فخلقْتَ صدفتنا. لا عجب فأنت من مواليد برج الثور، دون حرص تندفع إلى ما تريد، وتناطح ما يعترض.

سمح حبي بطغيانك فتوحّشت رجلا لا أعرف، وكبرنا في اتجاهين مختلفين.

لم أعد معك حبيبة العين أرسلان الغلزاني. أنا أخرى لا أشبهها. تلك عنوانها التمرّد، وأنا مقيّدة إلى حدود رسمتَها أنت، كلّما رفعْتَها تخاذلْتُ أنا عن القفز فوقها.

أنا حبيبة العين الغلزاني طفلة تلك الدارة البعيدة، أنطلق فوق صهوة حصان جامح حول الدارة الواسعة، هدير موتور الكهرباء يزعج

المساء، لهثت الخادمة ورائي، وتوسّل حوذي الإسطبل أن أعود، حاول فزعهما اللحاق بي عبثا، عدت ضاحكة وسالمة، هدأ رعبهما، فركا أكفّهما في ياس من عبث لا يعرف الخوف. تواطأنا ألا تعرف الشريفة، تسلّلت إليهما بأكياس الحلوى في يوم تالٍ، وأعدت الانطلاق.

في البال ضحكات العبث، مدوّية لاهية في توسّلات حارس الزريبة، حائرا لا يعرف كيف يردّني حين دعوت أطفال العاملات إلى عربة مشدودة إلى بغلين، ضربتهما بالسوط فاندفعا بالعربة وحمولتها الثقيلة. وكلّما ضحك الأطفال اشتدّ سوطي على البغلين.

محبط احتمال البغال لقسوة البشر. مثيرة للأسى تلك الاستكانة والصبر الذليل، ترضخ بينما يزيدون أحمالها. تترنّح وتكاد تقع دون أن تحاول الهرب.

الكهرباء زغرودة الحياة في الدارة البعيدة حين يعمل المولّد الصغير ساعات قليلة. حاسبت أمّي العمّال بقسوة على نضوب سريع لخزّانات الكاز. أنهى والدي تذمّر العاملين واحتجاجهم بأن دفنوا الخزانات في الأرض وسلّموا المفاتيح لمدبّرة المنزل. اقتنعت أمّي بالتكلفة فسمحت بالكهرباء في الهزيع الأول من بعض الليالي وجميع الأعياد واحتفالات عودتها من الحجّ.

مواقد الحطب ظلّت عصب الحياة في الدارة والبيوت حولنا، لا تخمد النار في المطبخ الكبير تُحضّر فيه الوجبات. خليّة نحل قرب سكن الخادمات يبدأ طنينها مع الفجر وتنام مع انتصاف الليل، يتّصل المطبخ بالدارة بممرّ مرصوف ومسقوف، لم تعرف الدارة رائحة الطهي منذ بُنِيَت، نقل الطهاة الأطباق الجاهزة إلى غرفة تحضير من خشب الكرز

الأحمر ملحقة بغرفة الطعام الواسعة، كانوا يعدّون المائدة ويختفون قبل دخولنا.

للغربة شروطها، اعتدنا رائحة التوابل الأفغانية النفّاذة في الشقّة الواسعة في لندن، أحضرها السائق من محلاّت المهاجرين في إدجور رود. تحضر طاهية كلّ خميس بترتيب من سارة، تعدّ أطباقا أفغانية يحبّها أبي وتكفينا أسبوعا، وتحفظها في الفريزر.

سارة شريان الحياة في هجرتنا. علّمتنا لندن. فكرّت فيما نحتاج إليه قبل أن نطلبه. كلّ شيء.

موقع سارة في أسرتنا أربك علاقتك بالعائلة في البداية، ثم أدهشنا تحوّلك السريع حين أدركت أن مكانتها من أسرتي ليست خيارا، أدهشني جفاؤك معها في لقاءات أولى، ثم شراكتك مع زوجها وابنها.

غشاوة حبّي لك أعمتني في البداية عن اكتشاف أن مصلحتك تقود خطوك.

يمسح الحب خطايا الحبيب، يدثّرها برداء البراءة وحسن النوايا.

بحذر تعاملْتَ مع سارة وعائلتها حين أدركت أن كفّتها قد ترجح عند والدي في الموازنة بينكما.

سارة رتّبت حياتنا قبل الوصول وبعده، الهجرة والبيت والسائق ومساعدة المنزل والطاهية.

وازنت سارة بين ماضٍ من حياتنا كان وما يفرضه الواقع الجديد. حافظت على ما يبقي مكانتنا في بيئة جديدة، وما يضمن توازننا في ثقافتين لا تلتقيان.

لندن تمنح الرفاه لمن يملك.

*****

ضعف الأضواء في قرى العوز يثير خيالات الخوف من أي ساكن أو متحرّك. اشباح تلاحق الناس في عجز مصابيح الكاز عن ردّ الظلمة. تصير مساءات الفقر خوفا ووحشة.

لا فرق في جبروت الطبيعة بين ثراء وفقر، وحده الإنسان صنع الفرق، تقفر شوارع لندن في ثلوج شتائها، تحتمي بالدفء وأنوار دروبها، بينما تعصف الرياح بأكواخ الفقر هناك، تغرقهم السماء بالوحول في برد وعتمة. وشتاء عمّان يقسو ويحن.

تنام قرى الفقر هناك مع بواكير الظلام ثم تصحو مع الفجر. ويرسم الليل معالم مدن تتوهّج بأضوائها رغم قسوة شتائها وصخب رياحها.

سكون مريب يلفّ لندن في ليال تقاوم الصقيع. حركة المرور في شوارع المال والتجارة تخف ولا تتوقّف، بينما تنتظر عمّان مطرها في شوق. تغرق شوارعها بينما تتدفأ بالتحام الأفراح والأحزان.

مغروس في الذاكرة أن بيوت العمّال في أرياف العوز حول الدارة نامت دائما على صلواتها لتردّ غائلة الطبيعة.

شباب وأطفال ولدوا في أكواخ الفقر والعتمة.. أجيال استسلمت لما عرفت، على مرمى البصر منهم مصابيح دارة تتوهّج.. ماسة بين أسمال.. كبر حسد الصغار معهم وهم يراقبون دارة لا تشبه ما يعرفون.

من رحم المقارنة يولد الرفض. كثير من أطفال القرى حول الدارة التحقوا محاربين في الجبال باسم الدين، تعلّموا الحقد على الثراء ومن يملك، تمرّدوا على العشيرة والزعامة. ومن هدير طوفانهم هربنا.

الوجوه الصغيرة محشورة بين قضبان البوّابة الحديدية الضخمة للدارة بعض صور لا تغيب، تنتظر الهبات في صباحات الأعياد، وقبل صوم رمضان وفي منتصف الشهر والعيدين... حسد منكسر يزيده ظهورنا في ثياب جديدة، لا اعتبار لمشاعر المحرومين حين يتباهى القادرون بعطائهم. نقف في الجهة المقابلة خلف البوابة وما زالت مغلقة، نغرف من سلال يحملها العاملون، نقذف لأطفال في عمرنا حلوى ونقودا ولحوم الأضاحي، يتدافعون لالتقاط ما يرمى لهم في ذلّ، بينما عصا الحارس تأمرهم برفع الصوت بالدعاء للزعيم والشريفة وأولادهما. ردّدوا دائما ما أمروا به، ولا أدري ما ارتسم على وجوه تستدير وتبتعد. لكن معظمهم كبر في الجبال مقاتلا مع طالبان. .

لم تتحدّث فردوس يوما عن مشاعرها والصغار يرددون بأن يحفظ الله الزعيم أرسلان الغلزاني والشريفة هانية والعائلة، بينما أيديهم ممدودة لإحسان مشروط بالدعاء.

- أنت وفردوس فرعان في شجرة واحدة، لكنّك الهجين في ارستقراطية الغلزاني... مازحتني أمّي.

موقفك من ردّ فعل الآخرين أساسٌ لخرق قانون أو عادة، يحدّد مساحة التحرّر أو الرضوخ.

طفلة كسَرْت حاجزا منع علينا دخول بيوت الفقراء.

في حادثة نادرة كانت البوّابة بلا أقفال والحارس غائب. تسلّلت رفيقتي الطفلة من لعبنا إلى بيتها، ركضْتُ خلفها... بيوت صغيرة تزاحم الأشجار على ضيق أرض بنيت عليها.

للبدايات فتنة، توقّفت الطفلة، ابتسمت لوجودي، تسابقنا في صمت.. لم نتّجه إلى دارها، سحبنا الربيع إلى الخلاء خلف الدور، جمعنا ورود البريّة في بداية ربيع واعد. فسحبت خطونا أبعد.

والمساء يناوش حياء النهار أضعنا درب العودة.

تاهت الاتجاهات في خوفنا.. قال رعب الصغيرة: البريّة تعجّ بالذئاب والضباع... وبكت... شلّني الخوف مثلها.. بلا حراك وقفنا وبكينا معا. بدت السماء واسعة ومقطّبة بلا نجوم أو قمر، والسماء أكبر من مسار العودة.. والجبال فضاء كبير.. خفنا أكثر.. سمعنا نداء أمّها.. تبعتها جلبة اقتربت، قادنا صوتها.. رفعنا صراخنا.. وصلت تحمل مشعل زيت يحترق، وحولها صبية رأوا انطلاقنا إلى البريّة.

بغلّ الخوف هاجمت الأم صغيرتها، ضربتها. وبكت لأني سليمة. وما زالت تبكي أعادتني إلى الدارة... ركعت عند قدمي أمّي وأقسمت أنها لم تعرف بخروجي مع ابنتها. طردتها أمّي بقسوة، ومنعت ابنتها من لعب يفسد تربيتنا ويكسر قوانينها.

أحكم الحارس الجديد إقفال البوّابة.

يحمّل الآباء أخطاء أبنائهم لرفقاء لا يحبونهم فترتاح ضمائرهم، يصبح الشرّ عنوانا للآخرين. لم تتوقف عن التحذير من أطفال يتربّون خارج الأكواخ بلا ضوابط. ولم تصدّق يوما أنني لحقت بالصغيرة وحدي.

من كوّة في السور لم ينتبه إليها أحد، فتحة صغيرة قرب اسطبل الخيول تسلّلت بعد أيّام إلى بيت الصغيرة.

يعجز الكبار عن فهم تمرّد أطفالهم. لم تتخيّل أمّي أنني بين الفقراء أصبح مركز العالم. تقديس لحضوري لا يشبه تبجيل العاملين في الدارة. نجمة هبطت في مكان لا تنتمي إليه.

برهبة الأولياء والخشية منهم تلقّفني أهل صديقتي، وخوفا من أن أفسد جلال الانتشاء باهتمامهم كذبت، قلت جئت برضى أمّي.. عيونهم لم تصدّق، ورغم الريبة سمحوا للصغيرة باللعب معي.

في ساحة ترابية أمام الدور تجمهر الصغار حولنا في وجل.. نبعوا من بيوت صغيرة. تابعوا كرامة حلّت على الطفلة وحفظوا المسافة بيننا.. لعبنا الحجل، ضحكنا كثيرا، فجأة امتدّت يدها إلى يدي.. أمّها راقبت ما فعلت.. نهرتها... ردّت الطفلة كفّها في وجل، همست الأم بما لم أسمع.. مشت الصغيرة خلفي على مسافة لم تتغيّر. هل كان اسمها حسناء؟ ساحت الأسماء في الذاكرة.

العالم خلف الدارة على فقره فسيح ومتنوّع. مكتظّ بالمشاعر والتفاصيل. بيوت الضيق اكتفت بفقرها، لا تتعربش الفضاء ولا تسابق الأشجار.

طفلة أدركتُ أنّ الدور عنوان الفقر أو الرخاء، وأنّ الضيق يتمرّد فيهرب إلى النور. وأن الرفض أو الانكسار يكبران في عتمة الأكواخ.

العبث الطفولي أمام بيوت الطين كسر حاجز الهيبة، رسمنا على التراب مربعات وبدأنا لعبة الحجل من جديد.. خرجت فتيات من أسوار الطين حولنا، اقتربن في انكسار. طال وقوفهن يغطين أفواههن بالأكف حائرات.. تجرأت إحداهن وتقدّمت وشاركتنا اللعب. ضحكنا فتدافعت الأخريات.. رسمن على التراب مربّعات متوازية، كتمت الصغيرات ضحكات الانتصار على الخوف حين انفجر ضجيج التسابق الطفولي. امتلأ التراب بمربعات وأقدام تتسابق وتحاول الوصول إلى النهاية.

رعاع صرخنا وضحكنا واختلفنا.

لخبز الفقراء رائحة ومذاق، قضمنا أرغفة التميس الحاف.. ساخنة خرجت من التنوّر. ولم نكن بحاجة إلى غموس.

والأم تعيدني إلى الدارة سمعت لهاث قلبها، توقّفت بي عند البوّابة.. وجه الحارس بلون الزعفران.. تنهّدت المرأة وبسملت، قامت أمّي عن الكرسي في الشرفة حين لمحتنا. وجهها صارع الغضب، جثت المرأة عند قدميها وتودّدت: شرف كبير وجود ابنة الشريفة في دارنا وبرضى منك. بارك الله فيك.. لعبتا في الساحة المكشوفة. لم تدخل الدار أو أي مكان مغلق، ولم تختلط إلاّ بابنتي.

طال صمت أمّي. سحبت المرأة خيبتها وابنتها وغابت.

لم أدعَ للعشاء، ولم تترك الخادمة صينية الطعام عند باب غرفتي كالعادة في عقابنا. تركوني وحدي.

بكيت.

كأنني انتصرت. تغيّرت قوانين الدارة مع الصباح التالي.

في العاشرة من كلّ صباح أحضر السائق الطفلة.. لعبنا لساعات ثم أعادها. بعد أسابيع فتحوا البوّابة لأبناء العاملات عصرا ليلعبوا معنا.. عالِم وأنا. وعالِم يكبرني بخمسة أعوام، جمعنا الانسجام والحب منذ كنّا طفلين هناك.

عبث الصغار ظلّ متحفظا وجلا مما لا يعرف لكنّه كسر رتابة الحياة. أعدّ العمّال زرائب الحيوانات، تحمّلوا عبث صبية من أبناء الفقراء مثلهم في سخط. تذمّرت الخادمات من تحضير الفطائر وحلوى البقلاوة بالجوز لأطفال يعيشون في أكواخ الفقر، وأمهاتهم يحلمن بالعمل في الدارة. تسابق الأطفال إلى الاسطبل، ركبوا المهر المقزّمة على الطريق المرصوف بمحاذاة السور من الداخل.. ركضنا خلف الإوزّ.. تسابق البطّ لالتقاط فتات الخبز رميناه في البركة الصغيرة.. تراهنّا على من يرتفع بالمراجيح أكثر. برقت عيون الصغار بفرح التجربة لأول مرّة، الانطلاق بالسيارة، تكدّسنا في سيارة الفورد المكشوفة دون أن يكفّ السائق عن التذمرحتى أنهى دورات عدة حول الدارة.

في استياء واضح وزّع الخادم بعض الطعام على الصغار، وأغلقت البوّابات حتى يوم آخر.

حدث جديد في الدارة كرّسوا له يوم الخميس. سباق الدرّاجات.

عند العصر حضرت الأمهات والأطفال، أقعين على الأرض تحت الشرفة. سبقت الخادمة ظهور أمّي فهبّت النساء وانحنت الظهور لتلامس الأرض حتى جلست.. بجانبها نعمة الوصيفة، وفي مرّات كثيرة أطلّت سارة. ردّت أمّي تبجيل النساء بضم كفّيها فزال بعض التحفّظ.

بدأ السباق، دورتان على طول الطريق المرصوف حول الدارة بين فريقين للبنين وآخر للبنات.. علا صراخ التشجيع مع الصافرة.. توزّع العاملون حول الطريق تحسّبا.. اشترى أبي درّاجات بعدد الأطفال ظلّت في مخازن الدارة يوم رحيلنا.

بدأ السباق من أمام الشرفة وانتهى عندها ـ قدت فريق البنات، وترأس عالِم فريق الأولاد.. ظهرت فردوس ومهاب مرة أو اثنتين في الشرفة مع أمّي وغابا عن النتائج... الفريق الفائز هو أول من يصل متسابق منه أمام أمّي. كانت جوائز الفائزين ألعابا أو قمصانا ملوّنة أو أكياس حلوى كبيرة، أمّا الفريق المهزوم فجوائزه لم تتغيّر، قطع حلوى صغيرة.

خسارات صغيرة أبكت طفولتنا قبل أن نجرّب خسائرنا الكبرى.

ضيفات أمي كوادر أخرى زحفت إلى الدارة في مناسبات عديدة. تقليد ورثته مع مكانة الدارة وطبقة أهلها.

استقبال أسبوعي. زوجات زعماء القبائل وكبار الملاك من المناطق حولنا، تبعه يوم آخر لحاجات النساء من القرى القريبة. جسور حرص الأجداد على مدّها مع محيطهم، عطايا القادر للمحتاج.

مع العاشرة من صباح كل ثلاثاء، وعلى كرسي من الطراز الفرنسي في صدر القاعة لم يجلس عليه غيرها، بجانبها طاولة وتلفون استقبلت أمّي نساء الصفوة على كراسي الجلد الفاخرة تحيط بالصالة، أمّا أيام الأربعاء فجلست صاحبات الحاجة في صفوف على السجّادة الكبيرة قريبا من قدميها.

مجالس النساء في المجتمعات النائية غرف أخبار تنقل للمركز ما يدور على أطرافه. ورغم ما أبدت أمّي من تعفّف كانت القصص تسلّيها، وتساعد في تقدير مساعداتها للمحتاجين.

تكسر الحروب عنفوان النساء.. تمتهن آدمية الطفولة. تغيّرت النساء هناك، نساء البراقع والشادور على الشاشات لا ينتمين لذاك الوهج اختزنته الذاكرة.

فوّاحا كان عطر النساء في مجلس أمّي، باقة ألوان في ثياب تقليدية، الوشاح حول الرقبة، والشعر الطويل ناعما مصبوغا بالحنّاء، برتقاليا إن جبلت الحنّة بمنقوع قشر الرمّان، وسواد الليل إن جبلت بالزيت.

تناثرت الأخبار والضحكات مع الحلويات في استقبال زوجات الكبار، وهدأت هموم الحاجة في اليوم الآخر.

يشغلني حال النساء هناك. ضاع الأمل في التعليم والعمل مع أفكار سحبتهن إلى كهوف المقاتلين باسم الدين، نساء بلادي آلات تفريخ باسم الله، ينجبن أطفالا يتربّون على التعصّب والجهل وامتهان النساء.

كثيرة تراكمت الأسرار بيننا في مسافة الاختلاف ونأيك عمّا شغلني.

أردت الحياة معك شراكة حب فرفعْتَ الأسوار.. أخفيت وراءها وجها لك لم أعرف. لم تبد اهتماما يوما بذكرياتي عن تجربة الاقتلاع والهجرة، وأنت تجاوزت تجربة عائلتك في الاقتلاع رغم حرصك على قضيتك.. لم تغب الدارة وذكرياتها عن مساءات عائلتنا.. هجرة قسرية لم تعطّل نجاح عائلة الغلزاني في موطنها الجديد، لكنه اقتلاع وخوف.

تشاركنا في مناسبات كثيرة لجاليات من بلادك في لندن، ثم فتر الحماس مع الأيام. وانقطعت المشاركات في عمّان، يتسابق الحنين إلى الاحتفاء بوطن بعيد في دول الاغتراب، ترتفع الأعلام والأهازيج الوطنية، يتبختر المشاركون بملابس تقليدية وأهازيج وطنية، تتوالى التبرعات، كفّارة أوطان تعاني.

شحيح الحديث إذا اتكأ على ذكريات لم تعشها، عن اقتلاع لم تعش تفاصيله أو عصف بك خوفه.. صحيح أن حسرة الفقد تتشابه. لكن وطنك ذكريات عائلتك، ووطني تجربة اقتلاع لطفولتي.. التفاصيل هي الفرق، أنت ورثت الحب والانتماء إلى وطن عرفته منهم، عشقت أرضا بعيدة المنال. وأنا مثلك لأن الوطن لم يعد لي، لكنني مشحونة بذكريات عشتها فيه، فحملت وطني في حقائب هجرتي. فاضت وملأت دروبي. وعاد ملحًا وأنا أسابق العمر.

حكايات أمّك عن الوطن تشبه تجربتي. أنا وهي انتزعنا الخوف من بيوت وأمان كان لنا، هاجمها غرباء محتلّون في القدس، وتصارع الغرباء على أرضي فهربنا... ولدْتَ أنت في مهجر قسري، وحملت وطني إلى غربة طوعيّة.

الوطن في أحاديث عائلتك قصص اقتلاع من الأرض، وأنا عشت تجربة الاقتلاع، خيّمت على حياتي وإن لم تعطّلها، جمعني بعائلتك تجربة الانتزاع من أحلامنا، من امل بحجم أفق مسدود، كلانا يعشق ما فقد. وأنت ولدْتَ خارج ليالي الحلم، طفولتك قصص لعبوها هم، تعرّفت إلى أصدقاء طفولتهم كبارا، زملاء دراستهم انتشروا مثلهم في الشتات. وطنك حنين أهلك وقسوة تهجيرهم، وتساقط وطني على طريق الهروب حين فتح الأبواب لجحيم الغرباء وأفكارهم.

قلت في إلحاح أسئلتي لك عن وطن لم تره:

- رأيته بعيونهم، رسمته من ذكرياتهم، أريده لأنني مؤمن بحقّي فيه، وطني إرث الجدود وقلب الحنين، صحيح أن عَمَل والدي في الخليج أتاح لنا حياة سهلة لم يعرفها من سكن مخيّمات النزوح، ولا من بقي تحت الاحتلال، أو تعثّر في بقاع الأرض. لكن ذكريات طفولتي قليلة مع بساطة الحياة وهدوئها في دول وصلها الأهل وهي تبحث عن ذاتها ومكانة لها. انحصرت النشاطات بين المدرسة والنوادي وبعض الصداقات. لكن الحدث الأكبر في طفولتي كان دائما لقاء العائلة في إجازات الصيف، أمسيات طويلة سكنها التذكار، أحببت الوطن من وصفهم، رأيت القدس القديمة فسكنت

روحي.. عشقتها مثلهم، وسكنني غضبهم لانتزاع حقي.. كبر الوطن المسلوب في صدور الصغار شجرا من شوق وإيمان بالحق.

وطافح بالأسرار وطن حملْتُهُ في رحلة هجرتنا.. كثير منها أخفيته عنك ففي دور المال والسلطة خفايا بحجم النفوذ.

لكل ثروة قصة، ولكل بؤس رواية.

خرجت من عيادة الطبيب برغبة المكاشفة، أردت أن تعرف منار حقيقة إرثها لا ما سمعت من تفاخر العائلة.

نظرة اللوم في عينيها منذ انفصالنا تعذّبني، تعجزني عن هدم الصورة المثالية لعائلة الغلزاني رسمتها من أحاديث جدّتها.. وأمّي جمّلت الماضي كثيرا.

أكتب قصتي لمنار.

اعتذرْتُ عن مناقشة وضعنا فطبقْتَ الباب بعنف.. وبخروجك قطعنا الخيط الأخير في ارتباطنا، صرخَت منار بجنون وهزّت كتفيّ:

- لا أعتقد أنك أحببْتِ أبي يوما. وهرعت إلى غرفتها. علا بكاؤها.

لم تسمع منار ما دار بيننا فغابت عنها الحقيقة.

منار لم ترث عادة التنصّت مثلي. هي أقرب إلى فردوس في انشغالها بذاتها، تحمي نفسها بالابتعاد عمّا حولها، مجتهدة، أرستقراطية الحديث والجلوس، تصرّ على مخاطبة أمّي بالشريفة. ويقلقني كثيرا أنّها تتشبّه بها.

لم تسمع نقاشنا، ولم تعرف أنك خسرت أرباح الشركة على طاولة الروليت. تابعت جهدنا معا، طفلة مرحة ظلّت، وكنا سعداء لمحتفل بافتتاح اسواق جديدة، وفي غمرة النجاح غفرت لك هواية المقامرة مرّات، لكنك أجهزت على ما بقي كلّه.. لم تعرف منار أنك بعت حصتك من المزرعة لأختك، وأن لا رصيد في حسابنا.

يتوثّب جهازي العصبي في المواقف الصعبة، تنبع من ذاتي قوة توجّه تفكيري، أصبح أكثر قوّة واحتمالا، وتشتعل الرغبة في التحدّي لتقليل الضرر.

حين أخبرني الطبيب بمرضي قرّرت المواجهة بلا تفكير بالنتائج، الحسابات تقلّل العزم، يفتر حماس المغامرة بالتفكير بالفوز أو الخسارة.. ولم أملك غير المنازلة.

ذات يوم بعيد بعد معاقبتي لهروبي إلى بيوت الفلاحين قرّرت المواجهة، أعدت تجربة الهروب بإصرار أكبر.. تسلّلت من الدارة إلى بيوت العوز، وفي إصراري فتحوا أبواب الدارة لأطفال الفقراء. هل كان دخولهم انتصارا لي ولهم كما اعتقدت صغيرة؟ حين أعيد التفكير الآن ألمس ندوب الحرمان والقهر والعوز تركها اختلاطهم بحياتنا.

رفع الحواجز مع الفلاحين ترك ندوبا أخرى حين كشف أسرارا كثيرة، تناثرت حكايات العائلة مع دخول الأطفال وأمهاتهم، تبعثرت القصص تلميحا من العاملات والزائرات في المطبخ الفسيح، وأكثر صراحة في ممرات الحديقة. جملا مبتورة، وذكريات تصمت حين أتسلّل إلى المطبخ. أكفّ النساء تغطّي ضحكات موحية ونكز الأكتاف

والمشاحنات وهمسات تضحك في ذل، وتخشى أطفالا يعيدون ما يسمعون.

بخبث ظاهره البراءة غمزت عاملة أخرى، وسألتها عن سرّ الشبه الكبير بين والدها وأبي؟ وضحكت.. ثم تمادت في صمت الثانية.. أشاحت بغضب وظلّت مشغولة بما في يدها.. أعتقد أنها كانت تنظّف العدس.. جاهدت لتكتم غضبها.. مرّة ثانية تجرّأت المرأة على سكوتها. أضافت أن التشابه بين وجوه سادة الدارة وبعض الفلاحين من عبيد جدّي لا يخفى.. تطايرت صنادل العاملات نحوها، علا الصراخ وشدّ الشعور والشتائم.. خيّم الصمت المتوتّر. سبقت نعمة الوصيفة حضور أمّي. وساد الهدوء.

حكايات هدمت بروج الاعتزاز بالسلف، خربشت صورا أطّرها التبجيل فلطّختها بالسواد، عن جدّ أكبر ترك لنا الجاه والثروة، فإذا أنامل الغرباء تمزّق بهاءه وتكشف حقيقة محسن كبير.

الجدّ في موروث العائلة بطل، أول إقطاعي في البلاد أعتق العبيد ومن ملكت أيمانه، وأول من وزّع مساحات من أرضه على العاملين فيها. آمن بالاشتراكية وطبّقها بوازع من الدين والضمير، وقبل أن تركب موجتها أحزاب اليسار وبعض قادة الجيش، وينتشر المدّ الشيوعي بحضور السوفييت.

والجدّ في همس الخادمات وأمسيات الفلاّحين وما تناقله أطفالهم قصص حافلة بالأسرار والجنس. متسلّط قادر، شغوف بالمال والقاصرات، وما بينهما طريق يدمّر ما يعترضه فيه بلا رحمة. قصص

فحولة قادرة وفلاّحات يانعات، وبكارى عرف الملل منهن مع انتفاخ البطون، تزوّجن فقراء صاروا ملاّكا لقطع صغيرة من الأرض سترا لأخطاء الغلزاني الكبير.

لم يكن جدّنا، أحد أكبر زعماء البشتون في البلاد وجوارها مصلحا اجتماعيا أو مؤمنا بحقوق الإنسان، بل اقطاعيا نفوذه أكبر من أي أمر أو سلطة.. أتقن لعبة الرشى وبثّ المريدين في البلاط والدوائر.. أسّس شركة الأدوات الزراعية ومصنعا للمبيدات الحشرية. احتكر استيراد المواد الزراعية وإنتاجها، وامتد بفروعها إلى باكستان وفارس.

أحد مريديه، مستشار في البلاط الملكي أسهم في رسم صورة الجدّ المعروفة كمحسن رائد بعد أن أفشى له سرّ مرسومين سيغيّران وجه البلاد، ويصدران عن الملك أمان الله.. الأول منع الرّق وإعتاق العبيد، والثاني تحديد الملكية الزراعية للإقطاعيين ورؤساء القبائل.

- لن أسمح أن تؤخَذ أرضي عنوة، أو أن توزّع أملاكي وإرث أسلافي على الفلاحين ليحبّوا أمان الله. نحن أحقّ بحبّهم. ولا مصلحة لنا في نزاع مع ملك متهوّر يناطح القبائل، ويتجاهل عقائد الناس، مبهور بالغرب الكافر، ويريد أن نكون نسخة عنه! نسي أننا نغفو ونصحو ونتنفّس الدين، أن قبائلنا بنت البلاد قبل قدوم سلالته فصارت "شمس العالم"! ملك لم يقرأ التاريخ!.... لا يعرف أن امبراطورنا جمشيد، قبل سبعة آلاف سنة، كان أوّل من طبّق حقوق الإنسان في العالم. وبنى مملكة امتدت من الهند حتى منابع النيل! بينما الغرب المبهور به غارق في الجهل.... أمان الله لم يكتف بأن ألبس نساءه مثل الغربيات، وأدخل البنات المدارس والجامعات

فتعلّمن أفكار الغرب ولغته، بل هدر الأموال على بناء الأوبرا. أمان الله سيطبّق قانون الملكية بالقوة، ولن أمنحه فرصة انتزاع أرض ورثتها عن أجدادي ليصير بطلا... قال الجدّ في اجتماع عائلي.

في قضاء لا رادّ له رسم الجدّ لنفسه صورة الاشتراكي المستنير.. دعا زعماء القبائل إلى اجتماع حاشد مع وجوه القرى حولنا. الضيوف على المقاعد الوثيرة في الشرفة، والفلاحون في الحديقة وقوفا مع العاملين في الدارة والأرض.

في دهشة الكبار بدأ الجدّ خطابا قال: خلق الله الناس سواسية كأسنان المشط.. واستشهد بعدد من الآيات القرآنية، ثم تساءل بقول عمر بن الخطاب "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" تعالى تصفيق الدهماء بينما النخبة على مقاعدها مرجل غضب. وأكمل المشهد بأن قرأ المادة الأولى من وثيقة حقوق الإنسان، قال سبقها ديننا كثيرا، لذلك فهو يعلن أنه إكراما لوجه الله وبوازع من الضمير والإنسانية قد قرر أن يعتق جميع الإماء والعبيد ممن ورثهم أو اشتراهم، ويمنح كل عائلة منهم وجميع العاملين معه صكّ ملكية لقطعة صغيرة من أرضه، ويتكفّل ببناء بيوت لهم عليها.

القرارات في فرح غامر أو حزن داهم يحكمها التسرّع والعواطف، ثم تنقلب ندما.

فرح المفاجأة أضاع التفاصيل. لم ينتبه أحد من العبيد والفلاحين إلى بند في العقود الموزّعة عليهم أنه قيد لا فكاك منه، يعمل الرجال في أرض الجدّ والنساء في خدمة العائلة بأجور يحدّدها رب العمل.

الحاجة تقيّد الحرّية ويغلق الامتنان دروبها. وعاجزة حرّية مشروطة عن تغيير من اعتادوا العبودية. اهتزّت الأرض مع انكسار القيود فترنحوا، كان فضاء الحريّة مفتوحا خارج ما ألفوا أو يعرفون، عالَما مجهولا أحجم كثير منهم عن اقتحامه خوفا مما يجهلون.

فلاّح واحد نفض الارتباك والذّل. رفس ما اعتقد الآخرون أنّه نعمة. لا أحد يعرف أي المسالك انتهج. تعدّدت الروايات: قالوا استقرّ في كابول ليتعلّم أبناؤه. وأكّد آخرون أنه تسلّل إلى باكستان القريبة، وفي ثالثة إلى بلاد فارس.

في أحاديث التملّق للجدّ الغاضب من قرار عجزوا عن مثله، همس ناظر الفلاّحين للجد أن في ابتعاد هذا الفلاح خير وبركة، فهو متمرّد بالفطرة، نمرود لم يستمع لنصح، ولم يكفّ يوما عن التحريض على الرفض وعدم الخنوع، دائم السخرية من شيخ الكتّاب وتحفيظه القرآن للصغار، لم يفوّت فرصة للنيل من الشيخ في الطرقات وأمام المسجد الصغير.

الكتّاب بناء صغير أقامه الجدّ الأكبر لتعليم أبناء الفلاحين طاعة أولي الأمر وقصار السور، والفلاّح لم يفوّت فرصة إلا ونال من الشيخ العجوز- وصفه بالذليل، المتهوّر الكافر، وحرّض الصغار والأهل على رفض ما علّمه لهم الشيخ من أن طاعة وليّ الأمر من طاعة الله.

الجيل الثاني من أبناء العاملين كسر حاجز الخوف، عاف بعضهم التزام الآباء بعبودية غلّفتها أوهام الحريّة المشروطة. باعوا نصيبهم من الأرض لأغراب سرّا، وارتحلوا إلى كابول.. انقلبت المعادلة حين انضمّ كثير منهم إلى الملالي وعادوا معهم إلى القرى ليطبقوا الشريعة، هاجموا

قرى عاشوا فيها وعرفوا بيوتها وأهلها، طبّقوا على ساكنيها أحكام الملالي وكانوا الأكثر بطشا والأشدّ مغالاة. أهانوا الرجال، ضربوا النساء، تزوّجوا بعض الصبايا رغما، وجنّدوا الأطفال مقاتلين في الجبال.

*****

إعتاق جدّي لعبيده أحرج الملاّك الكبار، خلق عداوات لعائلة الغلزاني حتى بعد صدور المرسوم الملكي وإدراك الكثير من المنافسين أن خطوة الجدّ استباق لحفظ ماء الوجه، عداوات هاجرت معنا. عمّقت عزلة والدي بين زعماء صاروا لاجئين مثلنا.

الحكايات الكبرى لها وجهان مثل القمر.. مشرق يطلّ على الناس، وخفيّ مظلم لا يعرفه إلا من جرّب ظلمته، وصف رائد الفضاء حلكة القمر بعد أن دار حول وجهه المظلم لأول مرّة في تاريخ البشر، بأنه لا سواد على الأرض يشبه تلك الظلمة، وعاجز العقل الإنساني عن تخيّل ذاك السواد أو شعور الوحدة فيه.

كثيرة الروايات عن جدّنا، كلما تكشّفت قصة هرعنا إلى وجهه في اللوحة المعلّقة في الصالة الكبرى في الدارة. نقرأ من ملامحه احتمال حدوث ما قيل أو تكذيبه. لوحة بحجمه الطبيعي معلّقة في صدر القاعة، رسمها فنان بريطاني شهير في إحدى رحلات الجدّ إلى لندن. تجلّت الموهبة الفذّة في نظرة تتابع من يدخل القاعة وتتحرك معه. فرض الجدّ سطوة حضور لم تغب يوما. وسيم بقسمات صارمة تحاول الابتسام، مفتول الشاربين، دقيق الملامح في بدلة أوروبية فوقها عباءة حريرية خضراء طُرّزت أطرافها بخيوط الذهب، استبدل عمامة شيوخ القبائل بقلبق من صوف الأسترجان الأسود. بجانب اللوحة خزانة زجاجية صغيرة على حامل خشبي، فيها قلادة من الذهب والأحجار الكريمة،

وسام الشرف منحه الملك أمان الله للجدّ تكريما للإقطاعي المتحرّر، ولاشتراكيته النابعة من إنسانيته، وتحت الوسام ملفّ ضخم لقصاصات صحف اصفرّت بالزمن، لقاءات مطوّلة مع المحسن الكبير. مقالات وأخبار، وصور الجدّ بين عمّاله، فرحين وهو مبتسم كما لم يحدث لا قبل واقعة الإعتاق ولا بعدها.

طُبّقت قوانين منع الرّق في البلاد وتحديد ملكية الأراضي بعد تكريم جدّنا بقليل.

*****

صخرة الخوف تدحرجت... سحقت كلّ مرتفع، تفادى خطورتها من في القاع بالالتفاف حولها.

انقسام عشائري صاخب وعقائدي مدمّر تحوّل إلى نزاع لم يرحم أحدا. واختلف الناس حول غرباء يقاتلون باسم الدين بين مؤيّد ورافض.

جحيم الحياة حين يصير الشك عنوانها، والتوجّس رابط العلاقات بين بشرها.

في مئات من الدونمات والأكواخ حولنا عيون الوشاة والمخبرين تراقب كل حركة وكلمة. قلوب نبضت بالنقمة والحسد، وبلا فضاء سماء الخوف والتوجّس.

الدارة إرث الغلزانيين. متحف مقتنيات ميّزت طبقة الثراء. مئات من قطع السجّاد الحرير النادر، تبريزي وأصفهاني وقم، مزهريات سيفر فرنسية، ثريات كريستال بوهيمي ملوّنة، بورسلان وقيشاني

فارسي بنقوش ماء الذهب رصّعت بأحجار شبه ثمينة، فضيّات وتماثيل من الأبنوس والعاج من رحلات الأجداد إلى الهند، امتداد حدائق، أشجار مثمرة، ومرآب لخمس سيارات فورد أمريكية واكبت تطوّر الشركة الأمريكية.

أرانا هناك.

عالِم وأنا مع الأطفال في السيّارة المكشوفة، نثرنا صراخ الفرح على الطريق المعبّد يحاذي السور. تشاجرنا على محطّات التوقّف.. اسطبل الخيول العربية الأصيلة على الجهة الشرقية. للأفراس أسماء بعض نساء العائلة وممثلات هوليود الشهيرات، علّقوا سلالة كل منها على باب الزرائب. توقفنا عند حظيرة المُهُر المقزمة استوردها أبي من لندن. سكن الحزن عيونها من عبثنا فاستسلمت. رفضت التكاثر في مساحة احتجازها.. ختمنا الجولة حين تعبنا في حظيرة البقر ومصنع الألبان الصغير يلاصق غرفة الناطور وزوجته الشابة. وزعا علينا أكواب الحليب وقطع جبن صغيرة.

كيف لزوجته أن تمارس التباهي بجمالها مع الشادور والبرقع؟ وأي المساحيق الرخيصة التي اعتادت التزيّن بها يمكن أن تظهر تحت سماكة القماش؟ لم تكن فتنتها تحتاج المساحيق. وجه جميل وقوام غزالة أثارت حسد العاملات منذ دخلت الدارة عروسا. كثرت الشكاوى ضدّها حين رفضت العمل في المطبخ الكبير أو مساعدة العاملات.. قالت بدلال لست خادمة، عيّنتني الشريفة مساعدة لزوجي في مصنع الألبان ليسدّ احتياجات الدارة.

عند الطرف الآخر للسور، بعيدا عن الحظائر، غرفة للكلاب الأفغانية، علّقت شجرة سلالتها خلف الباب. أمام بعض صغارها نجوم وبلا أسماء. عرفت لاحقا أنها جراء وزّعت هدايا للقصر الملكي وبدأت سلالتها عندهم.

لاكي آخر سلالة الكلاب الأفغانية... قاسَمَنا الهجرة وحنان أمّي.

مشدوها توقّفْتَ أمام جماله في زيارتك الأولى لعائلتي. قلت إنك لم تكن قد رأيت كلبا أفغانيا من قبل أو حتى صورته.

مسحت على شعره الطويل يصل الأرض، اتسعت عيناه في حيرة مع غريب يتودّد إليه، نظر إلى أمّي كأنما يسألها تفسيرا، وفي تصرّف غريب وقف إلى جانب مقعدك، مسحت على رأسه من جديد. أقعى على السجادة حيث جلسْتَ لا عند قدمي أمّي كعادته.

ابتسم الرضى في وجهها.

في زهو شرحَتْ لك: هي السلالة الأجمل بين كلاب الأرض، نادرة لأنها الأكثر كسلا حتى في تكاثرها. ورثناها عن الجدّ الأكبر. ولم نتوقف عن إهداء بعض جرائها للقصر حتى أطاح الضباط بهم، عادة ورثناها عن الجد الأكبر، ثم عقدنا صفقة لبيع الجراء في لندن استمرت حتى هجرتنا.

لم تشر إلى أن سارة رتبت بيع الجراء بعد هجرتها إلى لندن.

- الجمال الأفغاني فريد لا شبيه له حتى في الكلاب.

دوّختني نظرتك والابتسامة الموحية.

تغاضت أمّي عن الغزل في حضورها. لم تقطّب كعادتها في مواقف لا تروقها، أعلنت قبولها في صمت مترفّع.

لاكي بوصلتها في الحكم على الناس أحيانا.

- لاكي يقبل طيّب القلب ويرفض المخادع. شديد الذكاء مثل سلالته... أكّدت بعد خروجك.

لاكي محظوظ كاسمه، نجا من مصير مجهول واجهته أمّه وأخوته حين انتزعنا الخوف من هناك.

قاطعا كان رفض أبي حمل الكلبة وجرائها إلى لندن. زجر أمّي بقسوة وصاح بقهر العاجز: - كلابك أم كنوز مكتبتي؟ لن نحمل أو نشحن ما يمكن أن يلفت نظرهم. حتى مع التقرير الطبيّ، واقتناعهم الظاهر بسفرك للعلاج، عيونهم وجواسيسهم في كلّ مكان. ربما كانوا بيننا.

مع دموع وتوسّلات لم تتوقّف سمح بحمل أحد الجراء.... وكان لاكي.

ربّتت الخادمة على رأس الكلبة الأم، مسحت شعرها الطويل، ألقمتها قطعة بسكويت تحبّه، أغمضت الكلبة عينيها في امتنان، سحبت الخادمة أحد الصغار من تحتها وأخفته في ثيابها، أعدّ الحارس للجرو الصغير قفصا دافئا وشهادة خلوّ من السعار وداء الكلب.

تيمّنا اسمته أمّي لاكي ليحمل حظه، أو ربما حظّنا؟ لا أدري.

متى أحسّت الكلبة بفقد جروها؟، ربما سمعت نباحه الواهي، ركضت بثقل جسدها خلف السيارة انطلقت بنا، ونباحها نواح. ردّتها

قضبان البوّابة الحديديّة أغْلِقَت خلفنا. ثم غابت الدارة مع انعطاف الطريق.

بحث لاكي عن حضن أمّه، ألقمته نعمة مرضاع الحليب، وما زال يرتعد دثّرته ببطّانية صوف.... نام.

مسحت أمّي دموعها.

أشجار الحسرة ظللت طريقنا. رغم رفاهية العيش في لندن ما زالت اللوعة على خسارة الدارة تؤلمنا كلما عدّدنا كنوزها وتساءلنا عن مصيرها.

تعتقد أمّي أنّ ما ضاع كان الأفضل ولا يمكن تعويضه.

- ألا يكفي أننا أحياء ورزقنا واسع؟ وأي كنوز إن كنا سنقتل بينها؟ نهرها أبي.
- لا أحب دور الواعظ ممن لا يحتمل الخسارة حتى في لعب الورق أو الشطرنج.

قام إلى غرفته.. لحقت به حين أدركَت أنها أخطأت. أغلقت الباب كعادتهما في الخصام والعتاب.

ضياع مكتبة أبي هناك جرح نازف لم يشف يوما، كلما افتقد كتابا أو مرجعا نادرا أصابه الاكتئاب، ثروة من المعرفة جمعتها أجيال الغلزاني، زعماء تعلّموا في زمن عزّ فيه العلم. كنز من مخطوطات ووثائق نادرة، ومصاحف بالخط العربي بأحجام مختلفة، بعضها على جلود سافرت في الأزمنة. أضاف أبي الكثير إلى ما ورث، مراجع في التراث والديانات والقانون، وموسوعات تاريخ وشروح، وأمهات

الأدب العالمي بلغات كثيرة أجادها، الفارسية والإنجليزية والفرنسية، ودواوين لشعراء عرب كبار وفرس بارزين، ونسخ نادرة من أشعار محمد إقبال وجلال الدين الرومي.

تراجع أبي عن شحن جزء من المكتبة مرّات، خشي أن يلفت النظر إلى محاولات الرحيل، شحن القليل جدا مع شحنة السجاد إلى سارة وأبراهام، ثم رتّب النادر منها في صناديق تركها في قبو الدارة، وأخفى في حقيبة سفره ليلة رحيلنا مصحفا بحجم الكفّ وبخط الرقعة من زمن الخليفة المعتصم.

والتلفزيون يبثّ تقريرا مصوّرا عن سياسة التجهيل في حكم طالبان، وعن منع التعليم للبنات، زفر أبي حرقته وتساءل عن مصير مكتبته.

في ثلاث سيارات فورد تسابق الزمن والحدث انطلقت رحلة الخوف.. وجهتنا كابول في إصرار أبي على رحيل عادي من مطارها. أدعية أمّي ودموع نعمة فرشت طريقنا، أصرّت نعمة على توديعنا في كابول بعد رفض الملالي السماح لأكثر من مرافق لأمي.. ثم فشلت جهود أبي وبعض معارفه في إخراجها من البلاد.. نعمة أضحت شبح خوف دائم حين انقطعت أخبارها..

يوم فرح عظيم يوم وصلت رسالتها من نيويورك بعد ما يقارب العام من هروبنا. دفعت ما ادّخرت لمهرّبين أوصلوها إلى مطار كراتشي في باكستان ثم إلى أقارب سبقوها إلى أمريكا.

احتفلنا بنجاة نعمة كأنها بيننا. وعوّضها أبي ما دفعت للمهرّبين.

في ليلة الرحيل نشبت معركة عقيدة انتصر فيها والدي وفرض رأيه.

كبر والداي على الاختلاف فأينع حبّهما أكثر، لم يرتفع نقاش بينهما إلى الشجار، ولم تفقد الكلمات احترامها. عرف كلّ منهما متى يجب عليه أن يتوقف.

في إصرار أبي على ترك الدارة إلى كابول في ليلة الرعب، وتوسلاتها لتأجيل الرحيل يوما آخر قال:

- ويا أميرتي، غدا هو السابع من الشهر. وأنا أتفاءل بالسبعة، فكما تعرفين السماوات سبع طباق، والسماء أكبر من جدّك المعتصم الخليفة المثمّن ومن إيمانك بالثمانية، أو ننتظر ونسافر ليلا بين السابع والثامن، فيقتلنا رجالهم أو تأكلنا وحوش الطريق. دع التطيّر وأسرعوا بإعداد ما تحتاجون لننقذ أنفسنا.

وما زالت جاثية عند قدميه:

- يوم واحد لن يؤثر على حياتنا، منذ جدّي الأكبر وعائلتي تترك أمورها الكبيرة لأيام الثمانية. وحين طبّقتها على أمور حياتنا كنت راضيا ولم تعترض.

- تركت أمورنا الكبيرة لبركات الثمانية إكراما لك ودون اقتناع، لكن الرعب الزاحف لن تردّه تعاويذ المعتصم، بل حتى ولو عاد الخليفة المثمّن نفسه حيّا لما استطاع تغيير العقول أو ردّ هذا الطوفان.. وهنا الخطر، البلاد فوق حبل يشدّ طرفيه تناقض مدمّر. ويا أميرتي أنا أحفظ تاريخ جدّك المعتصم بالله، ثامن الخلفاء العباسيين، وأعرف أنه حكم ثماني سنوات وثمانية أشهر، وخاض ثمانية فتوحات، وأنجب ثمانية أولاد، وثماني إناث، وولد في الشهر الثامن، ومات وعمره ثمانية وأربعون. لكن لو اجتمعت كل أرقام الثمانية في العالم فلن تمنع الطوفان القادم. لا بد من التوجّه إلى كابول والرحيل فورا.

رفعها إلى الكرسي بجانبه:

- يا أميرتي تنازلي هذه المرّة وتفاءلي بالسبعة، وتعرفين أنه رقم الحظ عندي. وتأكدي أن التطيّر لن يجدي، لا السبعة ولا الثمانية، حتى نسبك إلى الإمام قد ينقلب ضدّك رغم مذهبنا الحنفي.

لم يكن العالم قد عرف تحليل ألدي أن أيّ DNA لنؤكّد انتسابها إلى الإمام أو حتى الخليفة المعتصم.

والسيارات تنهب الطريق والرهبة، تلعثمت أمّي في ابتهالات حفظتها دائما عن ظهر قلب، وكلّما نسيت دعاء انتقلت إلى آخر... وذاكرة الخوف مشوّشة مضطربة. وما زالت السيارات تسابق النهار.

- أيتها الشريفة، لا يحبّ الله أدعية يكرّرها الناس، كلاما يحفظونه مثل التلاميذ، لا يغيّرونه رغم جماله، وحده كتاب الله لا يتغيّر، أما كلام الأدعية فنغيره حسب أحاسيسنا وحاجاتنا، لا يحب الله أن نردّد كلاما كتبه الآخرون فقط لأن لهم مقدرة لغوية جميلة.. خالق هذا الكون لا يريد الكلام المنمّق بل يفرح بالمتنوّع والمختلف، سيحبّ الله مناجاته بأدعية جديدة، بكلام بسيط أو فصيح، كلّ إنسان بحسب رؤيته وطريقته، انظري كيف زيّن الله الأرض بالاختلاف. يابسة وماء خضراء وصحراء، بحار وجبال، حتى البشر خلقهم بألوان وأحجام مختلفة. اطلبي من الله ما تريدين بكلماتك فيستجيب، يقبل الله أدعية الأطفال لأنها عفوية. دعاء بسيط نابع من القلب أقرب إلى الله من أدعية تجاهدين لتذكّرها. الله ربّ القلوب لا الشفاه.

من حديثه الطويل عن الله والإيمان أدركت أمّي أنه خائف. أخذت يده في كفّيها. تركها لها.

تكتسب الأمكنة حميميّة طاغية عند فراق لا أمل في العودة بعده، تنقبض النفوس لتركها حتى لو كان رحيلا اختيارا، تتلاشى أخطاء المكان في الإحساس بخسارته، مثل طفل جائع ينزعونه من على صدر أم فقيرة يصير الفراق.. والرحيل المتوجّس حيرة واكتئاب. ومسافات الخوف بلا نهاية.

نقاط التفتيش على الطريق لا تنتهي، عيون غاصت في عمق السيارات، ووجوه بحثت عمّا لا ندري.

- ربما يبحثون عن ضباط حاولوا الانقلاب عليهم أو دراويش يهربون من العقاب.فسّر أبي.

تشاور رجال الملالي ثم فتحوا الطريق... وأوراق السفر لعلاج أمّي مختومة من رئيسهم. مكانة أبي كزعيم بشتوني فتحت بعض الحواجز. كثير من رجالهم من قبائل البشتون، مرّ أبي من بعضها مع بعض التبجيل. وتظاهر آخرون بان اسمه لا يعنيهم، لكنهم سمحوا بالمرور بعد التدقيق في الأوراق. كانت بداية التصدّع والتحوّل من الدولة القبلية إلى الدينية وتداخل المعتقدات.

حبال السياسة كثيرة ومتقاطعة.. مشدودة قد يقع من يحاول السير عليها. في حكم العسكر لاحق الضباط الشيوعيون علماء المتصوّفة.. اقتصّوا منهم لأنهم تحالفوا مع الملالي. كان حلفا غريبا ضد الشيوعية.. جمع تعصّب الملالي وتسامح المتصوّفة... قتل الضباط شيوخ التصوّف بتهم الشعوذة وتأليب الناس على الجيش واتهام الضبّاط بالإلحاد والكفر. تدلّى الدراويش من المشانق في ساحات المساجد. قالوا: جعلناهم عبرة لمن يخدعنا، جواسيس نقلوا أخبار الضباط لأعدائنا في الداخل والخارج. سخّروا الفرق والموالد أبواقا لتهاجم الاشتراكية وتصفنا بالزندقة والكفر.

تغاضى أبي دائما عن ممارسات تسعد أمّي، التصوّف وممارسة الغيبيات. حرصه الشديد على الإشراف على الإعداد لرحلتنا السنوية

إلى مزار شريف تبجيل لانتمائها للسادة، واحترام لوالدها الذي قرّب إليه الصوفيين وإن لم يكن منهم، فعشقت ابنته موالدهم.

- الصوفية هي الأكثر انتشارا لأنها ناسبت طبيعة الناس الصوفية وتماهت مع بلاد أكثر الله من خيراتها، ونوّع جمالها، عاشت في سلام حتى جاء الغرباء بتشدّدهم ورفضهم فقلبوا جمالها خرابا وسكينتها صراعا لا يتوقف... قال حزن أمّي.

ساحات المسجد الأزرق خبرت تهدّج أمّي في موسم الحج. دلقت إيمانها في مسجدها نثرت نذورها وعطاياها في الباحات، أكرمت البائعين في الأسواق التقليدية.. اشتهرت في المسجد وما حوله بالشريفة هانية من نسل الرسول ومن السادة أحفاده.. تسامت في تجلياتها، غابت عمّا حولها كأنما نسيت من هي ومن نحن، وكنّا حولها.. كلما ابتعدت في نجواها ازددنا التصاقا بها، تعلّقنا بثيابها كأننا نخشى ألا تعود من تجلّياتها. نعمة وقفت حائلا دون إزعاجنا لها.

سادرة في ملكوت بعيد. حولها نساء زائرات يدرن حول مقام جدّها علي بن أبي طالب، يربطن القماش الأخضر ويفين بالنذور، وحلقات الذكر تردّد الابتهالات، وأجساد المنشدين تترنح إلى الأمام والخلف.

يوم أليم آخر في حياة أمّي.. أعلنت أخبار الصحف ونشرات الأخبار إعدام شيوخ المتصوفة. قال أبي:

- اللعنة. أنا علماني وأرفض الغيبيات، ولا أقبل إدّعاء الاتحاد حتى الفناء في الذات العليا، لكنني أرفض أن يقتلهم الشيوعيون

ويلاحقوهم باتهامات مختلفة.. أمر منكر وضد الإنسانية، المعتقد حق للإنسان مهما اختلفتَ معه، وللطرفين إيمانه ولن يلتقيا، الدراويش يؤمنون بالله والأولياء، والعسكر يؤمنون بالواقع المحسوس وبراهين العقل والتجارب. فلماذا يقتلونهم على أفكارهم؟ المشكلة أن الدراويش أساءوا التقدير.. تحالفوا مع الملالي المتشدّدين فارتدوا عليهم قبل غيرهم.

- لن تكفّ عن المجاهرة بآرائك حتى يشي بك أحدهم، هل تأمن رفاقك؟ أو خدم الدار بعد أن هرب نصفهم والتحق برجالهم؟

في فجيعة أمّي بالعديد من كبار المنشدين والشيوخ قبل والدي أن يتوسّط لإصدار عفو عن الهاربين منهم. قال في مرافعة مكتوبة لقيادة العسكر: ما بين الدروشة والجنون خيط لا بدّ من اعتباره في الحكم على الفعل، فكيف لعاقل أن يزدري الحياة؟ أن ينبذ متعها، فيكتفي من عالمه بأسمال رثّة، يهيم فيها بلا مسؤولية معتقدا أنه يملك الإلهام؟ ومعرفة ما لا يراه الآخرون... الجنون درجات وليس على فاقد الأهلية حرج في قول أو فعل. ولا ننسى أنهم اشتراكيون بالفطرة، زاهدون في متع الحياة، همّهم الفقراء، يهاجمون الأغنياء وينادون بتوزيع الثروة.

زرعت المرافعة الشك في عيون الضبّاط. ألقى الضابط بمرافعة أبي المكتوبة في سلة المهملات في حضوره، وكُتّفوا عيونهم حوله وأحصوا سكناته.

حين تسكن الريبة ما حولك، ويكبر الشكّ في كلّ من يقترب منك، يضيق الفضاء حدّ الاختناق.

البقاء موت والرحيل اقتلاع. كثير من رفاق أبي ومعارفه قتلوا تباعا بعد أن جاهروا بانتقاد الفتاوى. والتوجّس عنوان الحياة في الدار الواحدة، وهمس الصالونات لوائح اتهام وأحكام إدانة، والجواسيس أغرقوا البلاد طولا وعرضا

وليالي الخوف أمد لا ينتهي، تتوالد بالرعب.

لم يطل بقاؤنا في كابول بعد أن همس الحارس لأبي بما لم نسمع، لكنّه اتّجه إلى مكتبه قبل أن يصل الغريب.. لم يطل بقاؤه مع أبي خرج يحمل حقيبة صغيرة.

في إلحاح أمّي، ورأسه بين كفّيه قال: المال يفتح الأبواب. رجالهم فاسدون مثلهم، وصراع العقائد لا يعرف الرحمة. لا بد من الخروج بعد أن هزموا العسكر، علّقوا الرئيس نجيب الله على عمود كهرباء، قطعوا أعضاءه التناسلية وحشوها في فمه. لا ضمان على الخطوة القادمة.

في كابول سمعنا صوت سارة عبر الهاتف لأول مرة منذ رحيلها، انقطعت الاتصالات الهاتفية خوف الوشاية بالتخابر مع العدو. مروج فرح أضاءت وجه أمّي، قوس قزح في سماء مكفهرّة، حديث مقتضب متوجّس مع "جين سميث"، وأسئلة تواطأت أن تكون عادية عن مرض مفترض، وترتيبات الوصول ومواعيد مع أطباء وأخصائيين.

للصوت قوة الحضور.

منذ رحيل سارة تفادت الصديقتان الهاتف. وظلّت الرسائل بأسماء مختلفة وسيلة التواصل منذ إجلاء اليهود.

الكلمات حياة جديدة لصداقات كتب عليها الانفصال. يذيب التواصل جفاء البعد. يجسّر المسافات.

رسائل سارة باسم "جين سميث" بدّلت البعد حضورا. كسرت جفاء الغياب. شاركت في تفاصيل أيّامنا ونقلت إلينا حياتهم. صانت صداقة فريدة بينما العداء لليهود يشتدّ في بلادي.

رسائل الصديقتين مقتضبة، حذرة، عن الحياة والعائلة. بطاقات تهنئة بالأعياد عليها معالم لندن، وكلمات مثقلة بالشوق والعواطف.

طفلة التقت صديقتها الغائبة بلا موعد فرحت أمّي كلّما عاد أبي برسالة.

لشهور طويلة داعبنا سارة بعد وصولنا لندن فلم نخاطبها إلا باسم "جين سميث" ضحكت مثل طفلة ربحت مسابقة بالغش، حضنت أمّي في حنان وقالت: "أليست العبرة بالنتائج، لقد خدعناهم، صدّقوا أنني جين؟ المهم أنكم هنا.

جفاؤك لسارة وعائلتها في اللقاء الأول أجّل مفاتحتك بمشروع أبي، إنشاء فرع للتصدير الزراعي تتولّى إدارته، ويستفيد من معاهدات الصلح بين بعض العرب وإسرائيل. وفرع لشركة المبيدات والأدوات الزراعية.

أبي الدبلوماسي آمن أن تقلّبات السياسة يحدّدها تغيّر مصالح من يتعاملون بها. وكان صائبا في حكمه عليك، واثقا أنك ستتغيّر حسب مصلحتك وانتظر الوقت:

- طموحه الجارف لا يرى غير مصلحته.

لكن لم يخطر ببال أحد أنك ستقامر بكل شيء.

تغيير الانطباع الأول عن شخصية ساحرة يحتاج الوقت والإثبات. لم أستطع تغيير نظرة أمّي إليك، ظلّت تحابيك بعد انكشاف حقيقتك، خلقت الأعذار وطالبت بمنحك فرصة أخرى.

*****

يتشابه البشر عند الهرب، في التحسّر على الفقد.. وصفت أمّك لجوء عائلتك ورعب الاقتلاع. قالت: تركنا بيت الطالبية في القدس جديدا. عمره سنوات. عروسا عائدة من شهر العسل كنت، هدايا زفافي لم ترتّب بعد. بدأت القلاقل لكن الحياة لا تتوقّف، تتعطّل قليلا في الإضرابات والتوجّس لكنها تمضي، في بلادنا كما في أي مكان في العالم، التكيّف مع الخطر انتصار للحياة.. استمرار العيش في المخاطر دفاع الناس عن حقّهم في الوجود... كان يوما مكفهرا بالتوجّس صحيح، لكنه عادي في قلاقل لا تنتهي.. انهمر الرصاص مع العصر من غرب القدس، تركنا كلّ شيء وهربنا مع الناس، وأصوات المكبرات تطالبنا بالخروج قبل أن نقتل.. تذكّرت مصاغي.. حملت علبة فيها بعض نقوط العروس من أقارب لي آثروا تقديم المال هديّة زواجي. تركنا طعام العشاء لم ينضج.

تنقلب المآسي ذكرى أليمة.. ضحكنا بأسى وهي تتحدث عن وجبة عشاء لم تتناولها: تخيّلنا أن من سكن الدار طبخ الورق والكوسا المحشي، قلنا لو جرّبوه أكيد لأحبّوه. أو من يدري؟ ربما ألقوه في القمامة خشية أن يكون مسموما، خسارة فيهم، عملنا الصباح كله في تحضيره، لن أنسى تلك الرائحة، أخر ما سال له اللعاب هناك، ساعات ونحن نلف ورق ونحشي كوسا... منذ احتلنا الأتراك والنساء تحفر الكوسا واللفت والقرع والجزر والبطاطا وتحشي الورق والملفوف وحتى ورق

السلق. وبعدين انتدبنا الإنجليز وظلّ الأكل التركي سائدا لأن الإنجليز أحبّوه وإسرائيل تعلّمته وقالت أكلاتنا.

يقلب الزمن المآسي إلى كوميديا سوداء تُضحِك وتجرّح.

إجلاء عائلتك قصّة حضرت كلّما اجتمعنا... أعدتّها بتفاصيل لم تتغيّر كأنك عشت أحداثها. حاولت أن أصف خوفي لك في ليلة الرحيل من الدارة، قاطعتني كثيرا وأعدت ما قاست عائلتك حتى ضقت بالمقارنة بين رحيلين، كل اقتلاع له خوفه ومعاناته، صحيح أن التهجير تحت الرصاص تراجيديا لا مثيل لقسوتها، لكننا مثلكم رحلنا لأن الموت والبقاء تأرجحا ولا بد من القفز في كفّة أحدهما. الخوف واحد، زخات رصاص أو كمين يقطع طريق الهرب. والحنين في المنافي واحد، يعمّق الغربة، ويزيد آلام الاقتلاع.

ورحلة الخوف إلى كابول زمن، وكسيحة الأيام في انتظار موعد الطائرة إلى لندن.. نرتجف رغم الإذن الرسمي بعلاج أمّي... منعوا اختلاطنا بأحد في الدار أو الحديث مع العاملين.

الخوف عذاب، يشبه حزنا وضعتني فيه حين انتهى دربنا معا. مثل لحظة توّقف إحساسي فيها والطبيب يلقي حكمه عليّ بحيادية قاض قال:

- لكن يظل الأمل جثت متأخرة، المرض في الدرجة الرابعة.

الحياة عجلة في ساقية. إن أفلت عمود فيها ناحت ثم توقّفت.. أو ربما ترنّح انسيابها وتعطّلت. هل يدرك الطبيب أن المصائب وحدها

تكشف اختلاف البشر؟ في قدرتهم على استعادة التوازن بعد هزّات عنيفة؟

أهرب إلى خوف سكن الذاكرة.

أبي كسر خوفه بالمواجهة. ابتسامة غريبة زرعت الاطمئنان حوله، وربما خدعت موظفي المطار.

- أنا أرسلان الغلزاني لن أتسلّل بعائلتي عبر الحدود وأعرّضهم لقسوة الطريق، سنخرج من المطار مهما حدث.

في رحلة عادية غامر بخروجنا وظلّ متماسكا.. تفحّص الموظّف أوراق العلاج، تأكّد من إذن مرافقة أبي والعائلة.. دقّق في ختم مكتب رئيس الملالي. هزّ رأسه استهجانا للتوقيع ولوى شفته.. كأنما قاوم فكرة الاعتراض سمح بمرورنا.

قسوة الوجوه في المطار لا تنسى، لا إشفاق على أحد.. حقد غريب على سيّدة ترتجف فوق الكرسي المتحرّك، تأوّهت أمّي فلفّ والدي شالها من الصوف الكشمير على كتفيها.. بشفقة وازدراء رمقه حارس مسلح من رجال الملالي.. ملامح الموظف عند بوابة العبور احتقرت ما فعل زعيم بشتوني علانية، لكنه ختم جوازات سفرنا الدبلوماسية.. وتابع أبي باحتقار وهو يدفع الكرسي المتحرك بزوجة عاجزة تجاوزت الخمسين... أوقفتنا سيدة في شادورها.. فتّشت أمّي في خشونة ودفعت الكرسي المتحرك بقسوة من يريد لها أن تقع، تمالك أبي اندفاع الكرسي وصبغت صفرة الزعفران وجهه.

تعاظم خوفنا في صالة الدرجة الأولى. تخيّلنا انقضاض رجال الملالي علينا كل لحظة ولسبب لا ندريه، أو ربما وشاية تفسد الرحيل.

اختفاء كابول من نافذة الطائرة أذاب الدماء في عروقنا، بدّد صقيع الرعب .

ابتسم أبي، أزاحت أمّي بطانية الصوف عن ساقيها، رفضت عرض المضيفة بتعليق كمّامة أوكسجين أوصى عليها أبي للتمويه، قالت: الشافي هو الله، ودخلت حمّام الطائرة في ذهول المضيفة.

المدن أكثر إشراقا لمن يهرب إليها من خوفه.

سارة وأبراهام في انتظارنا، شقّة ماي فير طابقية في مجمّع سكني فاخر من أرقى أحياء لندن. أثاثها بذوق أمّي كما تعرفه سارة، جميلة، مريحة وإن افتقرت إلى اتساع صالات وغرف الدارة هناك.

سارة جعلت حياتنا أسهل. قهرت وحشة الاغتراب. أعدّت المدينة لاستقبالنا، خفّفت صدمة التكيّف، رتّبت مدارسنا والمواصلات إليها.

اهتمام المدارس باللاجئين ظاهرة، تفهّم المدرّسون والمشرفون معنى الانتقال والتكيّف فخفّف الاغتراب .. يتعافى الصغار سريعا في بلد آمن ومدهش.

أشرقت لندن بالأمل. أحببت صيفها القصير. ساحرة لمن يملك. والمجمّع السكني عالم مستقل لمن يريد النأي عن ماضيه.

النساء مدخل العلاقات في مجمّع قطنته جنسيات قادرة.. لكل قصّة لا مصلحة في كشفها إلا ما يتعلّق بالتفاخر بالأصول. تفوّق

حضور أمّي ونسبها إلى الإمام. وعادت بحكايات عن الأخريات ومكانة كانت، روتها في شك واضح.

تحمل الأجيال روايات أسلافهم تفاخرا، ودون أن تعيق انصهارهم في مجتمع جديد يصيرون جزءا منه.

قلّة نادرة من عائلات المجمّع أضحوا أصدقاء لنا، كلٌّ وصل لندن بقصة كبيرة لا يريد إشراكها مع أحد، وفي المدن الكبرى تضيع الحكايات إلا لمن تعنيهم.

للبدايات رهبة الاكتشاف، مناطق في المدينة الساحرة لندن قيّدت انطلاقنا، درأنا الشبهات في أي تصرّف قد يحسب على عائلة أرسلان الغلزاني في غربتها. تعلّمنا الممنوع والمسموح في انتظار عودتنا إلى حيث يجب أن نكون.

طويلا ظلّ أبي مؤمنا بالعودة. وطويلا تقيّدنا بأحكامه.

- القمّة مكشوفة لمن حولها. ستظل عيون من تركوا الوطن تتابع أخبارنا وتلوك سيرتنا، وبريطانيا تعجّ بهم.

حياة الرفاهية وفّرها المال وقيّدها التحسّب. صعب أن تعيش مع اعتقادك بأنك محور اهتمام من لا تعرف، أن عيونا غريبة تراقبك ولا تراها.. ترتبك الحياة حين يعتقد صاحبها أنه مركز اهتمام من لا يعرف.

في تبدّل الأحوال والأمكنة يصير خوف الكبار على الصغار قيدا، يعيق انطلاقهم دون أن يقدّروا قدرتهم على التكيّف. اختاروا لهم زمان تجربة مختلفة ومكانها والقوهم في خضمّها. ثم أذهلهم تبدّل الصغار فينشأ الصدام بين ماض يقيدهم وانطلاق في مجتمع لا يهتم بما كان.

بعد عضوية نادي الليونز انخرطت أمّي في نشاط اجتماعي وفي أعمال خيرية في تجمّعات قدّمتها سارة لها.

داعب أبي سارة: أنت أفضل تسويق وإعلام في لندن.

غمزته ألا تسمع الشريفة فتغضب.

سارة فتحت لأمّي مجتمعا محافظا كان سيحتاج الجهد الكبير لاقتحامه، روّجت لوجود شريفة ثريّة. رتّبت لها محاضرة في نادي الليونز عن الأثر النفسي للجوء على النساء والأطفال حتى القادرين منهم. لم يكن أبي سعيدا وهي تغرق مع سارة في نشاطات يهودية عديدة.

- سيستغلون وجودك لتأكيد ادعاءهم بأن البشتون من اليهود.

- العمل الخيري لا يتبع السياسة، وهم الأكثر نشاطا.

- معظم ما يفعلون سياسة.. تأييد لإسرائيل.

وتركها لطموح الظهور وإثبات المكانة.

كنيس وست لندن قرب الجولدن سكوير مكان أمّي المفضّل بين معابد اليهود. ليس لأنه الأقرب إلى منطقة ماي فير حيث نعيش، بل لبنائه من الداخل، كاتدرائية قوطية باذخة، أقواس في السقوف، الأعمدة والمحراب في الوسط. تشبه بعض ما رأينا في رحلاتنا إلى العالم قبل أن تفسد حياتنا بهواية مدمّرة.

مرّات دخلت كنيس وست لندن.. استقبال حاخام الكنيس لأمّي يذكّر بحفاوة الملاّ بنيامين في كابول. لكن المكان هنا يعجّ بحياة ونشاط تناسب لندن ومكانة الجالية اليهودية الكبيرة والمتنفّذة فيها، عدد كبير من

الأطفال بالطاقية المطرّزة يتعلّمون ديانتهم في غرفة صغيرة. على الجانب الآخر صالة واسعة فيها معرض لوحات، وإعلان كبير عن حفل تحييه فرقة فنشلي الموسيقية.

توقّف عالِم أمام البوستر طويلا، هزت سارة رأسها بأسى: لن يرضى والدك عن حضورك. ناهيك عن أن تكون منهم.

سارة السبب الأول في استعادة أمّي لقب الشريفة هانية، وأحيانا الأميرة هانية في بلاد لا تعنيها حقائق الألقاب ما دامت محاطة بالقدرة والبذخ. سارة لم تخاطبها في مكان عام أو بين غرباء إلا بالشريفة، فتجاوز التبجيل العاملين في الدار إلى نادي المجمّع ثم إلى أعضاء الليونز.

ألقاب التفخيم تعزّز الثقة، استعادت أمّي ملامح جمال كدّرته سنوات الهجرة الأولى، كفتها حرج أن تقدّم نفسها للآخرين، لا شيء يشبه مهابة أن تحضر إلى مكان يسبقك إليه بريق لك من الماضي والحاضر.

سارة سخّرت تجربتها في اقتحام مجتمع جديد، فكفت أمّي حرج الأبواب الموصدة، ومرارة الإهمال في بيئة لا تعنى بمهاجرين أثرياء، أو رجال سلطة مقتلعين أو هاربين يتوافدون إلى لندن دون توقّف، يخلقون دوائرهم الخاصة، ويلوكون قصصا لا تهم سواهم.

لا شيء يشبه صداقة تتشارك في التفاصيل الصغيرة، امرأتان لم تفترقا منذ وصلنا. النادي، المحلاّت الكبرى، المطاعم، الكوافير وعاملة المانيكير.

مكتبة
t.me/t_pdf

- ألشطرنج ينشّط ذاكرة تذبل مع تقدّم العمر، يعلّم الانضباط واحترام القوانين، الالتفاف على الصعوبات، والأهم تقبّل نتائج الاختيار الشخصي... ردّت أمّي على احتجاجنا لطول اللعب مع سارة، أو أبي.

أمّي قاومت تقدّم العمر بالرياضة ونظام غذائي قاس، أدمنت شراء الجديد للعناية بالبشرة، ولم يكن هوس عمليات التجميل قد انتشر بعد، لكن ملامحها تبدّلت بعد كل زيارة إلى باريس ودائما برفقة سارة. وحلمها لم يتغيّر، أن تعود إلى الوطن جميلة وشابة كما تركته.

طاغ حضور وطن مأزوم لاحق وجودنا، ذكريات تجدّدت مع أخبار الشاشات. تغيّر الوطن. أرض مجاعة صار، تطهير عرقي، إبادة أقلّيات، جلْد نساء، حرمان من التعليم. فقر وإصرار على أن السلالم إلى السماء من معدن التعصّب.

في الهجرة ظل الماضي سوط عذاب، حسرة على فرص ضاعت، أوهام وخيالات عن أوضاع أفضل كانت ستتحقّق لو بقينا. ربما أكبر مما جنينا في الاغتراب وهو كثير.

ارتدى السؤال أيامنا، ماذا لو بقينا؟

من ينتقل من مجتمعات صغيرة يعرف كل الآخر فيها إلى فضاء واسع، الفرد فيه ملك نفسه يتملّكه الدوار، تائه في بحر ساكن حتى يجد البوصلة لقاربه.

صامتا ذاهلا تابع أبي صور نسف تمثالي بوذا في بامايان على الشاشات. في قنوط قال:

- من لا يقدّر الإرث الإنساني لا أمل فيه. أيّ تحريم لصور جميلة، أو تدمير تمثال لأنه أصنام؟ تمثالا بوذا صلصال وشمّامة سكنا جبالنا منذ قرون طويلة ولم يسجد لهما من شعبنا أحد... يحجّ إليهما البوذيون من جوارنا كلّ عام، مارسوا طقوسهم أمامنا مئات السنين فازداد الناس التصاقا بدينهم ولم يتبعوا بوذا. للأسف تمكنّت الفتاوى من عقول الناس بالخزعبلات، أخافوهم من الاشتراكية ووصفوا الشيوعية بالإباحية وتبادل الزوجات والإلحاد، فاندفع الناس إلى الدين حتى لو كانت الفتاوى من جهلة، وللأسف لا يقرأ الناس بل يسمعوا.. أدهشتهم فتاوى غريبة، فتركوا لمن ادّعوا معرفة الدين حياتهم بحجّة الخوف على هُويّتهم الإسلامية... لست بلا عقل لأسجد لصنم أو صورة أو اتّخذه وليّا. ولكن لا أمل ما داموا يحكمون البلاد.

نسفُ التمثالين في الصمت العالمي ظلّل حلم أبي بالشك في العودة.

*****

اختلاف والديّ حول اختيار مُهاب وعالِم العلمي كان عاصفا. أمّي لا تريد لشبح الغلزاني أن يقيّد أيا منّا، بينما أصرّ أبي على أننا غلزانيون حتى في بلاد الانجليز.

التباين الشديد في قضايا مصيرية كتعليمنا ظلّ مسيّجا بالاحترام رغم حدة النقاش، حرص والدي على الاعتذار العلني لها أمامنا وإن كان على حقّ، فكبر الحب معهما. تنسحب أمّي إلى غرفتها إذا اشتدّ الخلاف. وبعد ساعات يلعبان الورق، حتى إذا اقترب أحدنا أمسك يدها وقبّلها.

لماذا عجز الحب عن تجاوز خلافاتنا؟

خنقنا الاختلاف. تكسّر حبّنا في جلبة. الشرخ البسيط يجبر باللاصق، يبدو متماسكا لكنه يترك أثره. ولا رجاء في الترميم.

الحبّ لمسة على يد تعرّقت بشيخوختها، مسحة حنان على شحوب وجنة تباهت بنضارتها زمنا، ابتسامة رضى في استعادة الماضي، وشعاع أمل في القادم. نهارات لندن طقوس لم تعرفها انطلاقة الدارة وحرّية الحياة فيها.. نهارات لندن تبدأ بالفطور وأخبار الصحف. متابعة الطقس على البي بي سي لتحديد ملابس الخروج. شاي الإيرل جراي لأمّي ومن في المنزل الثالثة عصرا. العشاء في السابعة مساء كعادة

الإنجليز، الأبناء والأحفاد على الغداء أيام السبت والأحد والعطلات الرسمية، أو نخرج إلى المطاعم.

فرض تلفزيون البي بي سي وجوده على حياتنا. نشرات الأخبار مفتاح المساءات.

احتلّت الفضائيات سماء لندن. نقلت أوطان المغتربين ولغاتهم إلى المنافي. زادت انكفاء الهاربين، اعترضت تأقلمهم.

نجمة أخبار تلفزيون البي بي سي أنجيلا ريبون صارت عشق أبي الخفيّ، وأنموذج النجاح لفردوس ولي. لا تعترف أحلام الصبا بالعوائق وحتّى تصطدم بها، لم يكن الظهور لغير الإنجليز مسموحا على شاشة البي بي سي فأدركنا حدود أحلامنا وتخلّينا عنها، ثم فتح إعلام لندن أبوابه للاختلاف بعد عقود طويلة.

وأبي يتابع مذيعته المفضّلة طفحت الغيرة بأمّي مرّات. تابعها في شغف بينما يعدّ حبّات مسبحة العقيق في توتّر: قالت بترفّع: لا بأس بها لولا شعرها القصير كالرجال، والحَوَل البسيط في عينها اليسرى.

كتم أبي ضحكته مثلنا بينما فردت أمّي شعرها الكثيف فانساب الحرير حتى خصرها، تمخطرت أمامه مرّات.

مبتسما أخذ يدها قبّلها وقال: لا أخرى على الأرض في جمالك يا أميرتي.

لم تدم غيرة أمّي طويلا.. اختفت نجمة الأخبار فانشغلت المجلات النسائية بسبب استقالتها - غمز وتلميح إلى علاقة غرامية مع الفارس زوج ابنة الملكة.

مدّت لأبي المجلاّت في شماتة:

- وصولية لا تستحقّ الاهتمام.

لا يلاحق الضوء إعلاميا قرّر الخروج من دائرته. فقدت الصحافة الاهتمام بها، غابت ولم تعد أمّي إلى ذكرها.

كثير من الوقت أفردته أمّي لشغفها بالمسرح والحفلات الموسيقية. وقرأ لها أبي ساعات.

ونحن. نزفنا الأحلام مع العواطف، تهاوت جسور التواصل. وانقلب حوارنا صراخا وضيقا.

هل يمكن إنقاذ مشاعر فترت؟

لا رجاء في استعادة ما كان... أدركت هذا والطبيب يبلغني بالنتائج. لم أشعر بالحاجة إليك في لحظتي تلك، بل أردت إبعادك عنها.

ألمرض الخطير إعلان الخوف من النهاية واحتمال الهزيمة. لا قسوة مثل جبروت الإحساس بأن الموت يلاعبك بالمرض، ويغيب عن المريض وغيره أن الموت يحاصر الحياة ويراودها من حيث لا تحتسب. لكنه الخوف من النهاية المحتومة لمرض يخشاه الناس، فأطلقوا عليه تسميات الخبيث واللعين واللي ما يتسمّاش.. وهو واحد.. السرطان.

أردت محاربة المرض.. وحدي.. وبلا شهود على معركة لم أختر منازلتها ولا بد لي من خوضها، وأود الانتصار.

الأسرار الكبيرة لا تحبّ المشاركة.

شعور غريب داهمني، أحسست وجهي بلا تعابير. أذهلني حدس ظلّ معي سنوات.. كنت أعرف يقينا أن المرض رابض في مكان ما منّي. ومثل تلميذ تلقّيت نتيجة امتحان لم أستعدّ عليه قبلت قرار الطبيب.. خشيت المرض فأهملته لكنّه احتلّني وانتشر. هل كان خوفي من المواجهة أم الرغبة في تأجيلها؟ لا أحتاج المواساة من أحد.. تقبّلت النتيجة وما زال الطبيب يقدّم واجب العزاء لفردوس ذاهلا من صلابتي قال:

- الانتشار الكبير في العظام، لكنّه بطيء عادة، عمّي عاش خمسة عشر عاما بعد اكتشاف المرض وكان في الدرجة الرابعة.

انهارت فردوس على المقعد الجلدي. همست: من حقّ منار أن تعرف، على الأقل أخبري والدها ليعتني بها أو يجد وسيلة ليخبرها.

سحبت الموبايل من يدها قبل أن تطلب رقم أحدكما.

- حقي وحدي أن أختار من يعرف. لا أحد... ولو عرف غيرك فستكون بيننا قطيعة الحياة.

أنا في حفرة بلا قرار. ولا سلطة لي للخروج منها أو البقاء فيها. كم عصف بي الرجاء واليأس في انتظار تحديد العدوان على جسدي؟ وشاسعة مساحات الخوف ألوب فيها وحدي. أطالب الله أن يتساهل مع إهمالي للمرض ويقضي عليه لأنه وحده القادر. والطب يطالبني أن أتماهل وحشا كاسرا غافلني ونهش بعضي، ولعابه المسموم يسري في جسدي، يقضمني، وعليّ أن أخوض معركتي وأنتصر. أقهر من اختارني دون غيري بمزيد من الرغبة في الحياة، أحارب عدوّا تمكّن مني دون أن أفطن، سابقني على أحلام وإنجازات أجّلتها حين تصوّرت أن الحياة في

قبضتي. والطبيب ما زال يثرثر عن ضرورة أن أهزم القلق لأنه رفيق المرض، أعادي التوتّر لأنّه بيئته. أحوز ميدالية الشجاعة بينما الألم يزاحم يومي وعمري اعترفت لنفسي بأن الحاسة السادسة أشعرتني بأن المرض هناك فرفضت الإيحاء الخفيّ، المرض لم يغافلني كما ادعّيت.. إحساس غامض ساورني سنوات بأنه هناك، رابض في مكان مني. وأن الخوف من وجوده أحجم بي عن الفحوص الدورية في إلحاح أمّي. فكذبت في كل مرة ألحّت، قلت إنني أجريها في مواعيدها السنوية وأنا بخير.

تهاوت فردوس في نحيب هستيري، نهرتُها لتتوقّف.. قلت: لو عرف سوانا من العائلة فسأقطع صلتي بك إلى الأبد.

تركت للجسد أن يقاوم، وحلّقَت بروحي كي تتجاهل ما يحدث له في الصراع الشرس مع المرض وقسوة العلاج.

كتمت فردوس سرّي، حضرت بعض جلسات العلاج. حفظها لسر مرضي عن أمّي حيّرني. لا خصوصية بينهما، ربما أشفقت على الشريفة من زلزال مرضي بعد فشل حياتي معك وطلاقنا، أو ربّما رحمة بمنار.

انشغال فردوس بمرضي حيّرني. لم أتصوّر يوما أنها تحبني إلى حد هذا التكريس، اتصال دائم مع المراكز الطبية في العالم، استشارات وتقارير، بحث لا يتوقف عن الجديد في المواقع الطبّية على الإنترنت. أخبار تطوّر العلاج والكثير من الأمل.

فردوس تبحث بينما أحمل مرضي وأعمل بجدّ لإنقاذ ما أفسدت من حياتنا، أريد أن أترك لمنار طريقا سالكا بلا معوّقات.

يحملني الدواء أحيانا إلى وحدي، سادرة في مركب تاه في بحر بلا شطآن، لا قائد أو مجاديف، في هدوء مريب أندفع وحدي. بحر ممتد حولي وأمامي وأنا أقلع بلا وجهة، ريح تسحبني بلا خيار، لا عواصف ولا أعاصير، فقط دوار ودوار. عجيب أن تحسّ أنك على موجة هادئة وغير ثابتة، بلا اتجاه، طوّافة خشبية تهتز بك، تحاول تثبيتها فتندفع بلا حول منك. وأنتظر المجهول.

تمعّن الطبيب قائمة أطعمة تمنع المرض:

- لا أثر علميا مثبتا بالبحوث للأطعمة على مقاومة المرض. فقط العلاج والمعنويات العالية.

امتنعت عن اللحوم والسكر والبروتين.

هل يدرك الأطباء أن الأمل الوحيد للمريض هو الشعور بأنه قادر على المقاومة؟ أنه جندي في معركة فرضت عليه، وعليه أن ينتصر رغم سلاحه البسيط؟ أن يقاوم المرض بما يملك.

الأمل سلاح.

أنا وفردوس في غرفة صغيرة في مركز العلاج، النافذة كشفت الطريق، والدواء في عروقي نقاط تتلاحق، والصمت مزعج. شاشة التلفزيون المغلق لا تغري بفتحها. بحثت في اليوتيوب من التلفون عن أغنية خوليو إيغليسيس' الحب' خرجت من ضيق المكان ونسيت الدواء، أسطوانة' الحب' كانت هدية فردوس في أحد أعياد ميلادي، بادلتني الابتسام. ثم اشتريت ألبومات المطرب الإسباني المبتسم دائما، الأسطوانة الكبيرة والجهاز الضخم كانت من رفاهية البيوت آنذاك.

أغلقت الممرضة باب الغرفة الخاصة واعتذرت: كثير من المرضى يفضّلون الصمت.

- الغناء احتجاج على المرض، رغبة في الحياة. مقاومة للاستسلام. تتركون المرضى يتجرّعون الدواء لساعات في صمت. الصمت نفق إلى الخوف، سرداب مظلم إلى الأفكار. رهيب صمت الخوف من استلاب الحياة، من عدو لا تراه بينما أسلحتك مصوبة إليه بإبرة في الوريد وقطرات تحاول أن تقضي عليه، لكنها تنهك جسدك وتستنفذ قواك.

الموسيقى طريق للنسيان.

*****

أربكني التفكير في قدرتك على نسيان الحب. كأن لم يكن رباطا! تاهت مشاعر جميلة زيّنت أيامنا، فرحة منار في أحشائي، وذهولك الشاخص إلى الله حين رفعتها في يديك أول مرة:

- ليساعدني الله على إسعادكما.

أحببتك أكثر. فكيف أفلَتَّ الخيوط وانفرط عشّ كان؟ سنواتنا الأخيرة معا أنين ساقية على بئر خلف الدارة، انكسر ضلعها، ترنّحتُ وناحت، لم تتوقّف ولم تعمل كما يجب.

وحدها منار انكفأت على مشاعر لا تبوح بها.

امرأة المفارقات أنا ولم أفهمك.

أمّي ظلّت قريبة منك، حفظت ودّها لك. شيّدت الأحاديث عن الأنساب والتفاخرُ بروايات الأقدمين جسر ودّ احتفظت ببعضه.

ولا دليل على أشجار عائلات لا يعرف أحد من وضعها ومقدار ما اختلط فيها. أضيفت بطولات ونبل في غياب الوثائق والشهود.

الإعجاب والرضى صنوان.

أذاب تخوّف أمّي من ارتباطي بغريب تماثل بعض المعتقدات بينكما. تخيّلت أحيانا أن مكانتك في نفسها فاقت ما حظي به رضا شاه رغم تبجيله لها. اعتبرها ماسة في تاج العائلة فتفاخر بها في حفلاته، قدّمها بألقاب التكريم وأكّد على نسبها إلى الإمام علي ابن عم الرسول، أسعدها الإكبار لاجتماع المال والأصل في امرأة خلقت أميرة.

أريد أن تعرف الآن أن فردوس لم ترحّب بزواجنا. عارضت ارتباطنا، اعتقدت أنك هجين في العائلة. ولا تشبهنا.

- يانكي تعرفين إصرار أختك. والشاب طموح ويحبّها.. احتضنها أبي.

"يانكي" اسم التدليل لفردوس في العائلة وبين الأصدقاء منذ كانت طفلة، ويانكي في لغتنا هي الشابة الوردية البشرة. شعرها من كستناء بلادي، يغازل الحمرة، تجاذبت عيناها الخضرة والعسل، لون أثار ضحكنا وسخريتنا طويلا، وشطح بخيالاتنا. وكثيرة ظلت التلميحات الساخرة عن وراثة غريبة في عشيرة الغلزاني، فلون عيني فردوس جينات هجينة.. ربما من جدّة كبرى صبغ شجر بلادها مآقيها، جدّة لم يسمّها أحد، عبدة أو محظيّة، فارسية أو قوقازية بيعت في سوق النخاسة وتزوّجها جدّ أكبر لأحد والدينا.

في مزاح صاخب أبعد كل من والديّ تهمة العيون الملوّنة عن أسلافه.

وفردوس هي الابنة الثانية بين الأولاد، البكر مُهاب ثم فردوس وعالِم وأنا. ولأنك رأيتها قبلي تصوّرتني أشبهها. ثم أخفيت أنك التقيتها وزوجها في حفل مهاب السنوي، هذا ما قاله صديق لنا بعد الانفصال: منذر أحبّك وقرّر الزواج بك قبل أن يراك، ذهب مع صديق إلى حفلة مهاب السنويّة، أذهلته فردوس، وحين علم أن لها شقيقة صغرى عازبة قرّر التقرّب منها.

- خطّط للإيقاع بمن لا تشبهها.

فسّر ما قال الصديق ذاك التوتر الغريب في لقائك الأول مع العائلة رغم الحفاوة البالغة. فقط حين لم يتوقّف مهاب أو فردوس أمام وجهك، عدت إلى طبيعتك.

بدأت حكايتنا بمناسبة لم تدع إليها وكنت أظن القدر رتّب لقاءنا. لم أكن الحبّ كما اعتقدت. أزعجتني قناعة توصّلت إليها، جرّحت كرامتي. تمنيت لو تكذّبها الأيام، أنني كنت سلّما إلى عائلة قرّرت أن تكون فيها.. مؤلم أن تكون مطيّة لمن تخيّل ذاته فارسا.

- فردوس أرستقراطية الحديث والجلوس، من طينة أمّك.

تجاهلت ما قلت. فردوس لا تسمح لأحد أن يراها إلا بكامل أناقتها مثل أمّي.. وأنا مثل أبي. عقلي ومظهري في كفتي ميزان لا ترجح إحداهما على الأخرى.

ضحكنا طويلا أمام رفوف أحذية فردوس في غرفة الملابس الواسعة، كانت صور أحذية إيميلدا ماركوس زوجة رئيس الفلبين المخلوع تحتلّ صفحات الجرائد والأخبار بعد الإطاحة به، مئات من الأحذية بألوان وموديلات على رفوف ممتدة. اتهمتها أمريكا بالفساد واستغلال قوت شعبها الفقير في شراء الأحذية.

شكرنا الله أننا نعيش في بلد ملكي لا يهتم بعدد أحذية الملوك أو النجوم أو الأغنياء فيه.

- تنتهي الأدوار المرسومة لحكّام داروا في فلك أقطاب كبرى فجاء سقوطهم مدوّيا، يتخلّى عنهم من استغلّوهم ورسموا أدوارهم. لم تعد أمريكا بحاجة إلى قواعد عسكرية في الفلبين فصار ماركوس عبئا على تحالفات سياسية جديدة. لهذا مات مرذولا غريبا في دولة خدمها تابعا. وبالتأكيد ستنتهي أدوار من ينفّذون السياسات العالمية في بلادنا، الروس وامريكا وطالبان وسنعود.

وما زال مقتنعا بعودة ولو بعيدة قال:

- لكن الوضع هناك صار أكثر تعقيدا وتشابكا.

فردوس تزوجت بمن أسعدها، عرفت ما تريد ونالته. وأنا تزوجت الأحلام والحب تقاذفتني الأمواج على صخور قاسية، وجرّحتني.

منذ وصولنا لندن أقبلت فردوس على الحياة بنهم وألقت الماضي خلفها.... الأهداف المحدّدة تسهّل الوصول إليها، شهادة جامعية وزوج

شرقيّ ثريّ. حلم احتاج مجلات الموضة والمكياج، ونوادي الرشاقة والعناية بالشعر والبشرة.

رضا شاه زوج فردوس مثل مهاب بدأ كبيرا، جدّه زعيم بشتوني، أحد مستشاري الملك أمان الله والقيّم على أملاكه في بريطانيا. والده مهندس يسابقه اسمه أينما حلّ. آمن أسلافه أن النجاح في المهجر يفتح أبواب الوطن. فضّل والده العيش في لندن على مرافقة الملك إلى إيطاليا أو العودة إلى البلاد.

المصاهرة بين عائلتينا رواها والدي بتفاخر رغم احتجاج أمّي، وتأكيدها على أن ما حدث من والد العريس تصرّف مغرور افتقر إلى الذوق والتهذيب:

- كانت جلسة واسعة في فندق كلاريج، مصادفة غريبة اجتمع فيها هذا العدد من رجالات بلادنا، زعماء وضباط ورجال أعمال. تدارسنا أوضاع البلاد وأزمة بريطانيا مع تدفّق موجات اللاجئين والجرحى.

أدركنا رضاه عما دار حين لم يدخل إلى غرفته معها كالعادة في مناقشة أمر كبير. كان قد اتّخذ قراره، أكمل مبتسما:

- اعتدل الرجل في جلسته وطالبنا أن نصمت، ثمّ ركّز بصره على وجهي، وألقى خطابا مطوّلا، تفاخر فيه بدائرة معارفه من ذوي النفوذ من الإنجليز والمهاجرين، وأن ملوكا ورؤساء دول انقلبت عليهم بلادهم يحلمون بمصاهرته والتقرّب منه. لكنه يعتقد أن النجاح حليف زواج تتشابه فيه القيم والعادات. ولهذا يسعده، في

حضور هذا الجمع أن يطلب يد ابنة الزعيم أرسلان الغلزاني الشريفة فردوس بنت الشريفة هانية، زوجة لابنه الوحيد رضا شاه.

في سعادتها بلقب الشريفة وإضفائه على ابنتها أيضا، تغاضت عن القبول السريع لخطوبة خرجت عن التقاليد، وتنازلت عن الأعراف.

- كان عليه أن يرسل زوجته لزيارتنا، فالتقدّم للعروس يتمّ من النساء أولا، ثم يصبح كلام الرجال شكليا، كنت سأطلب مهلة للتشاور، ثم يحضر العريس للتعارف. لكن ما فعله استعلاء وتكبّر.
- لم يكن ليقبل إهانة الرفض أو حتى المماطلة أمام هذا الجمع من زعماء البلاد. خاصة بعد أن أعلن أن ابنه التقاها في بيت مهاب.

سرحت بنظرها بعيدا وقالت بقلق:

- ومن يضمن ألا يكون الولد مثل أبيه؟

تجهّم فاستدركت:

- لا يشبه الأبناء آباءهم دائما، قد يختلفون في رؤيتهم للحياة واختيار مستقبلهم. هذا اختلاف لا يشين الأب ولا الأبناء، لكن.. أن تكون للأب عشيقة شابة بدّد

عليها معظم ثروته، ويرافقها في كل مكان! واشترى لها منزلا فاخرا وسيارة مرسيدس. وبوتيك في بوند ستريت، وأغرقها بالمجوهرات. فهذا أمر يدعو للتخوّف.

تجاهل أبي نقاشا يفسد فرحته بمصاهرة زعيم ثري في غربة ضاقت فيها الفرص الكبرى:

- بل كان ذكيا في اختيار اللحظة، انتهز وجود رجالات البلاد فاعترف أمامهم أن ابنه معجب بفردوس، وأحبّها منذ رآها في بيت مهاب، والحب هو الضمان الوحيد لنجاح الزواج واستمراره. وهل نحاسب الابن على أخطاء والده؟

- ويا أميرتي.. تختلف ردود أفعال الناس في المصائب الكبرى خاصة عند الاقتلاع والتهجير، لعلّ الرجل افتقر إلى دفء العائلة، أو لم يجد دراية من زوجته بوضع جديد لرجل متميّز، ووجد هذا عند تلك الصبيّة.

أحاطها بذراعه وقبّل رأسها، قلّبت شفتيها ولم تعلّق.

فردوس فرحت برضا شاه، منذ تجاوزت الرابعة والعشرين والخوف من العنوسة هاجسها. لم ترتبط بعلاقة جدّية رغم محاولات زملاء الدراسة. حلمت دائما بأحد أبناء القبائل، مهاجر ثريّ، ابن أمير أو حاكم مخلوع من أصدقاء أبي.

والد رضا شاه مهندس ومقاول كبير من قلّة فريدة أحاطت بها هالة ثروتها أينما حلّ. كهل بقوام العشرين، وسيم ورشيق، لا آثار للعمر، لا انحناء ولا سمنة، بشرة سمراء لامعة توهّجت بالعناية والرياضة، ملابسه بتوقيع كبار المصممين وعطره أعلن حضوره قبله، لا تخطىء عين ساعة الرولكس الذهبية صنعتها الشركة خصيصا له، وخاتم فيروز كبير.

تجتمع الأضداد، لزوجته حضور باهت، حملت البلاد مظهرا وتصرّفا فعجزت لندن أن تبدّلها.. دائمة الابتسام قليلة الكلام. امتدت مسافات الاختلاف مع أمّي رغم المجاملة والحفاوة، تباين معرفي لم ترغب أي من المرأتين في اجتيازه. وكلٌ راضية بما هي فيه.

تركت لنا تفاصيل الزفاف دون أي اعتراض.

يحتمي المهاجرون الجدد بتجمّعات يقاومون فيها ما يعتقدون أنه استلاب لهويّتهم، الدين واللغة والعادات، يجتمعون في الكنائس أو المعابد أو المساجد، يتعارفون أو يتصادقون، أو تقيم الجاليات نواديها لتضمن هويتها، ويتبادلون فيها حكايات الأوطان ومآثر الجدود وآمال المستقبل.. ثم تصير قصص الأسلاف تراثا يؤكّد الهويّة، موسيقى وغناء ولباس وأطباق الأوطان في المناسبات الوطنية، ثم تعود الأجيال إلى عجلة الحياة العادية.

وحدهم المهاجرون الأثرياء يشيّدون عالما لا تعرفه الجاليات المهاجرة. وشاسعة فوارق الطبقة.

في صوان أفغاني غطّى جدران القاعة الكبرى في فندق الدورشستر تمّ الزفاف الأسطوري لفردوس ورضا شاه.. حضر أبناء الملك المخلوع وسفراء ودبلوماسيون وبرلمانيون وزعماء قبائل وكبار رجال الأعمال.

هدية ثمينة سبقت حضور عشيقة الأب. شخصت العيون إلى جمال هجين، امتزاج عرقين وثقافتين، سمرة المتوسط وجاذبيته من أب إيطالي، وملامح مترفّعة من أمّ سويدية، حملت قامتها الطويلة برشاقة

أرستقراطية، وبثقة من تملك المكان توجّهت إلى الكوشة دون أن تلتفت لأحد.. قبّلت العروسيْن... وفي ذهول الحاضرين هبّت والدة العريس للترحيب بها، عانقتها وقادتها إلى طاولة أهل العروسين... ضاع لغط الحاضرين في الموسيقى الراقصة أنهت ذهول الحاضرين مما حدث.

تتباين مواقف النساء عند إهدار الكرامة والخوف من فقدان الأمان، بين عنفوان الرفض أو خنوع القهر.

همست الزوجة لأمّي: ليفعل ما يشاء ما دام يملك ما يكفينا، لم تتغيّر حياتنا بوجودها، ولم يبخل على رضا شاه بشيء، تخرّج من أفضل الجامعات، وأهداه شركة وبيتا وسيارة، وتكفّل بمصاريف زواجه.

سعادة أبي بزواج فردوس تعاظمت بنجاح حياتها وانشغالها بالعمل التطوّعي، ثم ولادة حفيدين.

جملة لا تتغيّر كلما رآها:

- فردوس خلقت أميرة، ورضا شاه يستحق مثلها.

-يكبر الحبّ من القدرة على تحقيق الأمنيات. يانكي تعشق الحياة الباذخة منذ كانت طفلة.. ردّت أمّي.

العمل التطوّعي غيّر فردوس. انتسبت إلى جمعية "الإخاء" الأفغانية البريطانية لتأهيل الجرحى واللاجئين، رأستها وما زالت. التطوّع فتح لها أبوابا واسعة لانشغال إنساني في العالم كان أحدها إلى بلادنا وفي حماية دولية.

جمعيات بريطانية كثيرة نشأت لتعالج تورّط بلادها في حروب وسياسات رسمتها. تعاونت "الإخاء" مع منظمات الأمم المتحدة، عيّنوا

فردوس سفيرة النوايا الحسنة لمكافحة استغلال الأطفال في الصراعات والحروب في بلادنا، تبرّع زوجها بمليوني جنيه استرليني لإنجاح الحملة. فتحوا الأبواب جميعا للترحيب بها.

في زيارة يتيمة وصلت فردوس إلى البلاد، شعلة حماس تفجّرت ثم انطفأت، في حراسة مشدّدة زارت بعض مناطق الحدود، روى ذهولها قصص الخراب النفسي للبشر، وأطفال يعشقون القتل باسم الله:

- لم تعد ديارا، لا المكان ولا البشر. اعتياد القتل يحتاج الزمن ليشفيه، وبناء أجيال لا تعرف قسوة الحاضر، نحتاج مراكز التأهيل في المدن والجبال والقرى النائية لانتزاع الذلّ والانحراف من الصغار. كسروا عنفوان الطفولة وبراءتها، استغلّوا الفتيان جنودا أو غلمانا للمقاتلين. المشكلة أن كليهما. المجرم والضّحية يؤمنان بأن الغلمان من متع الجنّة الموعودة، ولا بأس من التمرين عليها على الأرض.

لم تقترب فردوس من الدارة أو بيت كابول، ولم تلتق أحدا ممن نعرف.

جمعية "الإخاء" الأفغانية البريطانية وفّرت مدارس ودور أيتام لضحايا الصراع ونجحت في تأهيل بعض الأطفال اللاجئين في لندن من ضحايا الحرب.

فردوس موهبة فريدة في تعلّم اللغات، أتقنت خمسا منها، حصلت على شهادة الماجستير في آداب اللغة الإنجليزية. عملت شهورا قليلة في شركة أبي حتى تزوّجت. العلاقة بيننا تجاوزت فارق العمر. حنت عليّ طفلة مشاغبة لا تشبهها. في كل مرّة خالفت فيها ما تراه

ردّتني بحنان. صبرت على ما اعتبرته تجاوزا للأتيكيت أو تمرّدا على التقاليد.

بعد أن فشلت الممرضة في إقناعي بإيقاف الموسيقى في غرفة العلاج أغلقت الباب ومضت، سابقْت غضب فردوس فقلّدت ما يمكن أن تقول وما زال الأنبوب يضخّ الدواء في شرايييني:

- ليس فقط لعدم إزعاج المرضى بل لأنّ على عائلة الغلزاني الحفاظ على هيبتها واحترام القوانين.

ضحكنا. حضنتني وقبّلت رأسي.

التفاصيل عشق فردوس وأمّي، في ارتخاء هادئ تصفان جديد المصمّمين، حفلات مهاب، جلسات نساء النادي. وأنا تزعجني التفاصيل، شعاري 'ركّز على الموضوع' Get to the point، ما أشك فيه من حالات المرضى أحوّله إلى المختبر فقراره قاطع.

في محاولة إصلاحي لأوضاع الشركة تعلّمت أن الإقناع بلغة الأرقام والثقة الزائدة وسيلة قلّما تخيب. لكنني الآن أكثر نزقا وأقلّ صبرا وأنا أسابق الحياة، يزعجني الاستطراد، ولا أطيق سماع القصّة مرّتين.

وجه آخر لفردوس تغلّفه الطيبة، الشراسة في غضبها، قاسية في فرض ما تعتقد أنه صواب. نمرة هاجمت أحلام عالِم فمزّقت بهاءها، ثارت لدعوة تلقّاها من نادي الأفغان في لندن ليقيم حفلا مع فرقته الموسيقية في حفل الافتتاح، ولم تهدأ حتى أجهضت خياره.

- زعماء الغلزانية لا ينجبون المنشدين أو المطربين بل يكترونهم... أي عار ستلحق بالعائلة في غربتنا؟ حفلة للجالية وترفيه للمهاجرين؟ معظم آبائهم كانوا عمّالا في أرض أجدادك أو من عبيدهم؟ كيف تسمح أن يقال إن خال أبنائي مطرب أفراح؟ اتّق الله فينا. لم يبق سوى أن تجلس على رصيف الأندر جروند وتعزف للمارة وتلتقط إحسانهم!

صامتا هزّ أبي رأسه ووافق ثورتها.

وحزنه أكبر من الغضب انسحب عالِم بصمت.

عزف وفرقته في حفل الجالية الأفغانية دون أن يحضر من العائلة أحد، وعاد سعيدا.

ولفردوس وجه آخر فاض حنانا فأربكني. همست دموعها بينما تمدّ لي صندوقا:

- لن يميزها أحد، بلون شعرك وطوله وتسريحته، وجدتها في متجر سلفريدج في قسم الشعر الطبيعي.

ألقيت علبة الشعر المستعار في برميل القمامة بعنف:

- لن اسمح للعلاج أن يسلبني شعري.

رفعتها فردوس ومسحت دموعها.

معركة أخرى قرّرت خوضها مع المرض، الاحتفاظ بشعري رغم العلاج الكيميائي.

توقفت مع ما اعتبرته سابقا تعبيرا ساذجا، أن الشعر تاج المرأة وحتى هددني العلاج بسلبه.. لم تخطىء الثقافات عبر العصور ومختلف المجتمعات في نظرتها إلى قيمة شعور النساء. لهذا قصّوا شعر المرأة في الحضارات لإعلان فضيحتها ورمزا لعارها، وحلقوا شعور المناضلات في السجون عقابا. وزيّنت الإعلانات الشعر جمالا لا يضاهى، فعجّت الصحف بعلاج يقاوم الصلع، وتسابق الرجال والنساء لزرع الشعر.

التهديد بخسارة شعري كان الجزء الأصعب في رحلة العلاج.

حاولت الاحتفاظ بشلاّل الحرير كما كنت تسمّيه.. فركت بنعومته وجهك، وقبّلت أطرافه الغزيرة في نشوة... قال الطبيب:

- تجربة جديدة تحتاج متطوّعات، لو رغبتِ وتحمّلتِ التكاليف سنجرّب الجهاز الجديد. ولو نجَحَت التجربة سأشتري الجهاز.

الريادة دافع للانتصار، في غرفة صغيرة في مركز الحسين للسرطان في عمّان نافذتها تطلّ على شارع علمي مزدحم تساءلت، هل يعرف من يمرّ بالمركز بما يدور في المبنى الفاره، هل تسابق سياراتهم الحياة مثلي؟

برودة الجليد تشلّ رأسي. أطباء يراقبون تجربة قالوا حقّقت نسب نجاح كبيرة في العالم، يبتسمون لإصراري على سماع الموسيقى. أصطاد الأمل. ألاحقه في شارع ازدحم ببشر لاهين عمّا يحدث لي.

أردت الانتصار.. خذلني جسدي. الخصلات المتساقطة سدّت مجرى الماء في الحمّام. تكرمش الحرير بالدواء إلى بلاستيك متشابك.

ندمت لأنني لم أتخلّص منه قبل العلاج كما نصحوني. أخرجت الشعر المستعار... ابتسمت لي المرآة.

التقرّب من المريضات في صالة الانتظار عبث. لا رغبة في حديث عند أي من المريضات أو المرافقين، وجوم وتجهم ومحاولة انفصال عن الواقع. الصمت نكران ورفض، انشغال بالموبايلات. وجوه تنتظر موعدها تطالب أن لا يراها أحد، ألا يسمع اسمها أحد فيعرف انها هنا لأن المرض اختارها دون الآخرين.

والانتظار دهور.. الصمت رفض. والمرض ثعلب يسرق تيجان الافتخار، وحدها مبتسمة في حقل الوجوم. جلستُ بجانبها. صبية في الأربعين قالت: بالأمس فاجأني طفلي في غرفتي، حمل الشعر المستعار ورفعه إليّ وطلب أن أضع شعري الآخر. كان العالم كلّه سؤال عينيه واستنكاره لرأس أمرد، بكيت وحدي.

وجسدها متصلّب بالحزن حضنتها، سوّيت حجابها.

- "الطاقية المبرّدة "cold cap". كولد كاب نظرية طبّية بسيطة، جهاز غير معقّد، العلاج الكيماوي يهاجم الخلايا المريضة مع السليمة، ولأن بصيلات الشعر هي الأضعف يسقط الشعر بعد الجلسة الثانية... مهندس بريطاني شاب لم يحتمل فكرة اغتصاب العلاج لسنابل الذهب من رأس أمّه.. والحاجة أم الاختراع، والحب إمام الابتكار. اخترع جهازا يجمّد بصيلات الشعر في الرأس أثناء سريان الدواء في الجسم، فيرتدّ العلاج ويعجز عن اختراق بصيلات الشعر المجمّدة، فلا تسقط بتأثيره.

ارتجف تحت البطانيات. القطب المتجمّد فوق رأسي. أبتسم لوجوه تنتظر معركتي... أنهش باب أمل مغلق، ورياح الانتظار عاصفة تقتلع الرجاء. أغسل شعري من بقايا الجليد. لم يعرف من وصف الشعر بتاج المرأة لوعة الخوف من فقدانه، فلم يكن العلاج الكيميائي قد هاجم تيجان النساء أو عرفه الأسبقون.

وفوق الاحتمال نظرات وابتسامات الشكّ على وجوه هزمتها الشفقة على امرأة تقاتل ـ رثاء صامت لمن تنازل خصما في معركة محسومة لغير صالحها، تلعب في الوقت الضائع، فقط لأنها قادرة على الدفع.

وصقيع الثلج على رأسي توالت الصو . أوقفت الموسيقى، بحثت عن ابتهال الشيخ النقشبندي. إحساس جارف بالحنين إلى مزار شريف. رأيت نفسي أعقد شرائط القماش الأخضر على فضّة القضبان وأبتهل، أتبتّل بجوار الضريح كما نساء الحاجة.

- انبذي التوتر. مارسي الحركة. قال الطبيب.

هل تختلف أوضاع ومشاعر الأطباء عن مرضاهم حين يصابون بما يعالجون الناس منه؟ وما مقدار احتمالهم ومقاومتهم؟ هل ينصحون أنفسهم ويعيشون الأمل؟

حجارة رحى تصير النصائح في مواقف لا سيطرة للإنسان عليها، ساقية وثور معصوب العينين، يدور ويدور ثم يقع بلا وعي.

في مصعد المركز رجل مع صبيتين وامرأة. خائفات. محجّبات. طويلا تفحّص الرجل مظهري، استجمع قواه، وسألني بالإنجليزية: هل

أنتِ؟ ولم يكمل. أجبته بالإنجليزية نعم مريضة، ابتسم في تعاطف، توقّف نظره على شعري، قال: توقّعت رغم أنه لا يبدو عليك.

استمدّ قوّتي من خوفه.

• لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

ابتسمت الفتيات وظل مقطّبا، قال: آمنت بالله. عرفت أنه طبيب يخضع للعلاج، لم أسأل في أي اختصاص وأين أصيب. تموت الأسئلة في انشغال المريض بالاحتمالات. مذهولا غير مصدّق نزل عند طابق العلاج بالأشعة وتبعته نساء رجلهن خائف.

على الانترنت ابتهالات حظيت بملايين المشاهدات، لا شيء مثل ذاك الدوران الجماعي في باحات المسجد الأزرق، وجوه خاشعة إلى الذات تشتد حركة وجدها في دوران سريع، ترتفع المناجاة، وتعبق رائحة العنبر من ثنايا المسجد.

ألفّ مع الموسيقى، أدور حول نفسي وأدور. خذلني ضعفي بينما تسامت روحي بقوة غريبة، غادرتني. انفصلت. ارتفعت وحلّقت بعيدا، غابت، خارت قواي. تكوّمت على وجدي.

كم طال غيابي؟ لا أدري.

هاجمتني الصور.. حجيج أمّي وموكبها ساطع التفاصيل.

قبل أسبوع من الاحتفالات بمولد الإمام انطلق موكب حجّنا إلى مزار شريف، سيارات الفورد محمّلة بالزكاة والنذور، وهدايا لحارس الضريح ولإمام المسجد، وللملاّ بنيامين اليهودي.

اشتهرت أمّي في السوق التقليدي المسقوف بمحاذاة المسجد الأزرق بسخائها، حفظ التجّار أغلى بضائعهم للشريفة هانية، وتعامل كثيرون منهم مع صديقتها اليهودية بود كبير، فلم يكن العداء لليهود قد استشرى بعد، وكثير منهم تعامل مع أجدادها، أشهر تجّار الجلود والفراء في البلاد.

أرى أمّي تطوف بالضريح ونحن خلفها، علّقت أدعيتها مع شرائط خضراء بعدد عائلتها على قضبان الفضة سيّجت الضريح، مثلها ربطنا أشرطة خضراء وأدعية أطفال، أي أدعية؟ لعلها تعلقت بالنجاح؟! أنهت أمّي صلاتها ثم تركت نذورها عند حرّاس الضريح.. خرجت على دعوات فرشوها حتى الباب بأن يحفظ الله الشريفة، ويبارك في صحة ومال المؤمنة الكريمة حفيدة الإمام عليّ وعائلتها.

الشريفة حفيدة الإمام لقب أفرحها كلّما ناداها به الباعة والمنشدون وحتى المتسوّلون.

موكب أمّي حدث كبير، ليس لاهتمام إمام المسجد وترحيب العاملين فيه وتنافسهم على إرضائها، ولا للاستعداد الجليّ من كلّ من يعمل في الفندق الباذخ لا تقيم في غيره، فشرفة جناحها تطلّ على الساحة الكبرى، وحلقات النقشبندية تقيم أذكارها في المساحة التي تطلّ عليها.. بل لأن الأوراق النقدية ظلت تتساقط على الفرق من شرفتها.

كنا نسعد بإلقائها كلما انتهوا، تطير فوق رؤوسهم فيحيون الشريفة بإجلال، وكثيرا تقاطر صبية وفقراء فزاحموا الدراويش على جمعها.

بدأت الفرق أذكارها فهامت في عوالم أخرى، غائبة متجلّية في ملكوت بعيد. متعبة عادت وظلّت في وجدها حتى صباح تال.

*****

عواصف الاختلاف لم تهدأ بين أبي وعالِم بعد الإعلان عن فرقة عالِم الموسيقية الجديدة.. مفاجأة بدّدت فرحة دخوله الجامعة.

عالِم واجه أبي بصلابة لم نعهدها.

سكنت العاصفة بالاتفاق، يدرس الموسيقى في معهد خاص بالتوازي مع دراسته في الجامعة. إدارة الأعمال أو الاقتصاد ثم يعمل مصرفيا.

تلميذا متوسطا ظل حتى تخرّج من كليّة الآداب.

- أسميته عالِم ليكون له من اسمه نصيب، علم ومعرفة، لا تطبيل وغناء. وأي جرأة ليسمّي فرقته "الاينجيلز"؟ تبارك الله.. "الملائكة" وتعزف لروّاد سوهو والحانات؟ ابن أرسلان الغلزاني زعيم للطبّالين؟! حسبي الله ونعم الوكيل... ندب أبي خيبته.

تصير النكتة علاجا في مواقف التوتّر، تمتص الغضب. قالت أمّي:

- لا ذنب له يا حبيبي. أقدار مكتوبة لا يد لأحد فيها! لا تلم عالم على ما لا ذنب له فيه. لا تدبير في أمر الوراثة، ولا تنسى أن جدّك كان أمهر عازفي الديمبورا وبشهادة الجميع، ولكن في السرّ وفي سهراته الخاصة، وقاد العازفين في حفلاته ليشبع هوايته، ورغم أن سهراته وما دار فيها ما زالت في ذاكرة الناس، بقي زعيما يخشاه الجميع، ولم تقلّل هوايته من هيبته أو زعامته.

دخل أبي مكتبه كالعادة بعد كلّ هزيمة.

حملة إعلانية واسعة أدارتها شركة متخصّصة أشهرت فرقة الإينجلز، صورة كبيرة لعالِم يتوسّط ثلاثة من الدارسين في المعهد الموسيقي وهاويين، الملصقات على باب نادي الشباب، وردهات المعهد الموسيقي، ومدخل المتحف البريطاني، وأبواب محلات كثيرة في سوهو. وتناثرت الفلايرز والبروشورز في كل شارع وفي محطات الأندرجراوند.

بين سحاب الفرح عاش عالِم. وحده أبي ازداد حزنا بعد لقائه مع الفرقة.

خوفه لا يخفى، وقلق ورفض كلّما لمح أحدهم، وشكّ عاجز عن الإثبات. لكنه في دهشة الجميع، حوّل جزءا من كراج الشركة إلى استوديو بأحدث المعدّات الموسيقية والتسجيل:

- على الأقل يظلّون أمامي.

ابن ضال عاد إلى حظيرة عطفه عانقه طويلا، بكى أبي أمامنا بحرارة. وما زال عالِم يسأل إن كان لا يمانع زواجه من فتاة بريطانية.

تزوّج عالم مدرّسة موسيقى، هوايتها لم تصل حدّ الشغف، عملت في معاهد مختلفة. ودرّست موسيقى لأولاد الأغنياء. أتعبتها الأحلام بالشهرة بينما بالكاد تقيم أودها، كرهت الزحام في الأندر جراوند، وحفلات موسيقى تحضرها قلّة من المهتمين.

تغاضى فرح أبي عن سنوات أربع تكبر بها عالِم.

مع ولادة طفلهما الأول انفرط عقد فرقة الإينجيلز، وفي فرح ورضا وهب أبي الاستوديو لزوجة عالم، فحوّلته إلى وكالة لبيع الأدوات الموسيقية.

*****

زمان طويل مضى على صورة فتى صغير يحلم أن يكون موسيقيا كبيرا. الموسيقى هواية لم أتصوّر أن عالم سيتركها يوما.. لكنه شغل بالعمل والنجاح ومتجر الأدوات الموسيقية.

صورة ذاك اليوم البعيد ماثلة في الذاكرة، انتصار عالم وهو يقدّم لنا موهبته، في عصر يوم رائق انطلق عزف من طرف الحديقة غمر الدارة. متى رتب عالم لحفل موسيقي؟ ألجمت المفاجأة أمي فتغاضت عمّن ساعده.. شكلّ فرقته الأولى من رفاق الدراسة وأطفال الفلّاحين، حدث ساطع في ذاكرة العائلة، وإن أثر سلبا في شخصية عالِم، صار كتوما لا يفصح عن نواياه أو يتحدّث عن المستقبل.

صدح صولو من جيتار ساحر، تبعه عزف ترائيّ من الدامبورا.. دقائق وتلاحما مع كمان وطبلة. هرولنا إلى حدث تجرّأ على هيبة الدارة، تجمهر العاملون وأبناؤهم، على مقاعد خشبية توزّعت فرقة من الصبيان العازفين في نصف دائرة، أصابعهم تداعب في حدب وهيام أوتار آلاتهم.. عزف ساحر فرض الخشوع والصمت، هلّل المجتمعون وصفّقوا. تطايرت الأسئلة، متى امتلكوا المهارة وأين تمرّنوا؟

لم ينتبه أحد لحضور الشريفة مع نعمة.. استمرّ العمال في التهليل كلما أبدع الصغار، انتهوا فانحنى عالم كمايسترو متمرّس، تبعه العازفون

في تحية الحضور. تجمّد بصره على وجهها، ألجمته مفاجأة حضورها. صفّقت وامتدحت مهارته وقدرة العازفين وصرفتهم بلطف.. احتضنت عالِم وتحسّست الجيتار، هديتها له في عيد الأضحى رغم اعتراض أبي قالت بحنان لا يناسب قرارها:

-تتساقط هوايات الصغار على جنبات الحياة وانشغالاتها. ومثل أي غيلزاني أصيل أمامك الكثير لتنجز. وفي رحلة الحياة السادة يستمعون، يدفعون لمن يسلّي حياتهم أو يطربهم.

منتفخ العينين خرج من غرفتها. ظلت صينيّة العشاء عند بابه المغلق حتى الصباح، ونام الجيتار فوق دولابها حتى يوم الرحيل.

- العلم ثم العمل وتقلبات البلاد ستشغله عن العزف، لا مكان للموسيقى مع عواصف التشدّد والصراعات، مناخ الموسيقى هدوء وأمان لتحلّق الأرواح وتسمو وتبتكر. كثير من المواهب في العالم بدّدتها الحروب، ضاعت في الصراع مع الحياة. مهما كانت قسوة التجربة ستنسيه الحياة هواية لا مناخ لها هنا. انظروا إليّ، توقّعت المدرّسة أن أكون العازفة الأولى في البلاد. الآن أحسّ البيانو يناديني ولا أجد الوقت.

مدرّسة إنجليزية عملت سنوات في المعهد الموسيقي في كابول علّمَت أمّي العزف في المنزل، توقّفت الدروس حين عادت المدرّسة إلى بلادها، طفلة ألحقها والدها بدورتين مسائيتين في المعهد القريب من منزل العائلة. علّقت شهادة التفوّق في العزف خلف البيانو الفاخر في

إطار مذهّب. نسيت مفاتيحه مرور أصابعها في انشغالها بدور الشريفة والتنقّل بين الريف والعاصمة.

لم تغب المعلّمة الإنجليزية عن ذاكرة أمّي، بحثت عنها في لندن دون جدوى.

وحيدا تصدّر البيانو الصالة الكبرى في بيت كابول وصل مع جهاز عرسها. وفي حفلات أبي الكبرى وفي مرّات نادرة عزفت أمّي مقطوعات كلاسيكية عالمية للضيوف من الدبلوماسيين ورجال أعمال أجانب. نالت إعجابهم وتأكيدهم على تميّز طبقتها وتحضّرها.

موسيقى التراث وآلاتها البسيطة فرح الناس في القرى حولنا. صادق الناي لياليهم، وظلت الدامبورا وسيلة أفراحهم.

- الشرق كلّه مفتون بالعزف الوتري، تعدّدت أسماء آلاته وأعداد أوتارها، البزق والربابة والقانون والجيتار، وظل العود أقدمها، بدأ بأربعة أوتار حتى أضاف زرياب الوتر الخامس، وعرفت آلة الطنبورة في حضارات ما بين النهرين ووجدت في آثار ضفاف النيل، كانت بوترين وأحيانا ثلاثة، تميّزت بعنقها الطويل، ومنها انتقلت إلى خراسان وجوارها، وصارت الديمبورا جزءا من تراث بلادكم.

أذهلني استعدادك لدرس الموسيقى أصغت إليه أمّي بانبهار. كنت دائما حاضرا حولها مستعدّا لما يرضيها.

قالت: الموسيقار عندكم يحضن عوده بلهفة العاشق، رأيت هذا على التلفزيون، بينما يحافظ عازف الدامبورا على مسافة مع آلته لأنها ترتكز على الأرض ولا تلامس جسده، عنقها الطويل يحول دون

احتضانها، فتقبض يد العازف على روحها كأنما تعتصر أصابعه أو ريشته الألحان رغما، لكنّ الموسيقى واحدة، تسمو بالروح، سواء انبعثت من حضن محبّ أو من أصابع عاشق لا يجرؤ على احتضان آلته، أنامل كل منهما تداعب المفاتيح بوَلَهٍ، مثلما تنقر الأيدي الدفوف وطبلات المنشدين في الموالد، تسمو الموسيقى بالروح ما دام اللحن يرغم الأجساد على التمايل، والأرواح على التحليق، طربا، أو وجدا.

حديثكما الدائم عن الموسيقى كان سببا في هديّة منك لها لم تتوقّعها، وإن أثّرت في وجدانها، شريط ابتهالات الشيخ النقشبندي الصوفي.

شدّد أبي قبضته على يدها والتقت نظراتهما كلّما وصل الشيخ بقوله:

مهما لَقيتُ من الدُنيا وعَارِضها

فَأنتَ لي شغلٌ عمّا يَرى جَسدي

حنين أمّي إلى الموالد مثل مطر لندن، ينجلي ثم ينهمر مدرارا.

لحظات كثيرة، وأنا بين نوم وصحو بعد جرعة العلاج. وعواصف المعدة عاتية تقاوم إفراغ ما فيها، ولا رغبة سوى الغياب في الهدوء بلا ألم... خذلني الجسد، هزمه الدواء بدوار حائر بين صحو ونوم، إغفاء طويل يشتهي الارتماء في حضن الهدوء، لا صوت أو حركة تسحبك من قعر الوهن إلى مزيد منه، لا غطاء ولا طعام.. لحظات ضياع كثيرة سحبتني إلى ذاك البعيد، علت دفوف المنشدين حول المسجد الأزرق، قاومت ضعفي.. أسندت وهن الروح والجسد على الجدار.

وقفت.. بخطوات ضعفي درت.. أناشيد وابتهالات لا يسمعها غيري، ازدادت عنفا، ارتفعتُ مع تنورة المولوية، ترنّحت، أسندني طرف السرير، رأيت ذاتي في المرآة، ولم أكن أشبهني، بدأت أربط شرائط القماش الخضراء على قضبان الضريح وأدعو لي ولمنار، أطوف حول الضريح وأبكي وما زلت الفّ حول نفسي.. وقعت...

دموع منار أيقظتني، قبّلت خدّي وهمست:

- عودي إليه ما دمت تحبينه إلى حدّ أن تهجري الحياة بسببه.

مزّقني حزنها، قاومت التقيؤ بالدواء، والبوح بالصمت. حميت منار من أن تعرف.

لحظات كثيرة راودتني الحياة على البقاء فيها او الانتهاء، قاومت الانتهاء.

الاحتفاظ بسر كبير جهاد مع النفس، البوح قادر والكتمان متعب. كثيرا فكّرت في مصارحتكما معا لترعاها أكثر. عجزت. لهذا قرّرت الكتابة. قد تجدان مع المخطوطة أوراقا كثيرة تثبت ما حدث حول الشركة.

لا هدف من الكتابة سوى إزاحة ثقل الأسرار عن صدري.. التدوين اختباء في المتاريس. والبوح إفراغ ألم.. أكتب لتعرف منار أنني اختزلت الحياة في البقاء من أجلها وأقبل المصير بعد الاطمئنان عليها.

كثيرا في معركتي مع المرض راودتني صور النساء حول مقام الإمام في المسجد الأزرق، ساطع في الذاكرة ذاك الحضور الخاشع، جاثيات بالرجاء والدموع.. أي الأماني طفن بها حول الضريح؟ وأيّها

انفلت من قيود الشرائط الخضراء إلى العليّ القدير بشفاعة من رضي الله عنه؟ وأيّ طلبات الخوف والحاجة تحقّقت؟

هل كان بينهن من طلبت ما أريد؟ الشفاء والاطمئنان على الابنة؟ وهل خذلتها السماء أم استجابت؟

لم تعرفي يا منار أنني هُزِمْت في كلّ مرة تناولت فيها الجرعة، قاومت واستعدت ذاتي دون أن أعرف أين يتربّص عدوّي بي.

عمّان أغدقت بكرم على ما قمت به وحدي.. التفاف الأصدقاء حولي لأستعيد الشركة كان سندا وعونا، عمّان رغم حرصها تفتح ذراعيها لمن يحبها. كأنما حجارتها البيضاء خلقت لتضم الغرباء. لا سعادة تشبه ما أحسّه وأنت تصمّمين الحقائب والثياب والشالات والحياكات التقليدية من الذاكرة فتلقى الإقبال إعجابا لا مجاملة. موهبة فريدة صقلها التخصص والدراسة. حتى الدورات المكثّفة في التصميم التي التحقت أنا بها شذّبت ذوقي وإحساسي بالألوان والتراث الشرقي تحديدا.. كثيرة كانت ميول الطفولة، رسمت وخربشت على كلّ شيء، عشقت الألوان في التصاميم الشرقية التقليدية فتميّزت أعمالنا.

بين جرعة وأخرى أسابيع أغازل فيها الألوان، إرادة؟ لا أدري؟ أمور كثيرة كادت أن توقف حياتي، إحداها صدمة ضياع المشروع، وتخلّي عزرا عنه.

علاج الخوف أن تتعلم إهماله. أن تتوهّم الانتصار بينما ينهش جسدك المخدّر والألم، أن تستبدل سوء الطالع بالرضى، وقلّة الحيلة بالإيمان بالقدر. أن تعتاد خوفك فيصير جزءا من يومك لكنه لا يعنيك. شعور غريب ملك أيامي، أنا فوق موجة، تائهة بلا وجهة، قارب يهتزّ.

سادرة إلى حيث لا أعرف، أحاول إيقاف جريانه فتسحبني أمواج لا تتوقّف وإلى حيث لا أعلم.

فردوس سكنت الإنترنت. حاربت عنّي فيه.. عشرات التجارب والنصائح أغرقتني بها، تنهل من فضاء مفتوح. محيّر امتزاج الخيال بالواقع والتجارة بأمراض الناس وآلامهم ومعلومات بلا تأكيد علمي... غيّرت نصائحها بعضا من حياتي. تركت كثيرا مما أحبّ، فخذلتنا الفحوص الطبيّة وجسدي.

أثار الطبيب حفيظتي: لا بحوث تؤكّد علاقة الأطعمة بالعلاج. أنا رئيس مركز الأبحاث في مركز الحسين للسرطان وعلى تواصل دائم مع اشهر مراكز البحوث في العالم وبيننا تعاون مستمر. لا علاقة للأطعمة بالعلاج.

ولا يدري الطبيب أنني أريد الأمل. أحلم بسلاح يقهر المرض وإن كان وهما.. يقسو العلم على المريض حين يجلو الأمل فيصدمه الواقع.

- اسمعوا المرضى؟ اتركوهم يجرّبون.

تركني الطبيب لما أريد.

قالت فردوس: بعد الاطلاع على التقارير الطبيّة في أكبر المراكز العالمية لم يشر أي منها إلى غير العلاج. ربما قسوت عليك.

رغم ذلك استمرّ امتناعي عن اللحوم والسّكر والبروتين. أراحني اعتقاد من حولي أنني أتّبع حميّة قاسية لقوام رشيق.

نصائح فردوس ناقوس يدفع ضعفي إلى ساحة الملاكمة ويطالبني بأن أنتصر، وأنا واهنة ولا أريد.

لا يدرك الناس أن سؤالهم لمريض السرطان ليس كالسؤال عن أي مرض، ربما كان ما يعاني الآخرون أكثر خطورة وأشدّ فتكا، لكن السؤال عن السرطان إيحاء بمعركة محسومة لصالح المعتدي.

أخفيت إصابتي خوف الأسئلة.. يتشابه المرضى في اختلاف الأماكن والثقافات، تركت مستشفى شارينج كروس للسرطان في لندن إلى العلاج في مركز الحسين في عمّان بعد رحيل أمّي.

في قاعات انتظار المرضى لمواعيدهم اختلفت الألوان والأزياء واللغة بين عمّان ولندن، لكنّ وجوه المرضى في قاعات الانتظار واحدة، تتوارى وراء صمتها، كأنها تقول لست هنا، لا تراني أو تعرفني، ولا أريد أن أراك أو أن أعرفك. أرواح مستسلمة صامتة. همموم تنغرس في شاشات الموبايل. إنكار جماعي للوجود في مكان موسوم بالنهاية. لا حديث. كلّ ينهي العلاج ويهرب ممّا يذكره بحاله.

أتّبع علاج الطبيب وأحارب بطريقتي. أرفض محاولات إقناعي بممارسة اليوغا. لم أعتقد يوما أنها سلام لروح متعبة. أنّ العلاج في إرغام النفس على الهدوء بينما أنا هدير بحر. أن أكافح لأصطاد الهدوء وأعبر بالصمت زوابع نفسي الهائجة.

اخترت موسيقى جاز من اليوتيوب. ساقايّ تعلنان رفضي، أدقّ الأرض بعجزي. أضرب البلاط بصراخ القهر، تمايل جسدي واحتجّ،

قاومت الوهن بالعنف.. أقوى وأسرع، وقعت على السرير.. أطلّ وجه منار محشورا بين دفتي الباب تبكي:

-. لا تكابري أكثر. الزار لن يخرج عفريت أبي من جسدك.

وحزني أكبر من رغبة البوح.

سرّ بحجم أن العمر يتسرّب من يدي ولا حول لي زاد توتّري. أسابق لأنهض بالشركة. صديقك جمعة ظلّ لطيفا، لكن لا مصلحة له في توفير الدعم لمشروع بدّده صاحبه.

يعرف رأس المال متى يهجم ومتى ينسحب.

رحيل أمّي دون أن تعرف بمرضي أشعرني باليتم. مرّات منعت نفسي من الارتماء في حضنها بينما تجاهد لتتنفّس بالأجهزة. أشفقت عليها بعد خيبتها من انفصالنا وفي حكمها عليك، كأنما رفضت الاعتراف دافعت عنك حتى لحظاتها الأخيرة، بل برّرَت إدمانك على المقامرة، ونصحتني بالصبر:

- يمكن أن يعالج بالحرمان من اللعب، خسارة المال تعوّض، الحب لا يأتي دائما. ومنار تستحق التضحية.

اندفعت إلى الحب بعواطفي، ودلفت أنت بخطوات محسوبة، بمنطق الربح والخسارة..

لم تعرف أمّي أن اختلاف الأرواح فراق، أنك نسلت خيط الحب فأدمى فؤادي. وتبدّد الهوى في أنانيّة طاغية.

ما كان لها أن تحتمل مرضي.

أجدت دورك في اصطياد الإعجاب بالذكاء وسعة الاطلاع.

- الطريق إلى البنت قلب أمّها... ولوّحت بهدية صغيرة وضحكْتَ.

غيوم فرح هطلت من عينيها.. أنصتت جوارحها لما قلت عن شريط الشيخ سيّد النقشبندي المصري. حدّثتها عن ملحّن عبقري شاب لحّن للحب أروع ما غنى مطربو عصره. ثم طلب رئيس الدولة أن يلحن ابتهالا، فكانت تلك التحفة الفنية.

يغيب الواقع حين يطغى الخيال. حلّقَتْ أمّي مع الشريط في تهدّج لا سبيل للعودة منه.

يد أبي فوق يدها. أعاد وأرجع الشريط وأعاد.. مالت يمينا ويسارا، حفظت مولاي وبعض الكلمات.

مولاي إنني ببابك قد بسطت يدي

من لي ألوذ به إلاّك يا سندي؟

أقُومُ بالليّل والأسحارُ سَاهيةً

أدّعُو وهَمسُ دعائي بالدُموُع نَدي

مسح على يدها بكل الحب. تلاقت نظراتهما حين وصل الصوت الساحر:

مهما لَقيتُ من الدُنيا وعَارِضها

فأنت لي شغل عمّا يرى جسدي

تحلو مرارة عيش في رضاك وما

أطيق سُخطا على عيش من الرّغد

من لي سواك؟

ومن سواك يرى قلبي ويسمعه

كل الخلائق ظلّ في يد الصمد

أدعوك يا رب فاغفر زلّتي كرما

واجعل شفيع دعائي حسن معتقدي

وانظر لحالي في خوف وفي طمع

هل يرحم العبد بعد الله من أحد

لم تخرج من حالة الوجد. عيناها في وجه أبي ردّدت مع الشيخ 'مولاي' حتى توقّف.

والذكريات بحور جدّفت فيها وابتعدت بعد أن صار الابتهال جزءا من يومها.

أحاديثك عن الصوفية أثار اهتمامها. تلميذ مجتهد قدّمت بحوثك فأسعدتها وأدهشتني:

- انتشرت الصوفية في بلادي منذ عصورها الأولى، مرّ كبار شيوخها بالقدس إلى بلدان أخرى طلبا للعلم، أو تقرّبا من شيوخ كبار، وأئمة سبقوهم إلى أمصار صارت ديارهم، عاشوا بعض الوقت في القدس والخليل، فصارت المدينتان مركزين لفرق صوفية حملت أسماء كبار شيوخ الصوفية وحتى اليوم. الأحمدية إرث للشيخ أحمد البدويّ، عرفته القدس قبل العراق بسنوات لكنّه قرّر الرحيل إلى علماء

العراق وشيوخها وقضى عمره هناك.. أما الشاذلية الدسوقية فإرث تركي دخلت بلادي مع حكم العثمانيين الطويل لبلاد الشام.. وازدهرت في القدس الأكبرية نسبة إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وانتشرت في أرجاء فلسطين، سكن ابن عربي القدس سنوات قبل أن يقرّر الرحيل إلى دمشق.. وما زالت عائلات كبيرة في الخليل تتبع الصوفية وتمارس شعائرها علنا أو سرّا، وحول المسجد الإبراهيمي زوايا كثيرة، للجعبرية والأدهمية والشريف والجيلاني. وما زالت آثار الزوايا والخانقاه في حارات البلدة القديمة داخل سور القدس تؤكد على أن الصوفية لعبت دورها في حياة الناس. أمّا في باحة المسجد الأقصى فهناك زاوية "النصرية" وخانقاه الفخرية، وزاوية "البخارية" النقشبندية.

أثرت اهتمامها حين توقّفت وابتسمت:

- ومن طرائف ما يتداوله أهل القدس عن زاوية البخارية، وبخارى اسم بلادكم القديم أن من أنشأ زاويتهم في رملة بيت المقدس أمير نصراني أعجب بموالد البخارية ولازم أذكارهم، ولشدّة انبهاره بهم منحهم قطعة الأرض، وأمر ببناء زاويتهم من حسابه الخاص. والله أعلم.

ابتسمَتْ ولم تعلّق.

يتصوّر الحبّ أوهامه حقيقة، يُلبسها ثوب رجائه، تخيّلتك تتقرّب إليها من أجلي.

قالت لأبي بعد خروجك: يشبهنا. مثقف وحسّاس وسيسعد ابنتنا.

لكلٍّ منّا وجه يخفيه، ولم أكن أعلم أيّ الوجوه يستره تحضّرك المبذول للآخرين.

ابتهال الشيخ النقشبندي صار دعائي أيضا في مواجهة المرض والسلوى في ألمي. تمايلت ودعوت وصلّيت.. كان الله قريبا ويستمع.

*****

بين خيبة الأمل وأحلام أبي في أن يكون والدا لمهندسين، تابع تحصيلي العلمي بتزمّت، فخورا بابنة متفوّقة عارض اختياري للطب النفسي فأرضيته. تخصّصت في الأمراض الجلدية. قال: تكثر الحساسية في بلاد الشمس والتعرّق، ومناطق الشتاءات الطويلة والربيع المزهر والأعشاب. الطب النفسي سيكون مجزيا لو قدّر لنا أن نعود، شعب يتقاتل بلا توقّف يحتاج كله إلى علاج نفسي.

ضحكت أمي: لن تنافس المشعوذين والدجّالين وكتّاب الأحجبة، وبداية لن يعترف أي من الرجال بامرأة تعالجهم. ومما؟ من الجنون والوحشية وامتهان النساء؟

بتوصية من أبراهام وسارة عملت مع مستر جونسون أشهر أطباء الجلد في هارلي ستريت. نسيب لهما فبدأ قدرنا.

مُهاب تخرّج من كليّة إدارة الأعمال. تبرّعات والدي السخية لكليّته دعمت استمرار دراسته رغم تحصيله المتوسط، لكنْ حين عمل في الشركة أذهل الجميع، دفعها إلى آفاق أرحب، وحقّق أرباحا خياليّة قبل أن يستقلّ بمشاريعه الخاصّة.

- ما زالت فكرتنا عن التفوّق الدراسي تقليدية، النجاح الأكاديمي ليس مؤشرا على التفوّق العملي. اعترف أبي.. أكمل:

- كثير من أحفاد من غيّروا أقدار شعوبهم، ورسموا حياة أوطانهم ابتعدوا عن السياسة وصاروا رجال أعمال بارزين. وربما كان مُهاب محظوظا بفرصته في شركتنا فظهر إبداعه وتميّزه.

مُهاب لم يهتم بالسياسة، امتلك مع عزرا محلاً لأفخر الأثاث الإيطالي، وآخر للتحف الفرنسية النادرة في منطقة بارك لين، ثم أسسا شركة للعقارات.

تزوّج مهاب الحفيدة الرابعة للملك ظاهر شاه.

لا أذكر أبي سعيدا كما في زفاف مهاب الباذخ، كمن استعاد ديارا مسلوبة، أو عاد إلى وطن اقتلع منه عنوة استقبل ضيوف الحفل.

تصير الغربة أوطانا في القدرة على البذخ، والمغالاة في مظاهر الترف عنوانا للمكانة والهيبة أمام زعماء القبائل وكبار العسكريين وأصدقاء عائلة الملك ظاهر شاه. كانت محاولة لإقناع الذات والآخرين بأن البلاد إذا لفظت نخبها، تخسرهم ولا يخسرون.

حفلات الزواج لأحفاد الملكيات الضائعة، والعروش المتهاوية استعادة لأضواء تشتريها ثرواتهم إلى حين، استرجاع للأمجاد ولو في ليلة مكلفة.

تعشش السلطة في عقل من فقدها وتركت له المال. يعوّض ضياعها بالسطوة على العاملين معه، لا شيء يداني سطوة الحكم.

زوجة مهاب حفظت مسافة الارستقراطية الملكية مع من حولها. لم يغب عن تصرّفها يوما أن والدي كان موظفا عند جدّها. وأنه أحد

مستشارين كثر في بلاطه. سيدة أعمال ناجحة، اتكأت على سموّ منبتها، وكوّنت ثروة خيالية في شبابها المبكّر.

في معرض نابولي السنويّ في إيطاليا التقت مهاب صدفة.. في أشهر بوتيك للشراشف وأغطية الأسرّة بتوقيع أكبر مصمّمي إيطاليا ولد الحب، حملت المنتجات إلى فروع أنشأتها في دول الخليج فازدهرت تجارتها في بلاد الثراء والوفرة.

أدرك المصمّم أن غرف النوم الباذخة أوكار للذة الدائمة، وتغيير الألوان وتناسقها اصطياد للرغبة. الملمس الناعم يدعم السطوة والامتلاك، ازدهرت تجارة أغلى مستلزمات غرف النوم مع تنامي الثروة والخوف من ملل أزواج قادرين.

حفلات الأغنياء مؤتمرات تسويق وصفقات أتقن مهاب لعبتها... كبيرة وباذخة في حديقة قصره الريفي في سيري من ضواحي لندن، اشتراه وأعاد ترميمه. مروج ممتدة، وبرك صغيرة للبط، وحمّام سباحة. اقتناه في صفقة مربحة يوم باع بعض الإنجليز قصور أسلافهم للأغنياء الجدد من أنحاء العالم.

مهاب أثرى سريعا، أثبت أنه رجل أعمال من طراز فريد، شعاره مقولة لأوناسيس الملياردير اليوناني، أعجبته وظلّ يفسّر نجاحه السريع بترددها وإن لم تنطبق على حاله، "لا تسألني كيف جمعت المليون الأول، بل اسأل كيف بنيت ثروتي بعده، ويضيف ضاحكا، "البدايات وحدها تفرض التنازل".. مخالفة المبادىء والتغاضي من أجل الوصول إلى المليون الأول، لكنّه يعبّد طريق النجاح، ومثل المغناطيس يجذب الملايين

الأخرى. والثروة تفتح الأبواب جميعها. الملياردير اليوناني كسر بثروته حدود الأصل وحواجز المنبت، كهلا تزوّج امرأة شغلت العالم، جاكلين كنيدي.

هنا كان يبتسم مُهاب ويستدرك:

- أوناسيس تبهدل في بداياته، أما أنا، بارك الله في أرسلان الغلزاني وحماه، نصف المليون جنّبني ما يمكن أن أخجل منه أو أخفيه، لم أغسل أرضيات السفن، ولا الصحون في مطعم. لكن... التجارة عقل وصبر ومغامرة.

تغدق لندن بغير حساب لمن يبدأ فيها كبيرا.

*****

الدارة قبل انطلاق حجّ أمّي إلى مزار شريف خليّة نحل. أفواج المودّعات من الصديقات لم تعطّل تحضير الموكب. أمّي في صدر مجلسها، ثوبها وردي بتوقيع مصمّم عالمي هديّة أبي من لندن. النساء في ثياب عصريّة، وحدهن العاملات خدمن الجميع في اللباس التقليدي، درن بأكواب العصائر وأطباق الحلوى... والبخور دائما ختام.

نساء الذاكرة لا يشبهن الأشباح السوداء في نشرات الأخبار. لا براقع ولا عيون زائغة بخوفها. بل ثقة وأناقة وعلم.

أزمات الأوطان تضيّع النساء، يصرن عنوانا لدمارها.

قبل أن يهتزّ عالمنا أقعيت في حضن أمّي، كان دافئا، السيارة لم تتوقف عن الاهتزاز. دفنت رأسي في امتزاج رائحة لا تتغيّر، الياسمين والبخور والعود.

قالت تعقيبا على تقرير مصوّر، ورّشّت بعض عطرها:

- اجتزأوا الحديث "حبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب". حرّموا العطور وجرّوا النساء إلى الكهوف ينتظرون أنهار المسك والعنبر في جنّة يقتلون ليدخلوها.... الحمد لله أننا نجونا.

تشابه السواد لفّ النساء وانكسارها، أبحث تحت البراقع عن وجوه ربما دلّني الشادور عليها، لعلّ إشارة تكشف صديقة طفولة. توحّد الأسى في عيون مقهورة، زائغة بخوفها ولا اختلاف.

حجّ سارة إلى الكنيس اليهودي ظلّ جزءا من حجّ أمّي السنوي وحتى هربت وزوجها من البلاد، زرنا كابول لتقديم نذورها للملاّ بنيامين، الحاخام الأكبر وحارس الكنيس.

دار كابول كبيرة ورثها أبي عن جدّه، شهدت صعود العائلة السياسي وتنامي نفوذها، تتوسّط حديقة واسعة، قريب من مدخلها بيت ضيافة، في مقابله عند الطرف الآخر غرف صغيرة للعاملين. عاش فيها مهاب وفردوس سنوات. درست فردوس سنوات قليلة في المدرسة الإنجليزية، أرقى مدارس كابول للبنات.

- الفنون والأتيكيت قبل التعليم... أصرّت أمّي.

لم يحتمل صدر أمّي مدينة مزدحمة بروائحها، أعجزت حساسية غريبة الأطباء وهي تسعل حدّ الاختناق:

- لا بد من بيئة نظيفة، لا مازوت ولا غبار. قرّر الأطباء.

إلى الدارة عدنا.. عالِم وأنا في مدرسة قريبة، وتركنا فردوس ومُهاب في كابول مع أبي وخادمتين. صار حلمنا العطلة الصيفيّة لنجتمع.

مهاب كان وسيلة أمي لتعرف ما يدور في غيابها، وما يقال في مجلس أبي، محيّر مُهاب، مهووس بأخبار الآخرين، لكنه كتاب مغلق، لا يسمح لأحد أن يتجاوز حدودا وضعها مع الآخرين، ولا يعرف الناس عنه غير ما يريد.

تكبرني فردوس بسبع سنوات. مدّة طويلة جعلتني أصدّق ما سمعت صدفة ذات يوم بعيد، وحفر في النفس جرحا عميقا.

تلصّصت على مجلس أمّي من خلف باب الصالون، عادة تخلّصت منها في هجرة لا تحتمل مجالس النساء الأسبوعية وهدوء الريف، كانت الحكايات موحية بالجنس تثير الابتسام والرغبة الغامضة، السحر والحب والطلاق ومشاكل الحمل وعيون رجال زائغة.

في حادثة نادرة تحدّثت أمّي علانية في خصوصية لم تسمح بالاقتراب منها:

- كنت سأكتفي بثلاثة. حبيبة العين غلطة.

اهتزت حدود الطبقات في مجلسها بخيالات عن ليلة نسيت الشريفة فيها حرصها. وفي ندم على جملة لم تحرص عليها قطّبت وصمتت.. استعادت هيبتها. أمرت الخادمة بالبخور فخرجت الحاضرات.

تلك ليلة سرقت نومي، تصوّرت النساء يروين لأطفالهن قصة طفلة لم ترغب بها أمّها، وعائلة لم تكن تريدها.

مؤلم أن تعرف أن العالم قَبل بك لأنك واقع لا يردّ. غلطة أقحمتك في أسرة اكتفت بثلاثة ولا حاجة إليك. دودة عكّرت هناء أطفال مدلّلين.

سحبتني الدموع إلى غرفتي.

تسلّلت إلى بيوت الفلاحين عصرا لأكتشف إن كان الأطفال قد عرفوا قصتي. تجمهروا في الفضاء أمام بيوتهم الصغيرة، تحلّقوا في هيبة حولي، ما زلت نجمة هبطت من علياء الفارق... لعبنا في صخب.

سألت أمّي عن فارق السنوات بيني وعالِم. وضع أبي الصحيفة، خلع نظارته في دهشة، ابتسم مُهاب، غمزتني فردوس ومدّت لي لسانها.

أمّي ابتسمت وقالت:

- أحيانا تحدث أشياء عن غير قصد.

ضحكت فردوس، مشى أبي نحوي، رفعني، قبّل رأسي وحملني إلى سريري مع دموعي.

*****

صغيرة لم يتوقف خلافي مع فردوس. على كلّ شيء. بدأت العراك دائما، ربما الغيرة من جمالها، أو حسد الصغار على أن تكون ذاتها ببساطة، وأنا تائهة لا أعرف ماذا عليّ أن أكون، راضية عن نفسها وما حقّقت، والرضى سلام، وتسلّقْتُ أوهامي إلى مكانة وشهرة لم

أحقّق منها ما أريد. كرهت قلقي فهربت إلى من يعترف بتميّزي وتمرّدي، لا مكان لي مثلها في مجالس أمّي ولا حصة من إعجاب النساء بصبية جميلة، هادئة تتشبّه بالشريفة في كلّ شيء.

الحسد بداية التمرّد، إعجابي بها حائر بين كره وغبطة. لم أطمع يوما إلى ما سعت إليه لكنّه أربكني. تهتزّ الثقة أمام شخص يمضي إلى ما يريد واثقا، ليس المهم أن يكون الهدف كبيرا، الأهم أن الطريق إلى تحقيقه مستقيم وواضح.

صغارا لم نتوقف عن الاختلاف، وكبرنا صديقتين رغم تباين الاهتمام والطموح والعمر. تعترف الطفولة بفارق السنوات، ويختزل الشباب فوارق الوعي وسنوات العمر فيتقارب الاهتمام.

طويلا احتفظت بذاك الكتاب تمزّق في إحدى المعارك مع فردوس، ذرفنا الدموع وارتفع الصراخ. تركت الكتاب حين قال أبي: لكلٍّ منكم حقيبة. لن نلفت نظرهم إلى أنه هروب.

المفاضلة بين أشياء أثيرة في لحظة فقدانها تزلزل الروح. تسلمك للحيرة ثم الندم على ما أضعت.

مثل قاض لا يرحم حكمت الحقائب خياراتنا، تناثرت أشياؤنا فملأت الغرف. نهرنا أبي لنسرع، أخرج كتب الأطفال من حقيبتي:

- لا حاجة لحملها، نشتريها حين نصل.

قلّب خربشات العبث، بقايا زيوت وطعام شوّهت الصفحات.. توقّف مع كتاب الديناصورات الممزّق، من بين صفحاته أطلّت حيوانات الغابة، عرجاء أو مقطوعة الذيل، عجزت المجسّمات عن بناء

الغابة في محاولاته.. لا مجال للوم في خسارة الدارة وكنوزها، ألقى الكتاب في صمت.

ماذا فعلت طالبان بالكتب والمجسّمات المصوّرة وغيرها؟

كان كتاب الغابة العجيبة فرح... أحضره أبي من لندن لنتشارك فيه، ونحفظ أسماء الحيوانات.. أصرّت فردوس أن تبدأ، وفي الشد والجذب برزت مجسمات الغابة، مالت أشجارها وتكسّرت، وصرعى سقطت حيواناتها.

بكينا معا، أصرّت أنني صغيرة على فهم القصة، وستقرأها لي:

كتب المجسمات آنذاك بديل عن أفلام الكرتون... تشاجرنا وكل تشدّ الكتاب فتناثرت أعضاء الحيوانات الملوّنة.

صرخت فردوس فجأة:

- ليت أمّي لم تغلط وتأتي بك.

تركت الكتاب الممزّق، مرّغت رفضي على السجّادة. بكيت طويلا وصرخت حتى اختنق حلقي بلوزتيّ.

أجلستني أمّي في حجرها ونادت إخوتي:

- لن أسمح بهذا؟ من قال إننا لم نرد حبيبة العين طفلتنا الحبيبة، حتى أنتم حملت بكم جميعا دون أن أعرف، ثلاثتكم جئتم بلا تخطيط، وأشكر نعمة الله عليكم وعلى هذه الطفلة الجميلة.

صدرها الدافىء واحة أمان، تنشّقت عطرها. ودموع فردوس سبقتها إلى غرفتها. مهاب لم ينطق، انسحب إلى غرفته، وحده عالِم مسح على شعري وابتسم في حب.

حين ألقى الطبيب بالحكم في وجهي بحيادية وبرود معلنا أن المرض في الدرجة الرابعة لكن يبقى الأمل صرخت فردوس. انهارت بعويل حزين لا يشبه صراخ الخلافات الصغيرة هناك.

كثيرة كانت الكتب الملوّنة بالإنجليزية أحضرها أبي من لندن، مجسّمات لحكايات شهيرة، قطر الندى والأقزام السبعة، وليلى الحمراء، أثارت معارك كما لحظات جميلة، تركناها لمصيرها ليلة الهروب.

*****

أحاديثك الطويلة عن الأنساب مع أمّي أزعجت والدي:

- الاتّكاء على الأنساب إحساس باهتزاز المكان. بحْثٌ عن رافعة للعجز عن تحقيق الأحلام.

لا قيمة للتاريخ والأسلاف إذا تشابكت الأعراق في بلدان كبرى فتحت أبوابها للتعدّدية.. تضيق الادّعاءات في محيط المعارف، وحتى القلّة لن تكلّف نفسها البحث عمّا في ماضٍ لا يعنيها، المقياس ما يحقّق الناس في بلدان هاجروا إليها.

أبي طوى صفحة الماضي، تابع أخبار انضمام بعض قبائل البشتون إلى صفوف المجاهدين بحسرة العاجز.

- لا زعامة لأحد في الفوضى. كلٌّ مسؤول عن قراره... في مرارة قال.

صغيرة لم أدرك خيبته، ولا أثر الخلاف العاصف مع زعماء البشتون حول البحث في الأصل اليهودي.. توقّف عن متابعة تقرير حول انضمام شبابهم إلى طالبان. ويده على صدره لحقت به أمّي إلى غرفته.

متناثرا مثل وطن بعيد صحا في يومه التالي.

الخلاف مع زعماء القبائل حسرة لم يستطع أبي تجاوزها، أدرك أن الزعامة القبلية فقدت تأثيرها لصالح الزعامة الدينية، وأن شباب البشتون تفرّقوا حسب أهوائهم. انقسمت العائلة الواحدة، وخسرت قبيلة الغيلزاي معركتها مع معظمهم.

لم يقترب أبي في أحاديثه الطويلة معك من تلك الواقعة رغم رأيه في دور الوكالة اليهودية في بلادنا وبلادك. لكن تعاملك مع سارة في لقائكما الأول أزعجه مثل أمّي:

- كان عليه أن يكون أكثر لطفا. سارة اختارت لندن ولم تذهب إلى بلاده. صحيح أن الخلافات على الأرض قضية أفراد قبل الحكومات، فهي تمسّ الحق الشخصي في الوطن والاعتداء على الحياة، لكني أوافق على أن علاقتنا بأبراهام وسارة ليست مجالا للمساومة، ولا شأن له بها.

الواقعة التي قسمت البشتون بدأت بأخبار في الصحف البريطانية قبل هجرتنا بسنوات. بعثة علْمية ستتوجّه إلى البلاد للبحث عن أدلّة

تثبت أن أصول البشتون من أسباط بني إسرائيل كما جاء في كتب بعض علماء الأنساب والتاريخ، بأن بعض اليهود ممن سباهم نبوخذ نصّر إلى العراق هربوا إلى بلاد فارس المجاورة بحثا عن الحريّة، وحين واجهوا الاضطهاد في إيران والتمييز الديني والعرقي فرّوا إلى ديار الاعتدال والصوفية المجاورة، خراسان، وعاشوا في حماها. اطمأنوا لقبائل صوفية قبلت اختلاف الغريب، فالرزق من الله، ويتّسع لعبيده جميعا. وفي رواية تحتاج الإثبات أنهم تملّكوا واغتنوا وصاهروا أهل البلاد وكانت قبائل البشتون.

حكاية احتاجت في الضجة التي أثيرت حولها إلى بحوث علماء الآثار، والأدلّة من الخرائب، ودروب أخرى قالت الكتب سار اليهود عليها.

- الوكالة اليهودية هجّرت اليهود الأفغان من البلاد بعد احتلال القدس عام ثمانية وأربعين من القرن العشرين، خشيت من تصاعد الشعور الديني ضدّهم، أما بعد احتلال باقي القدس عام سبعة وستين من القرن العشرين وحريق المسجد الأقصى على يد صهيوني متعصب فنسّقت خروج من بقي، ولم يبق في الدّيار سوى حاخام كنيس كابول ومساعده لحماية المعبد. نقلت اليهود إلى إسرائيل أو نيويورك دون أن تفكّر بالبشتون، ولم تشر إلى العلاقة معهم، ولو كانوا على يقين من روايتهم لما تركونا، ولا احتاجوا دراسات وتنقيبا في آثار هرات وكابول. ربما احتاجوا مزيدا من العمّال والزراعيين والمهنيين والسكان ليعمّروا بلادا أخذوها من أصحابها وجاؤوا بقصة يحيطها الشك،

والشك شرخ في الاعتقاد لا يمكن تجبيره، سنثير العالم الإسلامي ضدّ البشتون لمجرّد أساطير يهودية لا أساس لها... قال أبي.

الشرخ بين زعماء البشتون لم يلتئم أبدا، تفرّقوا.. قبيلة أبي أعادت انتسابها إلى "الغيلزاي" فخذ كبير من البشتون رفضوا البحث في الأصل اليهودي. لكن بعضهم عمل مع الباحثين والخبراء لإثبات النسب طمعا في الهجرة إلى مكان أكثر أمنا وفرصا، قادوهم في خبايا الطرق، ومعارج الجبال إلى كهوف هرات، إلى الصخور والنقوش، دروب طالما توقّف فيها موكبنا إلى مزار شريف إكراما لسارة.

ساطعة في الذاكرة مدينة هرات، تترى الصور، طافت سارة بين الكنيس الأثري وقبور أولياء اليهود وأضرحة أجدادها بينما نلهو في حدائق هرات، أراجيح وحيوانات أليفة.. حدائق زيّنتها الورود، ورائحة عطرة فاحت فعطّرت الذكرى.. لهونا كثيرا.

بما يشبه اللوم تساءل أبي:

- التوقّف في هرات لم يكن من أجل سارة يا أميرتي؟. ولا يجوز تجبير المدينة لغير أهلها، هرات مدينة المِلَل والتعدّد منذ كانت. سكنها الأولياء والعلماء من فارس وباكستان، قصدها طلاب العلم وعاش فيها كبار المفكّرين وأصحاب الطرق الصوفيّة، جلال الدين الرومي وعبد الله الأنصاري وعبد الرحمن الجامي ثم بير سيف الرحمن وغيرهم، فتعدّدت الملل والطوائف ومنهم اليهود.. لم نعرف التطّرف إلا بعد تدخّل الإنجليز ثم السوفييت.. ولا بد من الاعتراف بأن محاولات الملك أمان الله المتسرّعة لنقل البلاد إلى

المدنية الغربية جوبهت بردّة دينية وفكرية... أحيانا تسبق طموحات التغيير زمانها ومكانها فتنقلب على أهدافها. لم ينتبه مهندسو التحديث إلى العقائد والنسيج الاجتماعي للبلاد ففشلت التجربة وانقلبت تطرّفا.

كثيرا نسي أبي أنه كان مهندسا في محاولة التحديث الفاشلة.. ولم يذكّره أحد منّا، مضى:

- مسألة أخرى شديدة الأهمية فيما وصلنا إليه، أن الحركات الصوفية، خاصة النقشبندية الأكثر انتشارا بين الناس فقدت تأثيرها حين تحالفت مع السنّة المتشددين والرافضين لأفكار غيرهم، ومع وزعماء القبائل والإقطاعيين فأطاحوا بالملك رفضا للتحديث. التحالف الهجين أوصلنا إلى ما نحن فيه، فتح البلاد للأفكار المتزمّتة والغرباء المتشدّدين.

- أنا وسارة تركنا السياسة لأصحابها، لا نناقش تاريخ هرات! لليهود أو لغيرهم. ما كان يهمني أنها مدينة متفرّدة، حلويّات لم تعرف البلاد كلّها مثل طعمها، ولا مذاق فاكهتها، ربما لهذا سكنها الدراويش لخيرها وسماحة أهلها.. النفوس تتأثر بالطبيعة حولها، ترقّ مثلها، تتسامح مع الاختلاف، حول هرات حقول فاكهة لا تنتهي، أجمل الحرير الديباج والمنسوجات النادرة اشتريتها منها، وقضى الأولاد أجمل العطل المدرسيّة بين بساتينها.

لم تكن الرحلة إلى هرات متعة كاملة، جزء منها رحلة خوف وحبس أنفاس. تئنّ السيارات بينما تتسلّق الطريق الملتوي فوق القمم،

بين الأغصان المتدلّية برزت حدقات مستديرة، متوجّسة تابعت مرورنا، نسانيس حائرة استنكرت مرور من تجرّأ على الهدوء في أحراش المطر، وأزعج صمت الجبال البكر، قرفصت أمهات النسانيس على حواف الطرق. قبلت بوجودنا حين ألقينا لها الموز فتخاطفه صغارها في زقزقة الفرح. توقف السائق، والأنفاس محبوسة عند القمّة، بدت الغيوم قريبة. مددت يدي إلى دنوّها فظلّت بعيدة. مذهل أن تكون فوق العالم، ومخيف الإحساس باحتمال السقوط. ذاك جزء صغير من طريق الحرير الشهير ربط هرات بالهند وإيران وأوروبا.

طرق فرعية كثيرة تشعبت من الطريق المرصوف.. قالت سارة للسائق: خذ الطريق الآخر، هذا ينتهي ببلاد فارس، قطعه أجدادي ذات يوم بعيد.

ضحكت سارة كلّما حاولنا فكّ النقوش من على الصخور، وروت تاريخا لا نعرف.. كلّما وجدنا نقشا سمعنا حكاية جديدة، لكنّ عثورنا على نقش الكفّ المفتوح مزيّنا بكتابة عبرية كان هديّة سارة الأثيرة. مسحت دموعها لتميمة عتيقة.

- الكف المنقوش تميمة تقهر الشرّ وتحفظ من يحملها... قالت سارة وأغرقت بدموعها ماضيا تركه أسلافها على دروب الرحيل.

عجيب بكاء الألم على الفواجع الكبرى رغم آلاف السنين.. تتبرّك بالأضرحة وتقرأ النقوش. وأمّي مثلها تحجّ في قدسية وإيمان لا يتزعزع إلى ضريح اختلفت حوله الروايات منذ أكثر من ألف عام.

- معظم النقوش من مزامير داوود، خاصة المزمور الثالث والعشرين، صلاة الخائف. ردّدته لنا مرارا بالعبرية فلم نفهم.

سحبت الكتاب المقدس من درج الكومودينو في غرفة الفندق فتذكرت مزمور الخوف. قرأت الرب راعيّ فلا يعوزني شيء، في مراع خضر يربضني، وإلى مياه الراحة يوردني، أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً.

سرى الدواء في جسدي إلى حيث لا أعلم، تصوّرت رحلته إلى خلايا خذلتني، عدوّة لي رغم عنايتي بها.. خائفة ردّدت قصار السور، وأعدت تلاوة المزمور.. صورة أبي يداعب أمّي في مزاح أسعدها عن سموات بعدة أبواب ستفتح لها جميعا جزاء رعايتها للملل الأخرى.. قال: الأبواب اختلفت بملل الأنبياء لكنّهم خرجوا من لدن ربّ واحد.

حملْتُ مزمور الخوف وقصار السور إلى أجهزة الأشعة التشخيصية، التصوير الطبقي ثم جهاز أم آر أي للتصوير بالرنين المغناطيسي. أغمضت عينيّ.. الرؤية تشعل الخيال، توقظ المخاوف.. حين لا ترى لا تعرف.. ومن لا يعرف لا يهاب.. قرأت سور الزلزلة والعصر والناس والفلق.

قال غضب أبي:

مكتبة
t.me/t_pdf

- على من تقرأ سارة مزاميرها؟! مرّ أجدادها ببلادنا صحيح، سكنوها واستفادوا من خيراتها نعم، لكنهم مع بداية المشاكل لم يصمدوا، تركوها كما هربوا من كل مكان سكنوه إذا أحسّوا بالخطر، لم تكن أي بلاد حلّوا فيها وطنا لهم. ظلّوا جاليات مهاجرة منذ سباهم نبوخذ نصّر، وساقهم مقيّدين إلى بابل في العراق وحتى حملتهم الطائرات من أنحاء العالم إلى فلسطين.

رحلة اليهود إلى بلادنا قصة لم تغيّر سارة تفاصيلها، عن تيه شعبها في دروب الخوف إلى هرات، والنقوش الآرامية والعبرية حفرها حاخاماتهم وفنانون مهرة شواهد على الهروب الجماعي، اقتباسات من مزامير داؤود، حكايات شخصية وصفت الضياع بحثا عن خيبر بلادنا. وكثير من أسماء عائلات وبشر ضاعوا في الزمان والمكان.

لم يتوّقف البشر عن مقاومة الفناء، لم يقبل العقل البشري فكرة المرور العابر في الحياة بلا هدف، آمن أن المعنى الأكبر للحياة هو الخلود، فأتقنوا التحنيط وبنوا الأهرامات والقلاع ونحتوا التماثيل ورسموا الصور.

وفي سعي الإنسان الدائم لاكتشاف عالمه حمل حنينه إلى الأمكنة الماضية، نقل أسماء أماكن عاش فيها إلى أماكن احتلّها أو هاجر إليها، تماما كما حمل أسماء أسلافه من جيل إلى جيل، فضاعت قصص الأجداد وبقيت أسماؤهم، وتشابهت أسماء الأماكن والعائلات في المنافي، زرع المهاجرون أسماء وطن غادروه في أماكن جديدة احتلّوها، طرّزوا أسماء المدن والقرى والأحياء من القارة الأوروبية على أرض أميركا وأستراليا البكر فتشابهت أسماء الماضي والحاضر. جرّد

الأوروبيون أمريكا من قبائلها الأصلية، أبادوهم ثم رفعوا أسماء مدن القارة العجوز على ما اغتصبوا، وأبقوا بعض أسماء مدن وأنهار بلغة أصحابها قبل أن يسوقوهم إلى محميّات العزل.

النقش على الصخور تاريخ سرمدي... ضاعت الكتب أو حرقت، محيت الوثائق أو أتلفت، تظلّ النقوش في الزمان شواهدا.

صدّقنا ما قالت سارة إنه مكتوب على الحجارة. وسارة إن حكت أسرت سامعها، قطوف من التاريخ والطب والموضة، بارعة في إثارة الشفقة على أسلافها. تخيّلنا هروبهم في خطورة الهجرة. سمعنا فزع صغارهم أمام الوحوش وقطّاع الطرق، ارتفع ثغاء قطعانهم في ربيع الجبال بينما نجمع أزهاره، تخيّلنا مغارات خوفهم وكهوفا حمت أغنامهم.

أعادت سارة بعض ما قرأنا في الكتب عن خرافة لم يؤكدها أو ينفها أحد، أنّ اليهود علّموا أسلافنا الرعي في قطعان قبل آلاف السنين. وأنهم أول من ربّى خراف الكاراكول، وتاجر بجلودها الأسترجان وعرّف العالم بها. تخيّلنا قطعان ماعز وأغناما سادرة في الجبال مشاعا لمن يشتهيها حتّى وصل أجداد سارة، ثم قلّدهم أجدادنا وتاجروا بها. وعلى طول طريق الحرير، وما بين المدن القديمة وكابول، سكن التجّار اليهود الصغار والحرفيون في مدينة هرات، وتملّك الأغنياء والملالي بيوتا واسعة ومتاجر كبيرة في العاصمة كابول. اندماج اليهود في مجتمعهم الجديد غيّر بعض عاداتهم ولباسهم، وصار الرابي ملاّ أسوة بالمسلمين.

تزدهر الرواية حين تُزرَع في أرض بكر، وفي غياب من يقدّم نقيضها.

أقنعتنا سارة دائما بفضل قومها على بلادنا.

قالت ببساطة أدهشتنا ودون تعاطف:

- لا طريقة أخرى للحصول على صوف أسترجان ناعم كالحرير إلاّ بإجهاض الحوامل من أغنام الكاراكول، ولو تركت الأجنّة إلى الولادة الطبيعية سننقذ الأم والجنين ونزيد القطعان صحيح، لكننا نخسر التجارة، سيكون صوف المولود قد أخشوشن في بطن أمّه، لا بدّ من التضحية بالأم والجنين إذا أردنا الأسترجان الناعم، وهذا سبب غلائه.

استنكرت أمّي أن تخبرنا بحكايات إجهاض وقتل أقلقت نومنا. وملأت ليلنا بأسئلة الحلال والحرام في قتل الأجنّة والأمّهات.

الآن تعرف أن عدم اقتنائي للأسترجان أو ارتداء الفراء الطبيعي سببه روايات سارة، وحزن طفولتي على حيوانات حملت بتدبير ثم قُتلَت مع أجنّتها بشهوة الثراء.. وحزنت أكثر حين فكرّت بحيوانات أخرى شاردة قتلها الصيّادون طمعا في منحة الله لها، جلود ثمينة، فراء نادر انقلبت وبالا عليه . نصب الصيّادون الشباك وسلخوا جلودها وفراءها، وتباهت نساء العالم بالنادر منه المنك والسمّور والشنشلة.

أمام صورة جدّنا الأكبر في الصالة الكبرى توقّفت طويلا. تأمّلت القلبق الأسترجان على رأسه. فجأة بدأ القلبق ينتفض في وهن. حملا

صغيرا غارقا في دمائه صار، أغرق النهر الأحمر وجه الجدّ. تلقّفني صدر أمّي. سألتها عن وسيلة تحمي خراف الكراكول.

مسحَت شعري وضمّت حيرتي، ولعنت سارة:

- خلق الله الخراف لنأكل لحومها ونستعمل جلودها. تصوّري لو لم يحلّل الله أكلها! ستزاحم البشر على الأرض وتملأ الكون بقطعانها، أما الوحوش المفترسة فستفتك بالناس رغم جمال جلودها وفرائها.

لم أقتنع، تماما كما لم يقنعني إلحاحك بأن أقتني الفراء مثل فردوس،صورة الحّت بتفاصيلها.. الجبال الشاهقة حول الدارة تباهت بتراكم البياض، وعيون السماء لا تتوقف، والأرض طين ووحل، وصرير الريح يعصف بعري أشجار تحلم ببشائر الربيع، عابق مجلس أمّي برائحة الكستناء المشويّة حين سبقت ابتسامة سارة دخولها تحمل هديتين، فرحها أضاء المكان. فتحَت اللفافتين، وشى وجهها بيقين أنها ستسعد الجميع. سحبت معطفين صغيرين من فراء نمور الثلج النادرة، الأبيض الناصع مرقّط بدوائر سوداء لفردوس، وأشهل ذهبي مخطّط بالأسود لي.

دارت فردوس بمعطفها زهوا وفرحا، مرّغت وجهها في نعومة خُلقت لها. ونام المعطف على فراشها.. حاولت سارة أن أجرّب معطفي رفضت وهربت... تخيّلت نمر ثلج صغير ركض خلفي.. ظل المعطف

على المقعد لحقت بي أمّي، وحين لم أقتنع صفقَت الباب وتركتني. صار لفردوس معطفان.

أخذتني أمّي في حضنها قالت: لن تتوازن الطبيعة إن لم يقض الصيادون على الوحوش المفترسة. ستأكل النمور والتماسيح والفهود الناس كما الحيوانات اللطيفة فلماذا لا يستفيدون من فرائها بعد قتلها؟

وحوش البراري أصدقائي رغم خوفي من النمور والأسود الحبيسة في حدائق الحيوانات.. قرأت عن جماعة "السلام الأخضر" جرين بيس Green Peace بعد ظهورها فانضممت إليها، طالبنا بإعادة حيوانات الحدائق إلى بيئتها لتتكاثر هناك وتعيد توازن الطبيعة.

شابة شاركت في مظاهرات حركة" الخضر "أو السلام الأخضر ضد الاعتداء على الطبيعة، وقبل أن تصبح منصات البترول وتلويث البحار والمحيطات هدفنا الثاني.

كثير من الأفكار علمتها لنا غربة متحضّرة في شوارع لندن، توقفت مظاهراتنا أمام محلات كبرى تبيع الفراء الطبيعي، ردّتنا الشرطة عن أبواب أغلقوها في وجه صراخنا" قتلة ومجرمون، لاحقتنا الهراوات حين تمادينا، حاولنا سحب الفراء من المحلات، اعتقلوا زعيمنا لاعتدائه على أملاك الغير وحريّة التجارة.

أطلّ وجه سارة من وراء فاترينة فاخرة. كانت حزينة كما يوم رفضْت ارتداء هديّتها من معطف نمر الثلج الثمين.

اقتنيت الفراء والأسترجان حين توفّر صناعيا.

*****

نزوح اليهود الجماعي من بلادي كان بعد قيام دولتهم في بلادك. قليل توّجه إليها. اختاروا فرص أمريكا ووجهتهم نيويورك. لكن مصيرهم ارتبط بوطنك ونزوح شعبك، فامتدّت المسافة بينك وعائلة سارة حتى تخيّلنا استحالة عبورها.

أبراهام وسارة هاجرا إلى لندن حيث إرث أجدادها الكبير، متاجر وشركة عقارية ازدهرت بزبائنها من العرب والأفغان.

وحده عزرا حملته أوهام وطن قومي وعد الله به أسلافه إلى بلاد تتنازعان عليها.

انهيار الحلم في أوطان جمّلها الخيال السياسي لا شفاء منه إذا عمّقته أوهام الدين.

لم يحتمل عزرا البقاء في تل أبيب رغم ازدهار شركة المواد الطبيّة، افتتح فرعا في لندن بعد سنوات قليلة والتحق بعائلته.

الرواية القادرة على تحريك الأحزان تسكت الأسئل. تتملّك القلب وتخدّر العقل. رغم الفجوات الكثيرة في روايات سارة عن قومها وعن احتلال بلادك مما ناقض ما سمعناه من عائلتك، كان صعبا أن نغيّر تعاطفنا مع رواية زرعت في عقولنا البكر، زلزلت الوجدان وأثارت حزنه الأول.

استلاب وطنك حاجز جليد ارتفع بينك وعائلة سارة منذ اللقاء الأول، عاليا وجامدا فلم نتخيّل أن صلابته ستذوب بالاعتياد، وتنهار بالمصالح.

موقف أمّي من حكايات سارة ظلّ محيّرا، لم تقبل ولم ترفض ما قالت إنه مأساة أجدادها نقشت على الصخور في طريق هرات.

داعبتها:

- لا خيار لنا إلا أن نصدّق فلا أحد بيننا يعرف هذه اللغة القديمة. ولا أدري إن كنت تعرفينها حقّا!

صمتت سارة وضحك الجميع، غضبت، دخلت السيّارة فلحقتها أمّي.. لا بد أنها اعتذرت عن التشكيك في رواية نقشت على حجر بلغات اندثرت، آرامية أو كنعانية وقليل من العبرية. خرجتا وسارة راضية.

عادت قصة احتمال أن البشتون من أسباط بني إسرائيل عاصفة زادت الفرقة مع وصول بعثة علماء الأنساب واللغات القديمة بدعم من الجالية اليهودية في بريطانيا. مصيدة وقع فيها كثيرون، الوعود بالهجرة إلى بريطانيا أو نيويورك وإلى بلادك أسكتت كثيرين. أخرست المصلحة شكّ الأسئلة، زيّنت أحلام الخلاص من الخوف، الهرب من عدم الأمان، الرعب من الانقسام والتعصّب وتجهيل الأبناء وانضمام الصغار إلى المتحاربين.

- سترعانا الوكالة اليهودية في حال ثبوت أصولنا إليهم، وتحفظ حياتنا وأبناءنا.

آخرون صدّقوا الرواية فعلا ودافعوا عن موقفهم وعملوا بجدّ: والاحتمال بداية التخيّل لما يكون قد حدث يوما:

- ربما اعتنق بعض اليهود الإسلام إيمانا أو خوفا أو رغبة في الاندماج فكنّا منهم! من يدري ما حدث قبل مئات السنين في غياب التوثيق.

قليل من البشتون لم يصدّقوا، ازدادوا انغلاقا وكرها لليهود والنصارى، وطالبوا بتحرير الأقصى في مظاهرات وخطب لم تتوقّف، وقاتلوا مع طالبان تبعا لفتاوى أمرائهم.

أبي اشدّ الرافضين للحكاية جملة وتفصيلا، وظل الحديث عن أصل البشتون خطًا أحمر في علاقتنا مع أبراهام وسارة.

مرّات قليلة حين هبّ أبي أو أبراهام لتذليل عقبات تخصّ الشركة، ابتسمت سارة. غمزت أمّي وهمست: الدّم يحنّ. قطّبت أمّي وساد الصمت.

صداقة المرأتين تعزّزت برحيل أمّي إلى نقاء الهواء. اشتدّ الربو في كابول فعدنا إلى الأرياف. ربطت حبال الود الدارتين، قصر سارة القريب ورثته عن جدّها الإقطاعي أشهر تجار الفراء في البلاد وصاحب أكبر مدبغة للجلود.. لم تلتقيا في ساحة المدرسة الإنجليزية للبنات في كابول رغم دراستهما فيها، فسارة تكبر أمّي ببضع سنوات وأكملت تعليمها الثانوي في لندن. لكنّ الذكريات عن المدرسة والمعلّمات زادت الودّ. وجمعهما عشق آخر، البيانو، كلاهما عازفة ماهرة. سارة حلمت يوما أن تكون ملحنّة وتكمل تخصّصها في الموسيقى، فأرجعها إلى البلاد إرث تجاري مزدهر.

كل منهما مختلفة في فضاء نساؤه من زوجات زعماء القبائل، أو العاملات وزوجات الفلاحين. لم تعد سارة تترك قصرها إلى تجارتها في أنحاء البلاد، أوكلت ذلك لأبراهام واكتفت بالإدارة والحسابات. لا أذكر يوما في الدارة بلا سارة، شاركتنا مناسبات شديدة الخصوصيّة ظل أكبرها ما أثار الاستهجان، ترتيب موائد الإفطار في شهر رمضان.

ضحكت وعلّلت صيامها معنا:

- لعلّني أجد بابا آخر أدخل منه إلى الجنّة يوم الحساب، لماذا أتقيّد بباب واحد؟
- الله أعلم بالقلوب والنوايا ويعلم حقيقة صيامك... قالت أمّي بين هزل وجد. امتعضت سارة.
- لا تصدّقيها لأنها صائمة حسب شعائرهم، فصيام اليهود مثلنا من الصباح وحتى المساء، هذا في ما يسمّى عندهم "الصيام الصغير" لكنه لأيام محدّدة وليس شهرا كاملا، ولهم أن يختاروا الأيام التي يريدون، وهناك "الصيام الكبير" ولبضعة أيام من مغيب الشمس حتى مشرقها.. يعني صيام النائم.
- ليت صيامنا مثلهم. ننام الليل على نيّة الصيام، لا نعاني جوعا أو عطشا.

سارة لم تردّ يوما على قسوة ملاحظات أبي. ولم تغب عن إفطارنا طوال أشهر رمضان حتى هاجرت.

أعجبني وصف أمّك لعلاقتك بصديق: "فولة وانقسمت نصّين". حفظته لأنه ينطبق على سارة وأمّي، كلٌّ وجدت في الأخرى توأم روح تاه رغم اختلاف العرق والدين.

عزرا وحيدها قضى كلّ صيف معنا وعاد إلى مدرسته الداخلية في بريطانيا. جارف حدب سارة على فردوس واهتمامها بي.. معلّمة من طراز فريد لا تتوقّف عن النصائح وضخّ المعلومات، في الأتيكيت والفنون والعزف على البيانو. فنّانة ضلّت طريقها إلى التجارة، سعدت أمّي بصديقة أعانت في بعض مسؤوليتها في بيئة ريفية بعيدة.

سارة أحبّت دورها، أحضرت كتبا ملونة وأفلام كرتون كلما زارت لندن. قالت:

- نحن عائلة الطفل الواحد، والدي وحيد أبويه رغم أن جدّي أراد أولادا بعدد أسباط إسرائيل، حملت جدّتي بأبي ثم نضب عطاؤها، وأراد أبي صبيًا فلم يرزق بغيري، وحلمْتُ بعائلة كبيرة، فعجز الأطباء أمام ما كتبه الرّب. وحيدي عزرا.

تزوّج عزرا بعد زفاف مهاب بقليل، رزق بتوأم صبيان ثم بطفلة أسموها هانية تيمّنا بأمّي.

دروس العزف على البيانو لم تتوقف لفردوس ولي في الدارة أو في قصر سارة، وحده عالِم تابع ما نفعل. ولم يكن البيانو هوايته.

كلّ معلّقة في بيت سارة حكاية فتحت أفاقا لأحاديث لم تتوقّف، عن الرسامين الكبار في العالم وأشهر الموسيقيين، لوحات وسجاد وسيراميك، وصحون من الفضة والخزف. وقصص عن أسلاف لا

أعرف مساحة الحقيقة فيها، دوّنوها على الجلد والورق والسجاد من الحرير أو فراء الأرانب والثعالب. رأيت النجمة السداسية في أعلام إسرائيل، فتذكرت منافض السجائر النحاسية زيّنت مجلس أبي قبل قيام دولتهم بعقود. ثبّتها أسلاف سارة في قعرها.

سألت أمّي في حضور سارة: كيف لشعب تعذّب وتشرّد أن يبطش بآخرين ويستولي على أرضهم؟

- السياسة بلا دين... وصمتت ثم أضافت كمن يعتذر:
- بعض اليهود ضد العنف والاحتلال، لكننا لا نستطيع المجاهرة بآرائنا، سنتّهم بأننا ضد قيام دولتنا، ويحاربوننا في رزقنا ومالنا.

مواقف سارة مثلك، تبنيها على حساب الربح والخسارة.

اعتداد أمّي بنسبها إلى الإمام علي لم يتعارض مع فطرة جبلت عليها. قبول الاختلاف. التنوّع في موكب حجّها السنوي إلى مزار شريف لن يقبله إلا عقل مثلها، لا اعتبار لمذهب أو أصل في اختيار مرافقيها، مازحها أبي:

- بعد عمر طويل سينادي الملاك حارس الجنّة ويقول. الشريفة هانية أدخلي الجنّة من أي الأبواب تشائين، فقد تشفّع لك أبناء الطوائف والمذاهب ممن عطفت عليهم.

فرحت أمّي كأنّما سمعت النداء وقبضت مفاتيح الجنّة.

في بلدان يسكن الله سماءها، ومع ثراء قادر، يصير طقس الحجّ حدثا كبيرا وذكرى لا تبارح الخاطر.

حجّ أمّي إلى المسجد الأزرق طقس أوفى بإيمانها وأسعد من حولها. شهور من عمل دؤوب سبقت انطلاق الموكب كلّ عام، خليّة نحل يهدأ طنينها عند ظهور الملكة. لا صوت يعلو في حضور أمّي.

تغيّرت وجوه المرافقين، الخادمات والحرّاس عدا اثنتين، سارة ونعمة الوصيفة.

توزّع المرافقون في الباحة الكبرى للمسجد لحراستنا والتأكّد من عدم ضياعنا في زحمة البشر وحشود المحتفلين، اختلفت طقوس الفرق وأناشيدها. ساحرة دوائر النقشبنديّة في ثيابهم البيضاء والعمائم الخضراء، وأحيانا كانت بنيّة.. وجْد جماعي وتحليق خارج أجسادهم. حركة رؤوسهم إلى الأمام والخلف اشتدت وتسارعت، بدأت بترديد الله. الله. الله، ثم تعالى الابتهال بالانتقال إلى الشهادة لا إله إلا الله. لا إله إلا الله.

تنوّعت سلالم الأدعية من الساحة المكتظّة إلى الله الواحد، تسابقت إلى السماء ابتهالات متسامحة وأخرى متشدّدة لم تخل من طرافة، فحين وصل خطيب المسجد إلى الدعاء على النّصارى واليهود أن يفنيهم وذريتهم. ربّتت أمّي على كتف سارة وهمست:

- لا يقبل الله الضرر لأحد حتى لو تصاعد من المآذن أو الكنائس أو المعابد، بالمناسبة، كلّما لعنوكم ازددتم قوّة. وضحكت.

دارت سارة مشاعرها.

صغيرة حيّرني موقف أبي من المناسبات الدينية: غالى في طقوس حجّنا لكنه لا يصلّي، بسخاء مؤمنٍ يتقرّب إلى الله أكرم المرافقين في كل

رحلة. جامل زعماء القبائل في المناسبات الدينية. عادة دأب عليها منذ كان مستشارا لشؤون القبائل، وحين عيّنوه سفيرا ظلّت قائمة الزعماء ورجال الأعمال وضباط الجيش في مفكرته. وجاملهم جميعا.

الأفكار المتشابهة غابات مودّة، تتجاوز فجوة العمر، تشيّد جسور الالتقاء. تتلاحم وتظلّل بعضها.

تعزّزت علاقة أبي بالملك أمان الله بالرؤية الواحدة لتحديث البلاد رغم فارق العمر، التقت بالإعجاب بما حقّقه الغرب والدول المدنيّة، آمنا بنهضة علمية تتحدّى سطوة الملالي وتخرج البلاد من غيمة الفتاوى، تواجه هيمنة الثقافة المجتمعية بتعليم النساء وتمكينهن بالعمل، وتشجيع الفنون... كلاهما تخرّج من جامعات بريطانية. لكنّ إعجاب الملك بالثقافة الإيطالية دفعته بعد الإطاحة به إلى قضاء ما تبقّى من عمره في روما، وظلّ أبي وفيّا للثقافة الأنجلو ساكسونية.

بخطوات محسوبة تقرّب أبي إلى الملالي بعد عزل الملك. جاهر أمام الضباط الشيوعيين بأنّه حفيد لإقطاعي الاشتراكي فتسامحوا معه بحذر.

أجاد أبي اللعب بأدوات ملكها. زعامة قبلية وتعليم وثراء، لكن تحالف الملالي مع الغرباء المتشدّدين صادر البلاد ... فهاجرنا.

محاولات الإصلاح الرائدة إن سبقت زمانها فشلت، لا قيمة لفكرة إن اصطدمت بعقبات تطبيقها، التغيّرات الكبرى ولدت في جو مستعدٍّ لها- أو فُرِضَت بقوّة دكتاتورية.

- أحلام تحديث البلاد من الملك ومستشاريه الشباب جوبهت بالرفض، ولم يصغ اندفاعهم إلى هدير البركان تحت سطح اعتقدوا أنه هادىء، عبثوا بقشرة بدت هشة فانفجرت طوفانا، لم يقدّر الملك مشاعر شعب يقتات على الدين، إحساس الناس بالخطر من كفّار وملحدين اجتاحوا فكر الجيش وصفوفه أفقدهم صوابهم، حتى الصوفيون لم يقدّروا خطر التشدّد الديني، فكانوا الضحية الثانية للسلفين بعد الملك... قال لحزن أمّي.

أكمل وما زالت تبكي قتل شيوخ المتصوفة وملاحقة أتباعهم:

- دراويش على باب الله، وضعوا أيديهم في أيدي الملالي. التصوّف تسامح. أو لعلّهم صدّقوا ما قالت المآذن من أن الملك ضدّ الدين. وعن حاشية له من شباب تعلّموا في الخارج تسلموا المناصب رغم انهم لا يعرفون البلاد وظروفها، فحرموا من تعلم في البلاد ممن لم تسنح لهم فرصة التعليم في الخارج من الوظائف العليا.

نقمة العسكر كانت الأشد قالوا: الجنود والعسكر أحق بالحظوة من شباب ابتعدوا عن البلاد حين كانت في حاجة لهم، هاجروا حتى هدأت عواصفها.. جبناء تأخروا في الغربة سنوات بحجّة التعليم، والدولة أنفقت عليهم بسخاء. ومن يدري ما فعل هؤلاء في بلاد الفسق والفجور، وبأية وسيلة حصلوا على شهاداتهم؟ شباب لم يجرّبوا انضباط الجندية لتصقل أرواحهم، يفتقرون إلى خبرة الدفاع عن وطن لم تتوقّف أطماع الشرق والغرب فيه.

ورث أبي الصراع بين الحداثة والجهل، زعيم قبيلة خدم أبناء عشيرته المتعلّمين حين ملك القرار. ردّ على الأقاويل:

- من الظلم أن أعاقب أبناء عشيرتي لأنهم تخرّجوا من جامعات العالم المرموقة فقط لأنني بالصدفة قريب لهم. كيف أمنع عنهم فرصا تأهّلوا لها؟ وأحرم البلاد من خبراتهم لمجرّد أنني صاحب القرار في توظيفهم؟

رأيه لم يقنع أحدا. رموه بالفساد والمحسوبية وتقريب قبيلته، وعدم الانصاف في المنح الدراسية وتوزيع الوظائف.

بعض قبائل البشتون انقلبت ضدّ أبي، لم يشفع له أنه فتح مجلسه لشباب القبائل الأخرى من المتعلّمين وقرّب بعضهم. ومن يمشي فوق حبل مشدود قد يفقد التوازن في لحظة ما، كان الطريق طويلا، والتركيز قد يختلّ مع أي اهتزاز. أراد أبي لنفسه صورة الزعيم البشتوني الحريص على قبيلته، ارتدى العباءة فوق بدلة غربية أنيقة، دبلوماسي وحقوقي درس في الغرب، حريص على رياضته اليومية ممشوق القوام، يعشق الشعر ويعلّق فوق مكتبه لوحة من المخمل الأسود مطرّزة بخيوط الذهب لمقولة الشاعر محمّد إقبال أفغانستان بوّابة آسيا وقلبها. ويتغنّى بشعره.

أنقذه الملك بتعيينه سفيرا:

- تعود إلى البلاط حين يهدأ الحال.

لكن جسد البلاد تفسّخ، تهلهلت المؤسسات بصراع العقائد، تنازعتها تدخّلات شرقية وغربية- وما دار أكبر من احتمال وطن يبحث

عن هويّة. أسراب عصافير هاجر الناس بخوفهم، تسلّل الهاربون مع الأدلّاء وسماسرة النزوح، مات كثيرون في كمائن نصبت لمهرّبي البشر على منافذ الحدود.

قلْتَ وما زال أبي يفسّر لك هروب كلّ قادر:

- تتشابه حكايات الخوف، وواحدة مصائر بلدان محكومة بالجغرافيا إذا تكالبت عليها الأطماع الدولية. البلدان التي تتوسّط القارات مثلنا ومثلكم، أو زرعت في الطرق الأقصر إلى الثروة تصير مطمعا للقادرين... ولم تختلف وسائل الاحتلال عبر التاريخ وإن تغيّرت أشكالها، البداية بتأجيج الصراع الديني وإثارة النعرات الطائفية والقبلية... في بلادي شغل العداء بين قيس ويمن القيادات التقليدية، عداوة أشعلها الأمويون، امتد لهيبها حتى ضاعت البلاد، تناحروا لاهين عمّا يحاك لهم. وتحوّلت بلادكم من الصوفيّة المتسامحة إلى التعصّب والتطرّف. تشابه آخر بين بلدينا هو أن أيّ منطقة احتلّتها بريطانيا عادت إليها بعد أن تركت فيها مشكلة تحتاج تدخّلها. إن خرجت من الباب عادت من الشباك...نحن ما زلنا ندفع ثمن وعد بلفور.

لكن الموقع الجغرافي للأردن حمل لك فرصة كبيرة لم تتردّد في اقتناصها. قلت بعد أن عرض والدي إنشاء فرع لشركة الموادّ الزراعيّة، وشركة تصدير للمنتجات الزراعية:

- إدارة الفرع لي ولعزرا. سيكون همزة الوصل مع الآخرين والأردن مفتاح لما حوله، ونسبة الأمان التجاري فيه عالية، لكن قبل التخطيط للاستفادة من اتفاقية وادي عربة لا بدّ من فهم التركيبة

الاجتماعية والسياسية للسكّان، نكلّف شركة متخصّصة بمسح اجتماعي واقتصادي للمنطقة، ودراسة مدى تقبّل السكان لخبراء من الخارج، وعن أثر المشروع على حياتهم الاجتماعية، ويمكن التعاون مع وزارة التخطيط أو منظّمات دوليّة أخرى، ستكون مهمّة عزرا التواصل مع مركز البحوث في جامعة بن غوريون، التجارب الزراعية على الطرف الآخر من غور الصافي عالم آخر، وتبادل الخبرات نص صريح في اتفاقية وادي عربة وإن لم تلتزم به إسرائيل، يمكن لعزرا أو أبراهام إقناعهم ليدرّبوا عمّالنا على الزراعة وعلى مواصفات التصدير.

خلافنا لم يدم طويلا حين تنازلت لهم عن ثلث المشروع مقابل الخبرة والتدريب. لم أقتنع بما قدّمت رغم إصرارك وتبريرك:

- فرضوا شروطهم، والأبحاث ملكهم، والاتفاقية تنص على تدريب المزارعين في أماكنهم.

اعترفت بعد شهور طويلة ومفاوضات مضنية وفي لحظة صدق أنهم لم يقدّموا نصيحة مجزية، ظلت الزراعة في مشروعك مواسم معينة وبطرق أقرب إلى التقليدية، بينما زَرَع الآخرون استمرارا بلا مواسم، وأنتجوا أنواعا معلّقة لا تهدر المساحات.

ما أسكتنا أنه رغم عدم منافسة انتاجكم لهم ظلّ المردود كبيرا، ورفدت الأرباح شركة المعدّات والأدوات الزراعية.

بدت الحياة هانئة حتى جاء عزرا بفكرة التوسّع بمزارع في المغرب أو أستراليا. كان الربح مضمونا والاستثمار سهلا.

الفكرة زلزال دمّر حياتنا حين كشف خلو رصيدك وأصول الشركة من المال! فكيف سمحت أن تبدّد أحلامنا بالثراء، أن تهدر قيمة تنازلك عن الانتماء أمام هواية المقامرة؟ أي إغواء للربح والخسارة أضاع الأرباح ورأس المال وما بنيت؟

بكت منار وانهارت. صاحت:

- لا يمكن أن تكوني أنت؟ أي طمع هذا؟ تستولين على شركته، أنت أخرى لا أعرفها، لا تشبه أمّي، لماذا يتنازل لك عن شركة بناها بتعبه وماله حتى لو انسحب عزرا؟

آلمني عجزي عن قول الحقيقة. وخرجْتَ أنت دون أن تفكّر في هدهدة حزنها، أعرف أنك أضعف من مصارحتها بالحقيقة، ولا أدري حتى الآن ماذا قلت لها وكيف فسّرت انفصالنا...تركناها لحيرتها، لم تستطع مواجهتها بالتأكيد، ولم تكن رغبة البوح قد تملّكتني بعد.

كم تغيرنا.. أنت وأنا.

المرّة الأولى التي أعلنْتَ فيها صراحة أن مصلحة الشركة تتجاوز الحساسية السياسية كانت قبل سفرك إلى لندن:

- لا طريق غيرهم إلى الأسواق العالمية. الحروب والتحالفات العالمية لم تبن على المصالح السياسية وحدها رغم أن السياسة ابنة المصالح الاقتصادية ومربّيتها.

رؤيتك الواقعية للعالم وتجاوز الحساسية المفرطة تجاه سارة وأبراهام أثارا إعجاب أبي، رأى فيها خصال رجل أعمال ناجح.

برودك الثلجي في اللقاء الأول مع سارة وأبراهام لجم محاولاتها التقرّب إليك.

- لا يحقّ لوافد جديد أن يفرض موقفه علينا، لن أستبدل وفاء سارة وصداقة العمر والشركاء الأمناء بأحد. قالت أمّي.

تفهّم ابراهام انشغالك بمُهاب، ربما اعتقد أنها طريقتك في تجنّب أعدائك، انسحب إلى مباراة شطرنج مع والدي. ولم يحضر عزرا:

- سأتعرّف إلى شاب تقدّم لحبيبة العين في فرصة أخرى.

وحدها سارة أطالت التودّد إليك، حدّثتك مبتسمة عن أقارب لها عاشوا في القدس، ثم هاجروا إلى نيويورك قبيل إنهاء الانتداب البريطاني على بلادك وبداية القلاقل. وما زالوا يحنّون لأصدقائهم العرب.

في جفاء قلت:

- عشنا مع اليهود جيرانا وأصدقاء بينما يخطّطون لاحتلالنا. بيتنا في حيّ الطالبية من القدس الغربية تسكنه عائلة يهودية، رفضت حتى أن ندخله. أصرّت أمّي على اصطحابنا بعد حرب سبعة وستين واحتلال كامل القدس لنرى بيت العائلة، طردونا وصاحوا هذه أملاك يهودية.

وافقّت في أسى، وتوقّفَت عن حديث يثيرك.

كثيرا تبادلْتُ وأمّك قصص الهجرة، تشابهت قصص الهروب أمام حواجز الخوف. جمّل الحنين ما تركنا، تخيّلْت بيتكم بحجم قصر

باكينغهام، تهرب منه أمّك عروسا تحت القصف وتترك كلّ شيء. الحسرة على بيت جديد ما زال جرحا طريا بالحنين والتذكار. أمّك ما زالت مسكونة بلوعة الهروب، حكايات لم تتوقّف كلّما التقينا، عشت معها في مدينة رسمها حنينها، شوارع وأسواقا عتيقة ومدرسة شميدت للبنات قرب باب العامود.

وقفت معكم أمام بيتكم المسلوب في القدس. خرج أحدهم. تصفّح وجوهنا. قال:

- أملاك يهودية وعادت لأصحابها.

بكت أمّك وتبادلا الشتائم. كان بيتا واسعا بهندسة جميلة من الحجر الأبيض تحيطه حديقة. أصغر مما تخيّلت.

دموع أمّك روت الأشجار المتدليّة من على سور دار سلبت منها.

سألت أبي عن مساحة الدارة هناك، هل كانت كبيرة فعلا؟ أم أنه اشتياقي؟

وحنين أبي أكبر من شوقي اختلطت الحقيقة بالخيال قال: الحديقة وحدها آلاف الأمتار.

تمنيّت لو أعود ليخرجني الواقع من هواجسي والذكريات.

أنقذت أمّي العشاء الأول الباذخ من توتّر السياسة، برشاقة لا تتخلّى عنها قامت إلى البيانو، سارعت سارة إلى جانبها وغنّت غرباء في الليل Strangers in the night أغنيتهما الأثيرة.. صوت سارة ما زال ساحرا كما كان في طريق حجّنا إلى كنيس كابول.

طال صمتك وأنا أخبرك أنّ سارة أبدت إعجابها الشديد بك.

إعجاب والديّ بك، وبقدرتك على التكيّف وتغيير الأفكار تبعا لمنطق الظروف أجّلا إعلان خيبتي فيك، أن أكشف لهم حقيقة ما لا يعرفون عنك، وقراري بالطلاق.

*****

هل ما زال الملاّ بنيامين قادرا على قراءة الغيب؟ أن يلوّن الواقع بالأمل ويفرحنا بما نشتهي؟ ويدّعي أن القادم فرح كثير كما وعدني طفلة؟

بيت كابول قصر ورثه والدي عن جدّه الأكبر، لمسة معمارية أوروبية ميّزت الأثاث والستائر، فقط مجلس الجدّ الواسع كان نمطا محلّيا، استقبل فيه رجالات البلاد، جدران من الموزاييك والنقوش الإسلاميّة وأثاث محفور ووسائد حول الجدران.. يواجه المجلس التقليدي صالون عصري لاستقبال الدبلوماسيين وكبار الزوّار، على جدرانه عشرات اللوحات لفنّانين عالميين. أكّد جدّنا حضوره بينها ببورتريه شخصي علّقه في وسطها. لوحة متوسطة الحجم تواجه الباب، ابتسامة محيّرة وهو في لباسه التقليدي. رسمهما الفنان البريطاني صاحب لوحة الدارة.. لم تختلف قسوة المشاعر والعنفوان في ثيابه التقليدية وعمامة زعيم القبيلة عنها في البدلة الأوروبية، لكن موهبة الفنّان الفذّة لوّنت عباءته بملمس الحرير، فتكاد تلمس نعومته ولمعانه، وبرزت حواشيها الموشّاة بخيوط القصب الذهبي عنوان الجاه والثراء.

ابتسم أبي في أسى بعد عودته من دفن أمّي:

- رافقني الضابط إلى بيت كابول، حوّلوها دائرة للأمن، رموا صورة الجدّ في المخزن بعد أن قلع أحدهم عينيه وغرسوا خنجرا صغيرا في قلبه. لا أثر للوحات العالمية، ربما أدرك بعض رجالهم قيمتها

وباعوها. أتمنى أن لا يكونوا قد أتلفوها. لم أشر إلى أي شيء مما تركنا. لكن في الدارة لم يتركوا أي شيء.

هل رأى الملاّ بنيامين سواد القادم وهو يؤكد لي طفلة أن فرحا كبيرا قادم؟ هل تحدّث عن النجاة من الطوفان المتشدد؟ أم عن حياة لندن المريحة حتى التقينا؟

صورة الملاّ بنيامين بجسده الضخم ينتظر عند بوابة الكنيس، سحب ساقه اليسرى في تثاقل وهشّ لاستقبالنا متحاملا على المرض والشيخوخة. خاطب أمّي بالأميرة المبجّلة. وبارك سارة كوالد عطوف.

على مساحة واسعة في حديقة الكنيس نصبوا سرادقا واسعا، طاولة خشبية مستطيلة منخفضة لفّت جوانبه الثلاثة، فرشت خادمته العجوز الأرض بقطع السجّاد الأفغاني من الصوف الأحمر والأسود، وعلى رأس الطاولة مقاعد فاخرة من المخمل الأحمر والخشب المحفور، أمامها سجّادة كبيرة من الحرير التبريزي، صور رجال ونساء تحت قوس من الكتابة بالأوردو. جلست أمّي في الوسط والملاّ وسارة عن يمين ويسار، ثم أنا وعالِم وفردوس ومهاب.

لا تعترف همّة خادمة الملاّ العجوز بعمرها، نقلت الأطباق من مطبخ الكنيس، هبّت العاملات لمعاونتها، لا طعم يشبه مذاق خبزها النان الساخن، ولا شكل أرغفته البيضاء زيّنتها بالسمسم وحبّة البركة، تصاعد البخار مع رائحة كباب مشوي على الفحم لا تنسى، وعبق الأرز البخاري. وحين كشفت العجوز أطباق الأرز الكابلي بولاو زيّنته بقطع اللحم والجزر المبشور والزبيب الكشمش المحمّر تعالت

صيحات الإعجاب. للسكر المطبوخ مع الكركم والكزبرة والفلفل الأسود طعم فريد. تبعته صواني الطواجن، لحم الخروف بالتوابل والفواكه المجفّفة. مذاقه يشبه طاجن اللحم مع البرقوق في المغرب، جرّبناه حين كان الحب رباطا.

بهمّة صبيّة في العشرين رفعت العجوز الأطباق الفارغة إلا من العظام، خفيفة طائرة بجناحين من إطراء لم يتوقّف لهارتها.

- السّر!؟ بهارات لا يعرفها غيري... تباهت العجوز.
- أي سرّ؟ الطعم من الزعفران والكركم والزيزفون جاء به أجدادنا من إيران. خطفت سارة فرحة العجوز.
- بل السرّ في الكميّات. قليل من يجيد خلطها فيتحدّد المذاق.. قالت أمّي.

استعادت العجوز انتصارها.

أصرّ الملاّ بنيامين دائما أن تنتهي الوليمة بطقس وطني تقليدي، الشاي الأخضر غير المحلّى للكبار، وعصير الرمّان للصغار وحلوى أصابع العروس، رقائق محشوّة بالمكسّرات والعسل، تبعتها أطباق الفاكهة الصيفيّة. الكرز والمشمش والدرّاق والبطيخ.

قالت العجوز:

- لا شيء بطعم عصير رمّان قندهار.

وسبقتنا بضع زجاجات منه إلى السيّارة.

نهضت أمّي فانتهت المأدبة، توجّهت مع سارة والملاّ إلى الكنيس العتيق... مثل حركة الممثلين السريعة في شريط فيلم ساعدت العاملات العجوز في رفع الأطباق والأكواب، نظّفن طاولة الخشب وتربّعن حولها.

خرجنا من الكنيس.. ردّدت أمّي مثلا سمعناه كثيرا بعد ولائم الملاّ بنيامين أو موائد سارة. "كُلْ عند اليهودي ونام عند المسيحي"، وفسّرت: لأن طعام اليهود كوشر، خاضع للحلال والحرام.. ولم يكن في بلادنا نصارى لنعرف ما يأكلون، لكننا أحببنا طعامهم بعد الهجرة عدا الخنزير.

تحجّرت العيون على باب الكنيس في انتظار عودة الملا والسيدتين.

مرّة واحدة رافقنا أمّي إلى الكنيس، على صف المقاعد الأخير قرب الباب انتظرنا حتى أنهت سارة صلاتها ثم تلقّت بركات الملاّ.

في الكنيس تبادلت سارة والملاّ علبتين من القطيفة الزرقاء، مبتسمة لفضولي أخرجت الشمعدان التقليدي بعدد أسباط بني إسرائيل من علبته، ثقيل وكبير من الفضّة الخالصة، قالت تركته في المعبد العام الفائت ليتبارك، اليوم تركت رمزا آخر سأعود لأخذه العام القادم. كل ما في بيتي من شعائر أبقيتها في الكنيس عاما كاملا لتتقدّس.

لم تعد سارة لأخذ ما تركت. ظلّ نذرها في الكنيس بعد أن اشتد العداء لليهود. ورحلت كما الجالية كلها.

فرحة النساء والتهليل لخروج الملاّ من الكنيس أسعده كثيرا، مزهوا توسّط الطاولة فتسابقت العاملات إلى التقرّب إليه. وجوه نهبها التوتّر والرجاء وتنتظر.

من صندوق أعدّه مسبّقا تحت الطاولة أخرج رزمة أوراق وأقلاما وفردها أمامه.

قدّم لأميّ نسخا ورقية من تميمة اليهود الأشهر، الكفّ المنقوش بعبارات عبرية.. وفي حرص شديد مدّ اسطوانة صغيرة على شكل رصاصة، أدخلها في كيس صغير بعد أن لفّها بورقة. قال: لا تخرج الرصاصة من غمدها أبدا، ولا تفتحي الورقة، سيحفظكم الرب في نجاح ومن كلّ شرّ.

دسّتها أمّي في حقيبة يدها وما زالت تشكره.

عاد الملاّ وتوسّط العاملات، ضاحكا اختار الأقرب إليه عن اليمين، همس لها بطالعها. وكتب حجابا دسّته في صدرها، قرأ طوالع الأخريات وكتب الأحجبة. فرحت وجوه، وكسا الغمّ بعضها. نامت التمائم في دفء الصدور على أمل حلول لقضايا أكبر من سطوة الملاّ على الغيب.

اندفعْتُ إليه وطلبْت أن يكتب لي حجابا.

قطّبت أمّي في دهشة، تعالت ضحكات النساء، وجه الملاّ كان جادا لكنّه ابتسم: لأي مشكلة؟ التفوّق؟

فتح كتابا صغيرا أخرجه من جيبه فران الترقّب.. قلّب بعض صفحاته. أمّي لم تعترض، قال بثقة: الفرح قادم لأنك متفوّقة. لكنني

أرى سفرا إلى ديار بعيدة. لكنه ينتهي بفرح لا حزن. هناك فرح كثير قادم.

أغاب عن كتابه ما هو آتٍ؟ أم تراه قرأ ورفض أن يكون نذير شؤم؟ أم لم يعرف وكذب؟

بشائر الفرح أسعدتني. مسح الملا بكفّه على رأسي، كتب تميمة وطواها. قال: هذه لمزيد من النجاح... شبكتها الخادمة بدبّوس في ثيابي.

شكرت أمّي الملاّ على كرم ضيافته، احضرت احدى العاملات صندوقا كبيرا قدّمته للخادمة العجوز. ثياب مطرّزة وحليّ فضيّة ورزمة نقود كبيرة.

نزعت أمّي تميمة الملاّ عن ثيابي حين دخلنا الدار، وما زلت أتمرّغ مع بكائي ورفضي على الأرض، قالت:

- الحامي هو الله، ونجاحك توفيق منه وباجتهادك لا بورقة من الملاّ.

أخرجت تميمتها من حقيبة يدها، سحبت الرصاصة من بيتها المعدني وقالت:

- الحارس هو الله.

توقفت عن الصراخ حين فكّت أمّي حجابي وتسمّرت عيناها على ما فيه. همد صراخي في ذهول العاملات ودهشتها صاحت: من يصدّق؟! وانفلتت في ضحك طويل وهي تهزّ رأسها بين قبول ورفض:

- يظلّ يهوديا! آيات من القرآن نسخها داخل الكفّ المفتوح.. قرآن في تميمته التقليدية؟!

بين الدهشة والاستنكار تعالت الشهقات، تجمّعت العاملات حول أمّي، وحدها خادمة يافعة جميلة لعنته.. ضحكت، قالت: ربّما استكثر أن يكتب صلواتهم فيها فنلقيها في القمامة، أو تقع في مكان نجس.

وفي ذهول الحاضرات أخرجت الحجاب من صدرها، وبلا تردّد فكّته. تمعّنت فيه بلوعة العاجز وناولته لأمّي:

-وماذا طلبتِ؟ سألتها.

كأنما تعلن حقّا أجابت: أن يحبّني كما أحبّه.

شهقت النساء استنكارا لجرأة الفتاة في حضور الشريفة، وتعالت همهمات الرفض لوقاحتها.

أمرَتْ أمّي العاملات بالصمت، وطلبت من الخادمة الصغيرة أن تحضر لها كوب ماء. فتسابقت العاملات لتلبية الأمر، زجرتهن:

- طلبته منها.

بحزم أردفت حين اختفت الصبية: لن أسمح بالحديث عنها بسوء، أو ذكر ما قالت أمام أحد. ولن تبقى معي من أعرف أنها أشارت إلى القصّة يوما.. طفلة لم تقدّر ما تقول. والملاّ العجوز أعجب بجمالها، فنسخ لها سورة الفلق ليحميها من الحسد، اليهود منذ القديم إذا كانوا ضعفاء يحرصون على إرضاء من حولهم بإعطائهم ما يريدون. وبالتأكيد جميع الأحجبة آيات قرآنية.

وظلّت تمائم الملاّ في صدور النساء.

تبرّع سارة للكنيس الحمولة الأكبر في رحلة الحجّ المشتركة. جلود وفراء وسجّاد حرير تبريزي وقطع كثيرة من السجّاد الأفغاني التقليدي، الصوف الأسود والأحمر أو الحرير والصوف، وقطع الأسترجان النادر، وسلال فواكه وتوابل.

وسّعت سارة تجارة الفراء برحلات الشتاء والربيع إلى مزادات أسواق الفراء في بلاد فارس، عادت بقطع نادرة من المنك والسمّور والشنشيلا. اشترت أمّي الكثير منها. وحملت معظمها في حقيبة هجرتها.

باع الملاّ بنيامين نذور سارة وغيرها للنخب في كابول أو لكبار تجّارها، وصدّر بعضها إلى شركات في لندن، ومن ثمنها حافظ على الكنيس وأوفى برواتب العاملين ونفقات صيانته.

سارة تاجرة حقّقت سمعة طيبة في البلاد، فضّل تجّار الفراء والصيادون التعامل معها بدلا من أسواق المزادات، عالجت الجلود في مدبغة ورثتها عن أجدادها، وطوّرتها بآخر ما عرفته مصانع الدباغة في العالم، حفظت سيرة أسلاف جمعوا ثروة هائلة أودعوها في بنوك العالم.

بعد احتلال بلادك لم تعد البلاد تتّسع لسارة وأبراهام. ارتبط مصيرهما بأحداث وطنك، أحجم التجّار والصيادون عن التعامل معهما بعد احتلال القدس. ترك المدبغة أمهر عمّالها، قالوا هذه تجارة لأعداء الدين، والتحق بعضهم بجماعات متطرّفة. صار الخوف ليل سارة وأبراهام والتوجّس نهارهما. غرقت دارتهما في شبه ظلام، حاصرها الحقد الطاغي على قومها. وحدها أمّي عرفت برحيلهما دون أن تدري أي طرق الخوف سلكا. مرّة واحدة سمعت أبي يذكر أن رزمة

كبيرة من المال لسائقه دبّرت فجوة الهرب، ثغرة في الحدود إلى مطار كراتشي بجوازي سفر بأسماء غلوازية.

فتح المال زنزانة الوطن، عاد السائق بأخبار إقلاع الطائرة من مطار كراتشي إلى لندن.

سارة تركت كلّ ما ملكت في تصرّف الملاّ بنيامين، اليهودي الأخير في كابول مع مساعده ليحرسا الكنيس.

منعت أمّي الحديث عن سارة وعائلتها خوفا من عيون تراقب وأذان تترصّد، والنميمة تسلية خطرة في التجمّعات الصغيرة حيث تكسر القصص رتابة قرى داعبها النعاس ووسعها الفراغ.

لم نتّصل بالملاّ بنيامين حتى في مرورنا العابر إلى كابول. ولم تعد أمّي إلى ذكر اسمه. كان العداء ضد اليهود يتنامى من مآذن المساجد تأييدا لقضيتك ونصرة للأقصى.

*****

هل يدرك الإنسان بالحس الخفي أسرار القادم؟ وما سر الحاسة السادسة أو التليباثي؟ هل هي هبة من الله لبعض البشر؟ أم أن الدماغ والمعرفة تتوقّعان صورة للقادم لا يراها غير من وهبوا الحاسة السادسة؟

كثيرا أستعيد صور موكب الحجّ الأخير برفقة سارة. صامتة هادئة طوال الطريق، لم تصدح بالغناء كما اعتدنا فتشاركها أمّي، جلست بجانب السائق مكان نعمة، تابعت ما مررنا به كأنما توقّع اسمها على كلّ ما ترى. شهوة عينيها اختزنت الأمكنة والناس.. لم تنطق.. شهيق محروم، وزفير سجين من كوّة في زنزانة خانقة، مرّت بيدها من النافذة على بعض الأغصان تدلّت على الطريق، لم تقابل التجّار حين وصلنا، خاصمت الأسواق. لازمت شرفة أمّي، تابعت الحضرات وفرق الدراويش. ومرّات نزلت إلى الساحة الكبرى وتابعت ابتهالات لا تتوقف.

قالت بعد سنوات بينما نشرب الشاي في لندن:

- إحساس غريب، الخوف من فقدان كل شيء جلد روحي. لم أدرك حينها أنه ضيق الوداع، وأنها المرّة الأخيرة هناك، فقط انقباض رهيب.

لقدسية الأمكنة خشوع وبهاء. لا شيء يشبه لمعان ذهب المآذن إذ يغازل فيروز القباب في المسجد الأزرق.. جاورها ولم يلمسها.

موكب أمّي بسمة فرح للعاملين في الفندق الفخم يواجه الساحة الكبرى للمسجد. طابق لم يتغيّر لإقامتنا في كل موسم، حرّاس أشدّاء رافقوا رحلتنا منعوا تطفّل الغرباء على خصوصية إقامتنا. الطابق ثلاثة أجنحة وغرف عديدة.

المتاجر القريبة من المسجد أسواق مسقوفة، لكل بضاعة سوقها، العطّارين للبهارات والنباتات الطبية والفواكه المجفّفة، الدبّاغة للجلود والفراء والصنادل المفتوحة، وللنساجين أفضل أنواع السجاد الأفغاني والتبريزي، وأسواق أخرى حوت كل شيء، تكدّست البضائع مطرزات وثيابا تقليدية على أبوابها، تتشابه الأسواق حول المزارات التاريخية، رأينا مثلها في البلدة القديمة في القدس، وفي بلدان أخرى كثيرة، في دمشق والأندلس وتونس والمغرب. ترك الأمويون بصماتهم على مدن حكموها.

كثيرا تسلّلنا، عالِم وأنا، إلى الأسواق القريبة مع الظهر، حوانيت تتمطى من نعاس ليل الموالد. بشر وباعة وعمّال تتثاءب من نعاس التبتل والمشاركة في الحضرات.

اكتشف الحراس هروبنا، عالم وأنا، فلحقوا بنا.. رائحة الماء نظّف به الصغار المحلات ما زالت آسنة، سالت على جوانب الطريق الحجري فأكسبت السوق رائحته، وامتزجت برائحة الجلود المدبوغة النفّاذة.

الأطفال العاملون في الأسواق وجوه حزن وهم ينقلون أكواما من سجّاد وفراء، ويروّجون لقطع أثاث من خشب الكرز الأحمر محفورة بمهارة لزبائن نزلوا الأسواق مبكّرين، ويوصلون البضائع إلى فنادق

المشترين، ينادون على السواري الهندية وشالات الكشمير المطرّزة، وطواقي وعمامات الرجال علّقت على أبواب الحوانيت.

الحرّاس أفسدوا متعة ضياعي وعالم.. وجدونا دائما، لهونا أثار حسد الأطفال العاملين في الأسواق، وجوه صغيرة انتبهت إلى عبث جديد في أماكنها، لا يحمل حزنها أو يعرف همومها، أطلّت عيون صغيرة من نوافذ وبوابات جاورت الدكاكين، تابعت عبث طفلين طليقين يحرسهما رجال أشداء.

انطلق الصغار العاملون إلى الساحة الكبرى، اختفى بعضهم بين الباعة المتجوّلين والزائرات للضريح وتجمعات بعض الفرق الصوفية. أطفال ملكوا الشارع وباحة المسجد، ينادون على بضائع يبيعونها من صوان خشبيّة علّقوها في أعناقهم، فانحنت رؤوسهم بثقلها، حلوى وفواكه مجفّفة ومسابح، وعلب أعواد بخور كتب عليها بالهنديّة. اشترينا واحدة. دهش الطفل لحارس دفع دون مساومة. تابع انطلاقنا صامتا ما زال حزن عينيه واضحا في تشوّش الذكريات.

أشعل عالِم عود بخور من العلبة ثم أطفأه. عبقت في الغرفة رائحة الصندل.

- كأننا في معبد بوذي!

احتجّت نعمة وأطفأت العود تحت صنبور الماء. مدّت مبخرة فيها جمر مشتعل أسقطت أمّي فوقه قطعتين من العود والبخور المصنّع. عبق الجناح بالرائحة الزكيّة. فرحت عاملة التنظيف بعلبة أعواد البخور الهندية منحتها لها أمّي.

حزين صوت الناي، ومهيب غروب الشمس إذ تودّع ذهب القباب في المسجد الأزرق، هرعنا إلى الشرفة وما زال الناي يعلو، تدافع الناس إلى الساحة الكبرى، أخافوا أسراب الحمام الأبيض فطارت، حمائم المسجد الأزرق بيضاء كثلج جبالنا لا تفارق الباحة الكبرى، أزعجها تدفّق المحتفلين جفلت وزرعت أجسادها ورودا بين أغصان كثيفة على جانب المدخل. مذهل تمازج اللون الأبيض والأخضر مع تفاوت اللون الأزرق في جدران المسجد وأعمدته ويفرض هيبته.

- الجدران والأعمدة "هيراتية" نقشها حرفيّون مهرة اشتهرت بهم هرات موطن أجدادي، ثم انتقلوا إلى مزار شريف وأسهموا في بناء وزخرفة المسجد.... تفاخرت سارة.

- بل نقوش إسلامية برع فيها حرفيّون فرس جاؤوا إلى مزار شريف لزخرفة المسجد، لا يمكن لصديقتِك أن تنسب كل شيء في البلاد لقومها. والمسجد الأزرق هو الوحيد في العالم الاسلامي المزيّن بالنقوش الإسلامية من الخارج والداخل، وبدرجات اللون الأزرق مع الأبيض، ومن هنا جاء اسمه، ولو زارت سارة المساجد الأموية في البلاد الإسلامية لوجدت مثل هذه النقوش بنسب متفاوتة، وكلّها شيّدت وزخرفت دون أن يكون أجدادها هناك، وعليها ألا تنسى أن هرات موطن التعدّد ولم تكن حكرا على قومها، سكنتها أقوام وأعراق غير اليهود، وربما كان الفنيّون من غير قومها.

دوّى صوت الناي المولوي من الباحة. تسابقنا إلى الشرفة. انتظمت الفرقة في دوائر. ناي يناجي الوجود الأزلي فبدأ المؤدّون بالدوران، وفي تنامي الوجد سابقت أجسامهم ودورانها، خلعوا

العباءات السوداء وألقوها وراءهم، ارتفعت تنانيرهم دوائر بيضاء مربوطة على الخصور بأحزمة قماش عريضة، وفوقها صديريات بيضاء قصيرة وعمامات خضراء، وفي إحدى السنوات كانت بنيّة.

-فقط في هذا الاحتفال يخرج المولوية من التكايا والسمعخانة ليقيموا شعائرهم على الملأ، انظروا من تحلّق حولهم. بشر من كل لون وجنس، بوذيون ويهود ومسلمون، لأنهم الأكثر تسامحا.. قالت أمّي.

وزّع المنشدون الابتسامات على من حولهم. بصوته الساحر بدأ أحد المؤدين الأذكار، ثم تلاوة من القرآن، وابتهالات وأدعية، تبعتها نقرات الدفوف ودقّات المزاهر، اصطف المنشدون حول المؤدّين، سمّو فرض السكون على المكان. توقّفت الدفوف. علا صوت الناي من جديد، بدأ المؤدّون بالدوران، ارتفعت تنانيرهم البيضاء، كثرت حركات أيديهم.

-كل حركة لها معنى. حين يرفعون أيديهم يكتبون اسم الجلالة.. الله.. أمّا عن المسافات بين المؤدّين فحتّى لا تتلامس تنانيرهم أثناء الدوران. فسّرت لنا أمّي.

بين المتجمهرين حول المولوية اندسّت سارة. سادرة في اتصال روحي لم تنتبه حين نادتها نعمة لتعود، أو لمناداتنا لها من الشرفة. دارت تنانير المؤدّين فعبق عطر الزهر الخفيف ارتفع حيث نحن، مزيج من ماء الورد والبخور، تعالى الابتهال: الله الله، لا إله إلا الله، وحين وصل إلى مدد يا رسول الله مدد، صرخ أحدهم فجأة. حيّ حيّ. وانتهى الذكر بتوقّف الدوران مع دعاء... الله الله الله.

وقعت عن السرير، تعبت وأنا أدور مع صورهم وأبتهل.. مدد يا رسول الله مدد.

حمدت الله أنني كنت وحدي.أشكو لله وجدي، ولا أجرؤ على مناجاته لماذا أنا؟ تتابع الحمد لمكروه لا يحمد عليه سواه.

حال سارة في تلك الرحلة كان مثلي الآن، غائبة في ملكوت وحدها.

وأنا في غرفة المركز وحدي، والعلاج يسري في عروقي قطرات صرخت مدد مدد، خشيت أن اتهم بالجنون حين سألت الممرضة إن كنت أحتاج المساعدة، لم أجب فتركتني لغرابة الموقف، كنت ما زلت أدور في الساحة الكبرى مع فرقة المولوية مع جهاز تسري منه قطرات الدواء إلى عروقي.

-لا أجمل من فرقة عقيدتها الحبّ. إنسانية تسمو على الفروق والاختلاف. متسامحون مع البشر جميعا، أهل الذمّة وطوائف غير المسلمين جميعا... قالت سارة.

انفضّت فرقة المولوية، تابعت أمّي في ابتهاج دخول النقشبندية. لم أعرف ولم أسأل إن كانت قد أوعزت للدراويش أن يقيموا حلقتهم في الساحة الأقرب إلى شرفتها؟ لكنني أعرف أنه كلما أرادت أمّي شيئا اشترته بالمال، وقيمة المال أن يفتح الأبواب المغلقة حتى مع عفّة الدراويش وزهدهم.

على أطراف الساحة الكبرى قرّاء كفّ وكتّاب أحجبة، وحجّاج جاؤوا يتبركون بالراقد في الضريح.

حلقات الذكر في مساءات الموالد ختمت الذاكرة بصور لا تغيب، تقابلت الطقوس واختلفت الأذكار، المولوية والنقشبندية والجشتية. تمسّكت بيد عالِم، في الساحة حول حلقات الذكر أطلنا الوقوف، مذهولا بالأدوات الموسيقية، مفتونا بأناشيد الحب والغفران، تابع عزفهم وهيام أرواح المنشدين.

-الجشتية؟ من ينادون بالتسامح مع الأشرار؟ ومعاملتهم بالحب بدلا عن القصاص، وعلاج الشرّ بالتسامح والرأفة؟! كثير من النفوس الشريرة تزداد توحّشا إذا عوملت بعطف. العقاب علاج للطبيعة الشريرة، ولو انتشرت الجشتيّة سينقلب العالم غابة يأكل الأشرار فيها الأخيار. وتهذيب النفس أصعب أنواع المجاهدة، أن نعوّد الأرواح على حبّ الآخرين كفاح معها، النفس الإنسانية إن لم تهذّبها ستعود إلى نزعة الوحوش الكاسرة المولودة معها، الرغبة في الامتلاك والطمع حتى لو اضطّر للقتل والسيطرة، فالأصل في الطبيعة الانفلات من قيود التهذيب، وإطلاق شهوات النفس والرغبة في الفوضى وكسر القوانين، لهذا شرّع الله العقاب والثواب، ولم يقل عالجوا الشرّ بالموسيقى والتسامح بل بالقصاص ليردع الأشرار.... قالت أمّي.

مرّات قليلة صحبنا أبي إلى المسجد الأزرق، ترك لنا العبادة، وتفرّغ للقاء زعماء القبائل وكبار تجّار العاصمة الكبرى لولاية بلخ، أصدقاء من أصحاب النفوذ السياسي والمكانة الاجتماعية المؤثّرة.

-لك الدين ولي الدنيا... ردّ على احتجاج أمّي لغيابه الدائم.

أتساءل أحيانا في توالي الأخبار عن تغيّر البلاد: هل صمدت مزار شريف متعدّدة الثقافات مع غرباء احتكروا الدين ونصّبوا أنفسهم يد الله لتطبيقه وحسب رؤيتهم؟

تسامحت مزار شريف منذ كانت مع اختلاف الطوائف فتنوّعت عاداتها، وتباينت معتقداتها. تعاضد أثرياء التجّار فيها مع أتباع مذاهبهم، تبنّوا أحلام الشباب من طوائفهم، قدّموا لهم فرص التعليم في الخارج ثم فرضوهم على رجال الأعمال والوظائف العامّة.. تميّزت أجيال من أهل المدينة، وصارت وجوها بارزة . ومعظم تجار مزار شريف الكبار وصل أجدادهم حجّاجا من تركمنستان وطاجيكستان، ، ثم آثروا العيش حول ضريح الإمام واتّخذوا البلاد موطنا، وظل انتماؤهم لأبناء طوائفهم وأعراقهم التزاما قلما تخلى أحدهم عن واجبه فيه.

نسب أمّي إلى الإمام علي في شجرة عائلتها قصة يعرفها كلّ من تعامل معها، بتفاخر أشدّ روتها في كل مرّة، عن وصول جدّتها الكبرى البلاد طفلة مع أبيها العالم وحجّة الدين، قوافل من العلماء والتجّار والمحاربين من الجزيرة العربية جاؤوا البلاد بعد انتشار الإسلام بعقود.. علّموا الناس الدين الجديد قبل أن تنجب بلادنا علماء صاروا الحجّة والمرجع لأهل الجزيرة العربية وبلاد الشام، ثمّ أعادوا تصدير أتباعهم إلى بلادنا متشدّدين رافضين لمن يخالفهم.

جمال الصبيّة العربية ونسبها الكريم ربطا شيخ البشتون الأعظم بمصاهرة عائلتها. وفي الروايات المتداولة عن كبرياء واعتداد الجدّة

الكبرى أنّها ظلّت تدلّ على قبائل البشتون بنسبها إلى الإمام علي رغم الثراء الفاحش والمكانة الكبيرة لأهل زوجها.

يتغلّب النسب الرفيع على وهج السياسة وسطوة المال في مجتمع يظلّله الدين وتحكمه الأصول والمنابت، وكثيرا اندمج الأصل مع المال في حاجة كلّ منهما للآخر.

في حجّ أمّي الأخير إلى ضريح جدّها أطالت قراءة القرآن، تربّعت فوق السجاد في مصلّى النساء وجاورتها نعمة.. جمالها لم يخفِ حزنها.

وللهدوء هيبة الصمت طال سكوتنا، أقعينا بجانبها ثمّ لم نحتمل، بدأنا نلهو بخيوط الحرير الطويلة على أطراف السجّاد، طبقات متراكمة من قطع نادرة غطّت أرض المسجد. نذور المحتاجين إلى وساطة الراقد فيه ليفرّج الهموم، وهبات وعطايا ممن حقّقت السماء طلباتهم.

مهاب بدأ لعبة الخيوط. أحصى طبقات السّجاد غاصت فيها أرجلنا الحافية... عشرة أو أكثر قليلا. ومثل عمّال في متجر سابقناه إلى رفع الأطراف وعدّ السجّاد. أصابنا الملل بعد المئة فبدأنا لعبة أخرى. عقدنا خيوط القطع فتشابكت، وفي استغراق الإيمان من حولنا لم ينتبه أحد لما فعلنا. انهت أمّي قراءتها فلاحظت عبثنا، نهرتنا.

تركنا خيوط السجاد متشابكة وخرجنا.

وسط أطفال العاملات والفلاحين في شرفة الدارة جلست، جاؤوا مهنئين مع أمهاتهم في انتظار الحلوى وعطايا الشريفة. لم أدر حينذاك أن خيال من لا يعرف يعجز عن التخييل.. وصفت مقابض

الـذهب علـى أبـواب الجـامع الأزرق مـن المينـا الأبـيض. وثريـات الكريستال الضخمة فوق مصلّى النساء، قلت الصغرى منها أكبر من الثريا في قاعة الدارة، التفتوا إلى حيث اشرت فتعالت شهقات الإعجاب، لكن حين وصفت لمعان الماس وعقود اللؤلؤ المعلّقة على الضريح، والمزهريات الفاخرة على جانبيه تململوا.

حاولت السيطرة من جديد، كأنني أصف عالما مسحورا وصفت ألاعيب الحواة وأسواق الألعاب والطائرات الورقية فطالت شهقات دهشتهم.

عجيب ذاك القبول المستسلم لما قسم الله، بامتنان التهموا صواني الحلويات، وحشوا الفرح مع قطع النقود الصغيرة في جيوبهم وزّعتها نعمة.. خرجوا وبقيت لي قصص كثيرة عن الحجّ لم يعرفوا عنها.

لا فرح يعادل أن تكون عارفا بين من لا يعلمون، أن تنتشي باختلافك وبأنك تميّزت حين نهلْتَ من مصادر تبدو عادية لك، بينما حُلْم غيرك أن يصل إليها.

في لندن استبدلت أمّي طقس الحجّ بالصدقة، غرست الدرب إلى مسجد ريجنتس بارك بالحنين إلى الموالد والابتهالات. في ذكرى مولد جدّها من كلّ عام، أرسلت تبرّعها إلى إمام المسجد ليوزّعه على الفقراء من المهاجرين، الأفغان وغيرهم.

*****

مآسي البشر والحروب أسواق لأغنياء الحروب.. الحصار على العراق فتح أبواب تجارة ظاهرها إنساني وكثير منها استغلال وإثراء على حساب المعاناة.

عدت من العراق من رحلة اعتبرتها ناجحة جدا، فتحت فيها سوقا للموادّ الطبيّة، كنت سعيدا رغم ما يعاني الناس هناك خاصة الأطفال من ندرة الدواء، ثم دخول أثرياء الحرب وسماسرة النفط مقابل الغذاء والدواء.

بعد أيام وأنتما تشربان الشاي قلت فصمتت أمّي وأصغت.. لم تثر كما رفضت واحتجّت يوم عاد أبي من رحلة مماثلة إلى العتبات المقدّسة في النجف.

قلْتَ ببساطة أدهشتها:

- أيتها الشريفة زرت العتبات المقدّسة وقبر سيّدنا عليّ.

لم تقاطع ولو مرّة بينما أسهبت في وصف ما رأيت.

الحديث عن روايتين وقبرين للإمام علي معركة خاضها أبي بعناد فأصرّت على رفض ما قال كلّه.

وضع سيجاره على المنفضة الفضيّة على شرفة جناحها تطل على ضريح جدّها، ونشب أحد خلافاتهما الكبرى.. قال بهدوء واثق:

-لمعظم الأولياء ممن قضوا في فاجعة أكثر من قبر، والإمام أحدهم، وللسيدة زينب ضريح في دمشق وآخر في القاهرة، وللمسيح في القدس قبر داخل السور في كنيسة القيامة، وآخر تؤمن به مجموعة دينية غربية تصرّ أن قبره خارج السور، وجود لحدين محاولة إثبات أن رحلة معاناة الأولياء وهول ما قاسوا ما زال يعذب ضمائر من خذلوهم... فتوارثت الذاكرة الجمعية لأتباعهم تلك المعاناة بمزيد من تقريع الذات، وعجز الزمان عن تخفيف حضورها وحزنها الفاجع.

ثارت أمّي لكلام يغضب الله في حضرة ابن عمّ رسوله، وأوّل من آمن بالنبي من الصبية، وكفْر لا تجوز المجاهرة به أمام الصغار، لم يلتفت لغضبها:

- تكرار الرواية في مكانين تفصلهما مساحات شاسعة سَفَرٌ للأسطورة في عقول المؤمنين بها.... ويا أميرتي.. الاعتقاد الراسخ كالإيمان لا يفيد التّشكيك فيه، مناقشته تزيد البشر التصاقا بقناعاتهم لأنهم يحسّون الخطر عليها. الإيمان يوحّد الطقوس أمام أضرحة الأولياء والصالحين، فتتشابه دعوات الزائرين لهم، أن يجنّبهم الله شرّ أيام مجهولة لا يعرفون ما تحمل، أو تخفّف آلام ما حملت.

أعاد قصّة الضريحين في النجف ومزار شريف رغم المسافة بينهما.

ضمن وفد برلماني وبدعوة رسمية زار أبي العراق.

أمسك يد أمّي بعد عودته، قبّل رأسها:

-يا أميرتي زرت العتبات المقدّسة وقبر جدّك.

بهدوء ردّت:

- قبره في مزار شريف.

- يا أميرتي، لا يمكن أن يكون قبر الإمام في مكانين متباعدين هكذا، وبرواية وتفاصيل واحدة، بدأت بعد مقتل الإمام بسيف عبد الرحمن بن ملجم المسموم بينما يصلّي الفجر. والتقت عند وضع أبنائه وأتباعه جثمانه على ناقة بيضاء أطلقوها خشية تمثيل الخوارج أو أتباع معاوية به. انطلقت الناقة فاختلفت الروايتان. في الأولى أنها اتجهت نحو الكوفة، وفي الثانية قطعت حدود فارس إلى الأمان في مزار شريف، وفريق ثالث يعتقد أن قبر الإمام غير معروف، وفي عدم اليقين صار له أكثر من قبر وكلّ له أتباعه... وعلى الناس احترام قناعات الآخرين حين تتعلق بمسلّماتهم حتى فيما يخالف المنطق، من يسجد للنار أو يقدّس البقرة حرّ في إيمانه ولا يجوز مناقشته. بعض الناس يعتقدون أن قبر الإمام في مزار شريف، وأنا أسأل يا أميرتي، كيف سارت الناقة من نجف العراق إلى نجف بلادنا؟ لعلّ تشابه الأسماء سبّب حيرة الناس وتعدّد الروايات، والأقرب إلى المنطق أن الناقة لم تبتعد بالجثمان كثيرا، وربما كان القبر في نجف العراق لا نجف بخارى. ولا ننسى أن بعض الدارسين أشاروا إلى أنّ صاحب المرقد هو علي بن أبي طالب البلخي. وربما عزّز تشابه الأسماء بين الراقدين في ضريحين متباعدين قناعات من آمنوا بالضريح وصاحبه. ألا تعتقدين أن القبر في العراق هو الأقرب للصواب؟

- أيها الزعيم هناك دراسات وبحوث يموّلها اليهود تؤكد أن البشتون من أسباط يهوذا، وأنهم سكنوا خيبر بلادنا. وتشابهت الأسماء

مع خيبر الجزيرة العربية في زمن الرسول، فهل نصدّق إدّعاهم لأن بعض اليهود سكنوا بلادنا؟ ردّ غضب لم يهدأ.

كظم غيظه حين أضافت بهدوء:

-بعض كتّاب التاريخ لا يعوّل عليهم، يكتبون ما يرضي السلطة، أو يأتي بالمخالف للسائد ليشتهروا.. نحن نؤمن أن الناقة أدركت طهارة المسجّى على ظهرها، فهربت به من جنون فتنة كبرى. وتوقّفت في مزار شريف، عرف الناس الإمام المغدور فصلّوا عليه ودفنوه في قبر عادي وبنوا مقاما صغيرا فوقه. لكن السلطان السلجوقي "سان خار" نبش القبر ليتأكّد من صاحبه، فاح العنبر من اللحد، عجز الموت عن العبث بالجسد الطاهر. فبنى الضريح الرخام وفوقه المسجد الكبير. تحفة فنيّة تليق بمقام من يرقد فيه.

قاطع أبي من جديد:

-لكن رواية أهل الكوفة أن أبناء الإمام وأصحابه أطلقوا الناقة والجسد مسجّى على ظهرها خوفا من تمثيل الخوارج به أو نبش القبر لو كان معلوما، فوصلت الناقة إلى الكوفة فدفنوه في مكان مجهول، ويؤمن أهل العراق وبلاد فارس أن الصدفة دلّت أتباعه على اللحد بعد أن توقّفت خيول العسكر في النجف عند بقعة من الأرض ورفضت أن تدوسها رغم محاولات الخيّالة لإجبارها، يضربونها فتصهل وترفع قوائمها وترفض أن تدوس الأرض أو تتقدّم رغم آلامها. الخيول كلّها توقّفت بالفرسان.. أمر القائد بنبش المكان ليكشف السرّ، فاح المسك من كفن عجز الموت عن إفناء من فيه. بنوا ضريح الإمام والمسجد

فوقه... ويا أميرتي الحزن على مآسٍ كبرى خَدّل فيها الناس من أحبّوا إرث لمواسم البكاء الأبدي، تكفير عن ذنب متوارث لخذلان من يتبعون، الضرب حتى النزف بالجنازير في عاشوراء، حمْل الصليب في درب الآلام في القدس، تمثيل الصلب وأكاليل الشوك والدماء النازفة من الهامات في الفلبّين وبعض دول أمريكا اللاتينية.

– بل هي ناقة مبروكة أوحي لها فأدركت قداسة من تحمل، ابتعدت به عن أرض الصراع، قطعت أرض فارس إلى مكان آمن في ديارنا.. ولو بقيت في العراق مع الفتنة الكبرى آنذاك، أو توقّفت في بلاد فارس القريبة منهم فربما أدركها أعداء الإمام ومثّلوا بجثّته. وحاشا الله أن يحدث.

يعرف أبي متى يجب أن يتوقّف. لم يكن يحتمل غضبها حين تغلق غرفتها دونه. قام إلى مكتبه.. كم طالت تلك الغضبة لا أذكر، لكن طاولة العشاء جمعتنا. قبّل يدها وهزمها في لعبة الشطرنج.

وخلافاتنا حرائق اشعلت حقولا من الحقد والضغينة. لم نسيطر على غضبنا وأحلامنا تتأرجح بين طموحاتنا.. هل حاولنا أن نحمي حياتنا بالحب كما كبر والداي؟ تركنا للحياة أن تجرفنا بأحلام النجاح فلما تهاوت لم نحتمل.. كأننا ركضنا في اتجاهين متقابلين، لنا حلم واحد لكن السبيل إليه باعد بيننا.. كان الحبّ يتناثر رماد كلمات حارقا الصبر بعد أن اكتشفت تضحيتك بكل شيء مقابل لا شيء.

*****

كيف أخبرت العائلة عنك أوّل مرّة؟

اخترت لحظة كشّ فيها ملك أبي جنود أمّي، سعيدا طوى علبة الشطرنج، فتح الكرسي الركلينر حتى آخره. تمدّد وارتخى. تعمّدت أن تسمع أمي قصّة لقائنا في العيادة إن كانت مستيقظة.. وانك تقدّمت لي وأنا موافقة.

اعتدل في دهشته. سبقنا تساؤل أمّي من غرفتها:

-فلسطيني؟! وتعيشين في بلاد يتنازع عليها قومان؟ ألا يكفي أننا هاربون من الصراع؟

-أولا هو وعائلته يعيشون في الأردن بعد عودتهم من الخليج، وعمّان مدينة جميلة، تتميّز بالأمان وبالفرص العديدة كما قال، وعائلته مثلنا لا تستطيع العودة إلى بلادهم لأنها محتلّة خاصة القدس، وما يدور هناك ليس نزاعا بل دفاعا عن حقّ، قوم احتلّوا أرضهم وطردوهم منها هل يستسلمون؟ وأنا أحببته منذ دخل العيادة. مختلف وجريء ووسيم وتخرّج من لندن سكول اوف إيكونوميكس.

رغم التماع الإعجاب في عينيه لجامعتك هزّ أبي كتفيه:

-ما دمت قد اخترت فنأمل أن يكون الخيار الصحيح.. عليك أن تتحمّلي نتيجة القرار وحدك، لأنك ستكونين وحدك، كنت آمل أن يكون بشتونيا، لكنني أعرف أنك متمرّدة ومنذ كنت طفلة، إذا كنت

مقتنعة بأنه حب النظرة الأولى والخيار الصحيح فلا بأس، المهم أن يحبّك أكثر مما تحبّينه.

-سيأتي ليقابل العائلة.

جئتَ مبكّرا جدا لعشاء باذخ جمع العائلة وسارة وأبراهام.

شغلك أبي طويلا في أحاديث غريبة على زيارة أولى لشاب جاء يخطب ابنته، ولكن لأبي طريقة في فرض ما يريد. ساعة ثم وصلت العائلة، تشعبت الأحاديث بينكما، وانسجمت مع العائلة، لكنّك خرجت دون أن تطلب يدي من والدي.

أنت وأنا وأبي ننتظر وصول العائلة، تابعت بعض المتعلقات في الصالون بإعجاب توقّفتَ أمام سجّادة حرير على الجدار، أسفلها مستطيل صغير فيه توقيع عائلة من قم توارثت صناعتها، اشتهرت بالدّقة والفن ونعومة حريرها. أثيرة لوالدي، اشتراها بمبلغ كبير من مزاد أقامه نادي المتقاعدين الحقوقيين في لندن. تشبه سجادة تراجع عن حملها ليلة سفرنا وظلّت حسرة في نفسه. أبيات شعر بالفارسية أطّرت حديقة غنّاء قسمها جدول ماء تكاد تسمع خريره الناعم، الزهور على ضفتيه، وعاشقان بين الخمائل على يسارها، وعلى اليمين صبيّة في خمار تنتظر فارسا تأخّر، ثم جاء يعدو على حصانه.

-لا أحد يعرف عمرها تحديدا، لكنها تجاوزت المئة عام... قال أبي، وقرأ

الشعر المطرّز بهيام ناسك وترجم بالإنجليزية:

القلب أضناه عشق الجمال

والصدر ضاق بما لا يقال

يا ربّ، هل يرضيك هذا الظمأ

والماء ينساب أمامي زلال

–هذه من رباعيات الخيّام، أحفظ منها ما غنّته أم كلثوم. أشهر المطربين العرب. أعلنت في ثقة وفرح.

حنّاء الغضب خضّبت وجه أبي، وردة فعله سخرية مرّة لإهانة شاعره الأثير:

– أنتم العرب تحفظون الشعر من الغناء، معظمكم لا يعرف عمر الخيّام إلا من الرباعيات، يجهلون أنه فيلسوف وعالِم، وضع حساب المثلّثات، وبرع في الفلك والرياضيات والتاريخ واللّغة والفقه.

أزعجتني حدّة أبي لكنّك لم تغضب. تلميذ أمام أستاذه جلسْتَ منصتا. استطرد في الحديث عن شاعر يعشقه. استعاد أحاديث افتقدها في اغترابه، ومجلسا عجّ بالسمّار والزوّار إلى ما بعد العشاء. كانت عباءته الحريرية فوق البدلة تحمل توقيع مصمّمها، وكحواتي تنقّل مع زواره بين العلوم والآداب والأخبار، وسخط على الملالي حين صنّفوا صوت النساء عورة، وأسكتوا المذيعات خوف الفتنة.

حملنا أبي إلى مهجر لا يضيق بالنساء.

انخراط أبي في إنجاح مشروعاته في لندن ضيّق مساحة الحنين والمعارف. ونأى به عن أيّ تجمّع للأفغان في بريطانيا.

لا خروج من عباءة الماضي إلا بخلعها. ولا يمكن لماض أضاءته السطوة والمنجزات، وازدان بالعارفين المقدِّرين، أن يسطع في غير بيئة أشرق فيها، فيصير أمام المغترب خياران، النسيان وولوج أبواب جديدة حاملا ذكرياته، أو يغلق الباب وراءه ويبدأ من حيث لا يهمّ الماضي في حاضر وموطن جديد.

يلتقي أبي أحيانا زعماء قبائل، وزراء سابقين وقلّة من جنرالات هربوا بثروات كبيرة، والزعماء في منافيهم لا يقدّمون التنازل الأول. الكرامة المجرّحة تتخدّر بالشكليات، والمبادرة في التعارف بين من فقدوا أدوارهم اعتراف بدور للآخر كان.

حفلات السفارات الأجنبية ساحات استعراض لأسماء فقدت بريقها، لكن الصدف المصنوعة ظلّت أكثر جذبا لمن يعتقد بأهميّته، فكثر الوسطاء لترتيب الصدف وتدبير اللقاءات.

في كامل أناقته واستعداده للخروج ينتظر أبي اتصالا من سائقه بعد أن طاف بالفنادق الكبرى وكشف من في صالاتها من رجال الأعمال البارزين، وحين يحدّد أبي هدف ذلك اليوم، يدلف صالة الفندق في شموخ راسما دهشته لوجود الضيف... يعيدان التعارف ويتداولان الأخبار، ويفترقان على موعد جديد وكل منهما يعرف أنه قريب.

أدرك أبي أن لا زعامة في الغربة سوى للمال، عمل بهمّة شاب، ناوش الماضي بقليل من الذكريات مع رجالات صالات الفنادق وظلّ بيته مغلقا دونهم.

سنوات الغربة الأولى خوف وشك، خشينا من جواسيس الملالي وكتّاب التقارير بين أسراب المهاجرين.

دخولك حياتنا والإصغاء إليه في شغف، والتغنّي بمعرفته فتح كوّة في عزلته. والأقنعة تخدع طويلا... وجه أتقن الاندهاش والإصغاء جلست أمامه ساعات كتلميذ مبهور، وكنت تنفجر ساخطا لا تريد سماع ما يخالفك حتى في خلافاتنا الصغيرة.

أتساءل ويزعجني الجواب، هل أحببتني يا منذر؟ وما الحبّ لك؟

المشاعر المتناقضة حيّرتني، أربكت فكري.. أتعبتني، الحب حرص لم يصمد أمام هواية مدمّرة لم تكبح جماحها، لم تفكّر سوى بمتعة المقامرة فأضعت كل شيء.

نور من الحبور أضاء وجه أبي.. إعجاب بك منذ اللقاء الأول. معلّم يفاخر بتاريخ عن شاعر يخصّه أكمل ما اعتقد أنه ثغرة في معرفتك:

- عمر الخيّام أحد أصدقاء ثلاثة، يافعين، جمعهم طموح العلم وحلقات شيوخ الصوفية، حلموا بالسموّ في مراتب مجاهدات النفس، أن يرتقوا بشهوات النفس إلى الدرجة السابعة، الكمال المطلق.

لم يلتفت والدي ولا أنت إلى ضيقي من درس تاريخ في لقاء أول بينكما.. كأنما انتظر من يصغي إليه. ما آلمني أنك تجاهلت وجودي في انشغالك لإرضائه وكنت بادي السعادة..

مضى أبي في قصة حفظناها منه صغارا عن ثلاثة أصدقاء اشتعلوا بالطموح، روّضوا نفوسهم بقسوة وإيمان، وترويض الذات مثل تدجين لبؤة في موسم تكاثرها. وقليل من استطاع ارتقاء سلّم المجاهدات إلى تمامه، ومن تحقّق له امتلاك الكمال صار شيخا لمريديه.

ثلاثة صبيان أصدقاء، طلاب في مجالس العلماء: عمر الخيّام وحسن الصباح ونظام الملك، تعاهدوا على الوفاء إلى نهاية العمر. وأقسموا أن من يصل منهم أوّلا إلى منصب نافذ يرفع سلّما لرفيقيه ليصعدا مثله ومعه.

يكبر الناس في اتجاهات لا تشبه ما أوحت به طفولتهم، تفرّقهم أحلامهم وطرائقها، وبالأحلام تشقي النفوس أو تسعد.

صغارا لا يملكون من حطام العالم غير طموح التميّز تشابهوا، وتحت سماء الوعد بالتفرّد في نهل العلوم توحّدت دروبٌ ثلاثة، وقمر الأماني بدر ونجوم تشعّ بوهج الرغبة في الكمال، ومجاهدة النفس حرب مع الذات، فإذا انتصرت الروح على القلب والعقل ارتقت إلى الكمال وشفّت عن الصغائر، وسمت فوق الباطل وقبلت الاختلاف راضية.

يكبر البشر على فروقهم.... قلّة تتمسّك بما رأت نفسها عليه فتصل إلى غايتها، وكثيرون تجرفهم إغراءات الحياة ليصبحوا على صورة ينكرون فيها أنفسهم.

تفرّق الشبّان الثلاثة. أنجز كلٌّ ما اعتقد أنه الصواب، ولأن الصواب نسبي سار كلٌّ في اتجاه.

نظام الملك أول من تنفّذ منهم، ذاع صيته بين الناس شابا واعدا برجل دولة من طراز رفيع. عيّنه السلطان ألب أرسلان وزيرا له وقرّبه كثيرا، ثم انتقل وزيرا في ديوان حفيده ملك شاه يوم خلف جدّه.. شغلته أمور الحكم عن مجاهدات النفس فلم يتجاوز الدرجة الثالثة في سلّمها، توقّف عند النفس المَرْضيّة. قانعا بما أفاءه الله عليه من خير أفاض منه على الناس، علّق قناديل العلم في أرجاء البلاد، بنى مفخرة زمانه وما يذكره الناس بها إلى يومنا المدارس النظاميّة، وفّرت التعليم مجّانا لمن بزّ فيه. وهي أول مدارس في العالم كله طبّقت نظاما داخليا شبه مجانيّ لطلاّبها، وصرفت لهم الخبز والمال. وألحقت بها مكتبات ضمّت أنفس المراجع وأندرها. ومن المدارس النظامية تخرّج أنجب القضاة وأرفع علماء الإفتاء.

ولأن النفوس الكبيرة لا تتنكّر لوعودها، أكرم نظام الملك صديقيْه عمر الخيّام وحسن الصباح، وساند طموحهما بما استطاع.

لم تنتبه لضيقي من انسجامك رغم بعض الابتسامات الخجولة لتشجعني على الصبر بينما والدي مشغول بالحكاية عمّا حوله فأدهشني:

-الصديق الثاني عمر الخيّام، حدّد درجات الكمال في مجاهدات النفس بعلوم ومعرفة تخدم الحاضر وتعبر الزمان، فإعمال العقل في رأيه طريق لإسعاد البشرية.. والنفوس الكبيرة إذا ملَكَت رغبة العلم بعيدا عن هموم المعيشة، وتوّفر لها الوقت والمال، انشغلت بفلسفة الحياة، والبحث في كنه الكون وأسراره. منح نظام الملك صديقه عمر الخيّام الفا ومائتي مثقال من بيت مال خزينة نيسابور جُعْلا سنويّا، وفي رخاء

العيش تفرّغ الخيّام للبحث والتأليف، قام برحلات مضنية بين مراكز العلوم الكبرى وعواصم المعرفة في زمانها، سكن بخارى وبلخ وأصفهان، نهل ممن سبقه أو بزّه من العلماء والعارفين مريدا للكبار، أستاذا للمستزيدين، ولأنه ملك لغات زمانه غاص في أعماق علومها وبلغات أهلها وترجم الكثير منها، فأرسى قواعد الفلك والرياضيات والطب والكيمياء، لكنّ شهرة الخيّام الشعرية عند العامة طغت على إنجازاته العلمية.... وخراسان آنذاك أنجبت غيره من كبار العلماء، ابن سينا والخوارزمي والفارابي والإمام البخاري.

أسئلة حيّرتني قبل أن أكتشف معدنك، أن مصلحتك وحدها تقود خطوك.

لماذا جئت مبكرا؟ ثم شغلك درس التاريخ عن طلب يدي من والدي؟

عبقت رائحة المنثور من باقة الورود التي أرسلتها قبل وصولك.

أطريت ذوقك ، قلت لعلّي أخرجك من درس التاريخ

– أمّي فرحت بهديتك لأنها من الألوان المفضلة عندها.

شكرتني بحب، ولم يلتفت أبي لمقاطعتي، وظلت جوانحك معه وهو يسابق حضور الآخرين لينهي قصته.

وضعت هديّتك الأخرى علبة الشيكولاته الفاخرة على الطاولة. وما زلت لاهيا مع أبي.

لم أعد أحتمل لكنه لم يتوقف.. استرقنا بعض نظرات الحب في استسلام. ابتسمنا لقضاء لا يرد حين أكمل:

– الصديق الثالث حسن الصباح مؤسس فرقة الحشّاشين.. لم يتجاوز الدرجة الأولى في مُجاهَدات النفس، توقّف عند النفس الأمّارة بالسوء. أوفى الوزير نظام الملك بالوعد له فعيّنه في مناصب رسميّة رفيعة، وحظي بمكانة عالية ومتنفّذة. لكن النفس الأمّارة بالسوء لا تعرف الامتنان، امتلأت بالضغينة على نظام الملك لأنه في رأيه أحق منه بالجاه والقرب من السلطان، ولأن قلبه مغارة سواد، جحد فضله وأراد أن يحلّ مكانه، نفذ إلى دوائر مقرّبة من الملك ليحقّق هدفه، وبلاط السلاطين دسائس وابتسامات خادعة. وشى به فجرّده الملك من مناصبه، وأحلّ حسن الصباح مكانه. ولأن الحق نور لا يُحجَب تبيّن الملك الحقيقة لاحقا. أدرك ما ألحق بوزيره المخلص من ظلم، أعاد إليه الاعتبار والمكانة وعزل حسن الصباح.. فجمحت نفسه الأمّارة بالسوء برغبة الانتقام، واحترقت روحه بالحسد، والحقد الأسود نار حاولت حرق الناس جميعا.

اشترى حسن الصباح قلعة حصينة في قفر لم يعرف العمران، وفي رواية أخرى أنّه أجبر صاحبها على بيعها، وشكّل فرقة الإسماعيليّة النزاريّة من أتباع ومريدين من الدراويش، ودرّبهم على اغتيال من يعارضه. عرفها الغرب باسم "الأساسنز" المغتالين"، ثم تحرّفت فأصبحت الحشّاشين، وهم أول من بدأ الاغتيال السياسي في العالم.

ولأن النفس الأمّارة بالسوء لا تكفّ عن شرورها، تقدّم درويش من أتباعه من موكب الوزير نظام الملك، أسماله بالية وفي يده مسبحة كبيرة، نادى نظام الملك باسمه وطلب العون، توقّف الوزير.. سمح له أن يقترب، والنصل حاد اغتاله في مقتل.

ما آلمني في سنوات طويلة عشناها معا أن مشاعري وحاجاتي لم تكن أولوية لك، أنت محور ذاتك. ولم تسمح يوما إلا أن تتقدّم مصالحك على احتياجات من حولك.

رفض والدي تبرّمي:

- معك الحياة بطولها، ولن نكون معكما هناك.

شغلتك الشركة وأحلام الثراء بعد أن تركنا لندن، وجرفتني الأمومة والعمل حين عاونتك فيه، لم أفكر في ممارسة الطب، كانت أحلامنا تكبر، وتجارتنا تتوسّع، والنجاح جزء من حبّ واثق مطمئن.. سنوات طويلة من الرخاء أعمتني عن اكتشاف هواية بدّدت ما جنينا، وشقّت أخدودا في حياتنا لم نستطع ردمه.

*****

من نافذة مركز الحسين للسرطان.. والدواء يسري في شراييني نقطة نقطة، بينما ابتهال الشيخ النقشبندي ينعش بعضا من روحي، هطل المطر غزيرا.. أن تراقب المطر يناوش زجاج غرفة دافئة لا يشبه جنون الصبا ورغبة الركض تحته رغم البرد.

وأناقتي كاملة استعدادا للخروج معك. عبست سماء لندن، ثم هطلت مدرارا.

صرف أبي السائق وقال:

-حين تغضب السماء تكون البيوت ملاذ العشّاق، وحدها الأفلام تصوّر المحبيّن تحت المطر. أي مناجاة وعشق ودوش السماء يبهدل العاشقين، والسيارات ترشق ثيابهم ببرك الطريق. أو يوصلك السائق إلى الفنادق دون متعة المشي الحقيقية.

-لا تتوقف حياة المدن لقسوة شتائها، ولن يبقى الناس في البيوت لأنها تمطر.

لم يلتفت لمحاولات إقناعه، وابتسمت في استسلام حين أصرّ ان نبقى للعشاء معه.

خذل أبي حلم الهرولة تحت مزاريب المطر، وأنت لم تعترض، انتظرت أن نخرج أتعلّق بذراعك، نصرف السائق ونهيم. نتسوّق، تطير

المظلّة، تنبعج أضلاعها في الريح وتتكسّر، نضحك كثيرا والبلل ينهمر من معاطفنا الواقية، نحتمي بدفء مقهى أو مطعم. ونحتسي القهوة.

الرومانسية جوهر الحب، وزاده كلمة، لمسة، أو وردة.

في ثورة الاتصال والتواصل يحيّرني السؤال، في عالم افتراضي يعجّ بأصدقاء لا تعرف، قد يحفظون اسمك، أو يبدون الإعجاب لما كتبت، ينثرون الورود لمناسباتك والقلوب لصورك، يشاركون بوجه ضاحك أو حزين أو غاضب. أوميجو جاهزة لا عناء فيها. جوائز افتراضية رمزية ممن لا تعرف تزيّن صفحتك، باقات ورود وقوالب كعك لمناسباتك، تدمن عالمك الجديد مع غرباء حملهم الفضاء إلى حياتك.

يحيّرني الجواب، وأحمد الله أنها لم تكتسح حياتنا آنذاك،كنت ستدل على عواطفي وتستغل حبي أكثر، لأنني واثقة أنني كنت سأتصرّف كمراهقة تعشق لأول مرة، كنت سأمطرك كل لحظة بسيل من القلوب والورود لتدرك كم كنت احبك، وكم تسامح شغفي بك مع اختلافنا ومنذ البداية، ثم أدركت بعد فوات الأوان أن تنازلي عمّا أريد لأرضيك أيقظ فيك روح رجل يدور العالم في فلكه.

والسماء تتواصل مع الأرض بحبال المطر بدأتَ لعبة الشطرنج مع أبي.. كانت نقراته على زجاج النوافذ دعوة مجنونة للخروج، لكنّك لم تلتفت إلى الرجاء في عينيّ، كأنما نسيت وجودي.

في غرفة المركز وحدي، أطل على شارع استسلم للمطر وزحام السيارات، تمنيت لو أنزع أنبوب الدواء من يدي، وأنطلق إلى الشارع، أركض بين السيارات، أسابق المطر والمرض والشفاء.

أي شفاء وحلم الطبيب أن يسيطر على الانتشار فقط؟

الحب لا يقبل المنافسة. قلّبت كفيك كمن لا حيلة له في ما يحدث.. ضحك وجهك لفرض البقاء علينا دون حول منّا.

هزمك أبي وكشّ ملك وانتشى كطفل، وما زال عطري يفوح في الصالة جلست بجانبك، أطريت رائحتي، أخذت يدي في كفّيك معتذرا، وعدت إلى جولة جديدة.

- طموحه جارف. سيوفّر لها حياة كريمة ويصون غربتها... طمأن أمّي بعد خروجك، قليلا أخطأ أبي في حكمه على الناس وأنت منهم.

أنا صنت غربتي... وحدي، احتضنْتُ مدينتك فبعثت فيّ بعض دفئها، عمّان مدينة لا تمدّ ذراعيها، لكنها تحضن خوفك حين تحتمي بها.

خذلان الإيمان بشخص لا يقل إيلاما عن فقده. استغرق أبي كثيرا ليقتنع بحقيقتك. أنك مقامر أضاع كل شيء.

الإصغاء في إعجاب ودهشة يشيّد جسور التواصل، وأنت أجدت لعبة الاهتمام بما يقال من الآخرين وإن اختلفت معه. ورفضت اختلافنا بنزق وهيمنة.

همست أمّي بأن علي ان أفرح باهتمام أبي بك، فقلّما أظهر إعجابه بأحد إلى هذا الحدّ.

كان حفل زواجنا باذخا في حديقة بيت مهاب بين الأهل والأصدقاء ورجال أعمال وسفراء.

وبدت الحياة مشرقة بالحب والأمل.

قبل زواجنا بقليل، ألمح أبي إلى إنشاء فرع لشركة الأدوات الزراعية في عمّان.

وكنت تنتظر. قلت:

- بعد اتفاقية وادي عربة بين الأردن وإسرائيل، يحتاج فتح الأسواق الأوروبية أمام الإنتاج الزراعي علاقات وخبرة دولية، وعزرا يملك مفاتيحها.

لم أسألك يوما إن كنت تعرف قصّة شركة المبيدات الزراعية، ووراثة أبي لُلوكيل الحصري في الشرق الأوسط، وارتباطها بمراكز البحوث في النقب في إسرائيل، أو قصة التجارب على البشر، كنت واثقة أنك لو عرفت لألقيتها في وجهي وعايرتني بما فعل أجدادي، كما فعلت كلما عاتبتك أو أبديت دهشتي من تبدلك السريع في التعامل مع الإسرائيليين، وفي خلافات بيننا لم تتوقف بعد تدهور الشركة.

شريك ثالث دخل اللعبة في غور الصافي والتصدير من عمّان، أنعش الشركة وحقق أرباحا خيالية، اسمه الحركي "جمعة"، شبح شديد السطوة، ملك مفاتيح الأبواب المغلقة، لا عقبة في وجه صاحب سلطة، جريء، وفوق القانون، وصاحب آلاف الدونمات في غور الصافي.

قال أبراهام رغم عزوفه الدائم عن التعليق.

- قصتنا معه حكاية روبنسون كروزو وفرايداي لكن معكوسة، نحن رغم العلم والخبرات روبنسون كروزو ، لكن فرايدي بنفوذه وسطوته يعلّمنا ويقودنا.

جمعة ذلّل عقبات تأسيس شركة الأسمدة والأدوات الزراعية في عمّان، وسهّل وصول خبراء الزراعة من اسرائيل، درسوا التربة وأجود الزراعات وأغزرها انتاجا وحفروا الآبار الارتوازية وحدّدوا مواصفات الانتاج لأسواق العالم.

وجود عزرا ميّز الشركة إلى حين.

التقينا جمعة على مائدة أبي أثناء زيارة رسمية له إلى بريطانيا. يشبه صورته في نشرات الأخبار.

إغواء الثراء يغلّف القيم بسلوفان وشرائط ملوّنة، يزّين نعشها ويخرس نواح الضمير عليها.

وجود سارة وأبراهام لم يعد يثير التداعيات، توارت هجرة عائلتك ومآسي شعبك في تعاملك مع عزرا.

في خلافنا الطويل حول قضايا كبيرة، أو حتى على تفاصيل صغيرة، عايرتني بأسرار بحت لك بها في هيام العشق، عن العبيد والأملاك وتحالفات القبائل. وحده سرّ العائلة الكبير أبعدته عنك.. وأحمد الله أنّي حجبته. تجربة المبيد الحشري على البشر. ظل الخزي منه أكبر من رغبة المكاشفة مع أحد.

الآن لا أريد لذاك السر أن يطوى، ومعرفة حقيقة ما حدث من حق منار وحدها. طلبت فردوس ألا أشير إليه في روايتي، لكن من حقّ

منار أن تعرف ما جمّلت أمّي في حكايات الأسلاف، ومن واجبي البوح وأنا أسابق العمر.

كثيرا تفاخرت منار أمام أترابها بعائلتي، وأسهبت في تبجيل نسب جدّتها حفيدة الإمام، عن هالة إنسانية تدعو للفخر في صورة جدّ أكبر هو أول من أعتق العبيد في بلاده.. أردت أن أروي لها الحقيقة، قبل أن يصدمها بها يوما من يعرف، كما فعلت صديقتي الطفلة ذات يوم بعيد.

لا يغفر الفقراء حكايات التجبّر فيلوكون مرارة التنكيل بهم، يتوارث الأبناء الألم والحقد على ما قاساه أسلافهم، وينتظرون فرصة القصاص بالمواجهة أو بانقلاب الحال، أو الخروج من دائرة الطبقة.

البداية اتصال الجدّ مع كبرى الشركات متعددة الجنسيات داو كاميكالز، محاولة لاقتناص فرصة كبيرة من حلْمَ الملك بأن يجعل من بلادنا سلّة فاكهة لآسيا والعالم... نشط زعماء القبائل ورجال الأعمال في استصلاح أراضيهم.

- نحتاج الخبرة والعلم، أما الطبيعة فلم تبخل علينا بشيْ، مناخ متنوّع وتربة خصبة وأمطار غزيرة وأيدي عاملة رخيصة... قال الملك.

توافد الخبراء من مهندسي السدود والشركات الزراعية متعدّدة الجنسيات إلى البلاد. درسوا التربة والمناخ، قرروا المحاصيل الصالحة لكل منطقة. روت السدود مشاريع التشجير. ربح رمّان قندهار المذاق الأول في العالم، وثقلت الكروم بأنواع العنب، جفّف الناس محاصيلهم وعلّبوها في مصانع بناها الملك. لكنّ ربيع الازدهار كان قصيرا، أطاح

الملالي بالملك.. فشاخت السدود وأهملت المزارع وتبعثرت أحلام المزارعين بغزو أسواق العالم.

تتعرّى الأسرار فتخدش براءة الاعتزاز بالسلف، سواتر كثيرة انهارت باختلاطي بالفلاّحين، تكشّفت أسرار العائلة من كلمات موحية أو بغمز مؤلم أو مواجهة.

كبيرة تفهّمت قسوة الفلاحين يوم تقرّبت إليهم، تسامحت مع ما أغرقوني به من جفاء الإشارات. كأنما انتظروا فرصة أن يقترب منّا أحد. قذفوا في وجهي ما امتلأت به صدورهم. بل انقسموا... من رأى أن الحقيقة في وجه القادر انتقام عادل إذا حانت الفرصة حتى ولو كان طفلا، سلّم يتجاوز أسوار الطبقية فيلطم بها الضعيف وجه قادر ينكرها، صحيح أنها طفلة، لكن الحقيقة ستكون صفعة في وجوه غرماء تحجزهم البوابات والأسوار، ليعرفوا أن العبودية حريق أحشاء متوارث.

قليلون ابتعدوا صامتين. لا أدري هل كان رفقا بطفولتي أم جزعا من المجاهرة.

قصص الظلم تشابهت. ليلتا رعب تركتا جرحين غائرين في ذاكرة جمعية ألقوهما في وجهي.

الأولى ظلم بيّن لكل من عمل مع الجدّ.

تحت أستار الليل بدأت الحكاية، لفّ نعاس القرى وما حولها سكون عميق، شبّ اللهب فجأة فأنار سواد الهدوء، نار جائعة تطوي الامتداد حولها- بدأت من حقل جدّنا الأثير، دونمين خلف سور الدارة،

مسيّجة يتناوب على حراستها شباب مسلّح. عشق الاشتعال زهرات خشخاش تباهت صباحا باكتمالها وانتظرت القطاف.

ولاغتصاب النار للزهور نعيق، ولتقصّفها رهبة جنازة.

سرّ النار لم يعرفه أحد، فقط عجز الرجال عن اخمادها رغم الضجيج والماء والمحاولة. ورائحة المخدّر عبقت للمحرومين من الكيف... لم يرحم سوط الجدّ أحدا، عذّب الحرّاس وأهان العاملين ومن اقترب من الدونمين، ولا تفسير للنار.

في روايات الفقراء عن ليلة الرعب أنها انتقام السماء من جبروت الظالم، ربما من شرارة أرسلها نجم أو قمر، أمّا في قانون القادرين فالسماء دائما إلى جانبهم، تصفح عن خطاياهم، كبيرها قبل صغيرها، فالشر صناعة الفقراء، وليد الحقد على من يملك، والغيرة من الجاه والمكانة... أما الرواية الثالثة فلا تحديد للفاعل، ربما زعيم من منافسي الجدّ اكترى من يحرق موسما بأكمله انتقاما ممن تعدّى على نفوذه، أو شاركه إهداء الحشيش للكبار في كابول وجني ثمار الهدايا.

في مرّات نادرة عاد والدي إلى القصّة، أكد أنّ جدّنا الأكبر لم يجرّب الحشيش يوما، ولم يكن تاجر مخدّرات أو مخالفا للقانون بل زعيما غلوازيا مؤمنا يرى الحرام في كلّ تجارة تضرّ الناس، الميسر والخمر والحشيش، أما زراعة الكيف للمتعة الشخصية فحريّة شخصية. وحصيلة الدونمين من أجود أنواع الحشيش تذهب هدايا للمتنفّذين من الأصدقاء وبناء على طلبهم، ولم تقترب من باب الدارة أبدا.

ورث أبي طقس مجاملة المتنفّذين في الجيش والسلطة بالخشخاش وحتى رحلنا. ولم تخلُ مزرعة إقطاعي أو رئيس قبيلة منه للاستعمال الشخصي أو المتاجرة.

- يحاسب الله الناس على ما تقرّره عقولهم، ويفعلون بإرادتهم. زرعنا الحشيش هدايا طلبها الأصدقاء، لم نجبر أحدا عليه، ولم يتعاطاه أحد منّا منذ أجدادنا... قال أبي.

يضيع إغواء غير المباح وتضعف سطوة الممنوع عند السماح به.

تقارير مصوّرة لا تتوقف على الشاشات عن آلاف الدونمات هناك زرعت بالخشخاش، وعن تجارة طالبان بها لشراء الأسلحة.

تلقي الذاكرة بالتجارب السيئة في قاعها، تنكرها وتتبرأ منها. ترفض استحضارها. تراكِم فوقها ذكريات أقل إيلاما.

الحكاية الثانية لا تلمّح إليها العائلة، بل تتجاوزها بتغيير الموضوع بسرعة إذا اقترب منها أحد.

هي ما أريد لمنار أن تعرفها.

عار أبعدته عنّا العائلة ما استطاعت، وكشفته زياراتي المتمرّدة لبيوت الفلاّحين.

بعد مأدبة فاخرة في الدارة وافق الجدّ ووزير الزراعة ومدير شركة داو كاميكالز على تجربة مبيد جديد أنتجه مركز بحوث الشركة. ثورة علمية زراعية تكافح دودة القطن، وستنقذ معظم المحاصيل، لكن لن يطرح في أسواق العالم قبل ضمان سلامته على البشر، وضبط الجودة.

كم قدّمت الشركة لهم؟ لا أحد يدري، لكنّ الجدّ ذلّل العقبات، أقنع زعيم قرية باكستانية محاذية لحدودنا لتجري الشركة تجربة مشتركة مع القرية المحاذية لها في بلادنا على بعد كيلو مترات قليلة من الدارة... القرية الباكستانية نائية نسيها وطنها والعالم، يطارح الفقر أيامها، ربطها ببلادنا حبل سريّ من أحراش لم تعترف بالسياسة. ممر للتهريب، بضائع وسلاح ومخدّرات، ثم البشر الهاربين إلى بلاد العالم، أهملها حرس الحدود، وغاب الجنود خوفا من بطش المهرّبين ووحوش الغابات ووعورة الدروب حتى ذاع صيت الممرّ بين مهرّبي اللاجئين... أوقع رجال الملالي الكثيرين قبل نجاتهم. وأحكموا الرقابة على الممرّ، فضاعت فرص النجاة من أسلم الطرق وأقصرها إلى مطار كراتشي والعالم.

حفلات الكبار عقود أوّلية، صفقات لاستغلال ما منحته الطبيعة للمحرومين، خيرات دفينة لم يعلموا بها حتى وصل صائدو الثروات فرفعوا شعارات تحقيق فرص العمل للعاطلين، والرخاء لمن يعمل معهم.

على عشاء كبير باذخ لكبار موظفي الدولة والإقطاعيين وزعماء القبائل، شرح مسؤول التجارب العلمية في "داو كاميكالز" أهمية إنشاء شركة "للمبيدات والمواد الزراعية" في بلد جادت الطبيعة عليه بمقوّمات النجاح. قفزة نوعية إلى الحضارة والثراء في بلد مؤهل ليكون من كبار المنتجين والمصدّرين في العالم إذا استبدل الزراعة البدائية بالعلم، والمواسم التقليدية بالزراعات المتعدّدة والبذور المهجّنة، وقاوم الآفات بالطرق الحديثة.. وإن لم يفعل سيظلّ بلدا زراعيّا فقيرا تحت رحمة

الطبيعة وسطوة الآفات الزراعية، والشاهد التهام دودة القطن لثلاثة مواسم من القطن أضاعت جهد العمال وتركتهم أكثر فقرا. ووعد أن تبني الشركة مصنعا لإنتاج المبيدات بخبرة عالمية يشغّل مئات الفلاحين بعد تدريبهم، وتعليم أبنائهم النابهين مجّانا في دورات تعقدها الشركة ثم توظّفهم.. وستجرّب الشركة المبيدات الجديدة قبل طرحها في الأسواق أو تصديرها لضمان السلامة.

بإيعاز من الجدّ ولقتل شكوك الحاضرين سأل أحدهم: وما ضرر المبيد على البشر، لا نريد تحسين الزراعة مقابل حياة الناس.

كأنما تفاجأ مسؤول الشركة بالسؤال ردّ:

- لا خوف على البشر، نجرّب المبيد على البشر بعد تجربته على الحيوانات مرّات ونتأكد من سلامتهم، وتجاربنا لا تتوقف في مختبرات الشركة، نحن مسؤولون أمام الله وضمائرنا قبل محاسبة القانون. جرّبنا بعض مبيداتنا على قرى هندية وكانوا سعداء، وأجزلنا لهم العطاء، ولا مانع عندهم من تجارب أخرى، لكن نتيجة لتوتّر العلاقات بين الهند وبريطانيا انسحبت الشركة من هناك.

ران الصمت، لم يكن الحاضرون على دراية بتجارب المبيدات على البشر من الشركات متعدّدة الجنسيات، بل كثير منهم لم يكن قد سمع أن الفئران ضحايا مراكز البحوث ومختبرات الجامعات.

-لم تسمعوا بالتجارب لأن آثارها على البشر معدومة. وبعد أن نجري التجربة على القريتين سيطمئن الناس على حياتهم، نريد لهم أن يتأكّدوا من حرصنا على سلامتهم وعلى البيئة قبل بناء المصنع.

لم تكن فضائح الشركات متعدّدة الجنسيات واستغلالها للفقر المدقع في القرى النائية قد خرجت عن نطاق العلماء بعد، ولم تكن مجموعات "الخضر" Green peace قد نشطت وناهضت استغلال البشر وتلويث البيئة.

هل صدّق جدّي ما قالوه فلم يتأكّد مما حدث للقرى الهنديّة؟ أم أسكت المال وخز الضمير مع الوعود بفتح الأسواق العالمية أمام انتاج المصنع؟ كان المهم أن تثبت التجربة سلامة من يرشونهم به. ثم تطبع جملة سحرية صغيرة على أغلفة المبيد، "آمن على البشر"، كلمة سحرية مثل "افتح يا سمسم" في قصة المغارة وعلاء الدين قرأناها صغارا. "آمن على البشر" دون أن يهتم أحد على أيّ من البشر جُرّب ومتى؟ ومن تابع أحوال من جرّب عليهم؟ ومن اهتمّ بالحقيقة؟

موت الفقراء لا يعني سواهم.

في ليلة شتائية وكنت وحدي مع أبي سألته عن حقيقة ما سمعت، روى ما يعتقد، وطلب ألا أعود إلى الحكاية مرّة أخرى قال:

- وافق أهل القريتين على الخضوع للتجربة، لم يجبرهم أحد بعد إعلان الشركة أنها ستدفع أجرا لكل فرد يشارك.. تنافست العائلات على تسجيل أفرادها، الطفل قبل الكبير... وما يثار حول الجدّ غيرة من نجاح متواصل، وحسد لاعتماده ممثلا لكبرى الشركات العالمية في مجالها. أمّا كيف اقتنع الباكستاني وبأي ثمن؟ لم أعرف يوما.

أردت أن أصدّق.

وفي رواية المقهورين حول الدارة أن ساحة ترابية واسعة فصلت أكواخ القرية الباكستانية عن حقول القطن الشاسعة، امتدّ بياض زهورها فغالب تموّج العروق الخضراء، غزتها ثقوب صغيرة اعتدت على لمعان الأوراق ونهشت تيجان البياض، افترس الدود الرجاء وهدّد المال للموسم الرابع.

خرجت القرية إلى الأرض الفضاء، خوف الأطفال من الغرباء احتمى بالآباء، بينما تسابق آخرون إلى ما ظنّوه لعبة جماعية.

هدير طائرة الهيلوكبتر أثار زوابع التراب، والعيون تابعت طائرا سحريا يتّجه صوبهم، يتقدّم دون أن يتعلّق بالسماء أو الأرض... وكل ما عرفوا سابقا أن التحليق لطيور السماء وبقدرة الله، وأن الطائرات الورقية تنطلق مع الخيوط. طارت أغطية رؤوس النساء وعمائم الرجال، وحدقاتهم مفتوحة تابعوا الطائرة في ذهول حين داهمهم مطر من خراطيم تدلّت من أبوابها، ورشّتهم بسائل ورائحة خانقة، أغرقتهم بالبلل وابتعدت، وقطعت الحدود إلى القرية الأخرى.

شق الصراخ السماء مع احتراق العيون بالمطر، فركوا عيونهم من الرذاذ فازداد الألم اشتعالا، والسعال اختناق بالرائحة، وبكاء الصغار رعب، والهرب بلا اتجاه. الثياب التصقت بالأجساد المبلّلة، تساقط الشيوخ من رائحة قبضت أرواحهم، تصادموا في نفير لا يبصر، عادت الطائرة ورشّتهم من جديد ثم تجاوزت إلى حقل القطن فسكبت المطر فوقه، تساقطت الأجساد بين سعال ووهن وتكوّمت على البكاء.

طاف الغرباء ورجال الجدّ بالأجساد المنهكة، أمروهم بمد كفوفهم، أسقطوا في هزال كل منها دولارا، الرضيع قبل الكبير ورحلوا.

بغناء وعزف في الدارة اكتملت المأساة، وزّعت الشركة الهدايا الثمينة على المدعوّين. ومنحت جدّي توكيلا عاما للشركة، والشريك الحصريّ والمؤسس لمصنع المبيدات.

أحزان الفقراء صبر طويل. وخيباتهم حقد يتفجّر حين تلوح الفرصة.

ما فقدت القرية من مرضى وشيوخ وأطفال أمر لم يسأل عنه أحد، لكنّه عاش في ذاكرة المحرومين.

قصص الجدّ الإقطاعي نامت في أكواخ الفقراء في انتظار القائها في وجوهنا، لنعرف أنّ آلامهم ما زالت تنهش ذاكرات مجرّحة.

لم يشفع لي أنني كسرت التقاليد وذهبت إليهم، كانت فرصتهم للثأر حين أحمل روايتهم إلى الدارة فأحقق لهم من المواجهة ما تمنعهم الأسوار عنه.

توقّفت صديقتي الصغيرة بعد لعب طويل.. وفي دهشتي انقلب الود بيننا حقدا في لحظة قالت: عائلتك قتلت الناس.

-كاذبة ليس عند والدي لا بندقية ولا حتى مسدس!

دفعت التهمة عن عائلتي بالكذب.

في خزانة كبيرة من الخشب والزجاج احتلّت ركنا من مكتب أبي، مسدسات أحدها بمقبض من الذهب حفر عليه اسم جدّنا الغلزاني

الأكبر، وبعض البنادق، نظّفها الخادم دائما وأعادها بحرص. صحيح لا أذكر أن والدي استعمل أيا منا، لكنها هناك.

في جرأة غريبة ركّزَت الطفلة بصرها في عينيّ وصارحتني بسر أثقل كاهلها منذ صادقتها:

- طائراتكم رّشّت الناس بالسم، فكبروا عميانا أو ضعاف البصر، لم يروا طائرة من قبل، ولم يقل لهم رجال جدّك أن يغلقوا عيونهم. وهم يدعون على عائلتك ليلا نهارا.

انقبضْتُ من أدعية تستجيب لها السماء، تحمّلنا وزر ما اقترف جدّ عرفناه من صوره فقط.

يكذب الصغار ليمنعوا سقوط القدوة، يقاومون تمزيق المثالية، أو يمسحون خيبتهم بالصمت.

بين خوف ورفض صرخت:

- كَذِب! جدّنا أعتق العبيد، وزّع أرضه على الفلاحين، ولهذا منحه الملك وساما الوسام في مكتب أبي، تعالي... سأريه لك.

أدارت ظهرها ومضت. وما زالت تلقي بالتهم على جدّي:

- بل كان ظالما، عائلات كثيرة هربت من ظلمه بعد ما فعل ببناتهم.

صور العاملات في الدارة، الكلمات المبتورة والغمز، ونظرات متوثّبة تعاير وتّتهم، وأخرى منكسرة أو رافضة في حنق.

ما قالت الصغيرة استحضر الشجار بين الخادمتين في المطبخ الكبير.. لمّحت إحداهن إلى ما كان يدور في المخزن بين الجدّ وجدّة الأخرى مما يؤكده التشابه الذي لا يمكن إغفاله بين الغلزانيين وأبيها.. أصاب شبشب المطّاط وجه الأخرى، وبكاء وشد شعور وسباب. هرعت نعمة إلى المطبخ.. طردت أمّي المتعاركتين من الخدمة.

المخزن والجدّ إشارات حيّرت طفولتي، وضحكات الخادمات المكبوتة بالقهر والأسى. وقصص استغلال وحقد لا تتوقف بين العاملات في المطبخ فسّرت لي حين وعيت تحريم أمّي علينا دخول المطبخ أو الاختلاط بالخادمات بحجّة المحافظة على قوانين الطبقة.

أنا كسرت قوانين الحظر في إغواء المخزن وما في سلاله، خالفت التعليمات المشدّدة بأن طبقتي تطلب ما تريد فتحضره العاملة وتختفي، وأن المسافة بين السيّد والأجير لا تسمح بتجاوز الحدود.

جلسات العاملات قصص مثيرة وحكايات لا تعرف الممنوع.

رغم العقاب والدروس القاسية في كلّ مرة اكتشفوا فيها دخولي المخزن، هربت إليه من جديد، فردوس ظلّت الأكثر تشدّدا في محاولات إقناعي بأن التبسّط مع العاملين يذهب هيبتنا ويفقدنا السيطرة عليهم.

فوق سلّم من أربع درجات وصلت السلال على رفوف المخزن العالية. جست في كنوزها، حشوت جيوبي باللوز والفستق وبعض الفواكه المجفّفة.

حين اكتشفوا عصياني للمرة الأولى أغلقت نعمة المخزن واحتفظت بالمفتاح. تعالى احتجاج العاملات فالحاجة إلى ما فيه لا تتوقّف. تركوه مفتوحا.

وأنا فوق السلّم دون أن ينتبه لوجودي أحد نشب شجار عادي بين عاملتين. خادمة طلبت من أخرى أن تحضر بعض الأرز والزعفران من المخزن لتكمل الطهو، رفضت الثانية لأنها تنظّف الأرض، وفي استنكار صاحت: لست معاونة لك، ولا أعمل عندك، قومي لحاجتك... غضبت الأولى، رمت ما بيدها واتجهت إلى المخزن، وعند بابه التفتت إلى زميلتها، ضحكت وصاحت: الله يرحم أيام جدّتك في المخزن، يقولون كانت تحبّه وتنتظر أن يناديها أو تسبقه كلما دخل المطبخ.... وفي لحظة، وما زلتُ فوق الكرسي، سحبتها الأخرى من شعرها وتدحرجتا في عراك بالأيدي والأرجل على أرض مبلّلة، تناثر السباب والشتائم. تدخّلت العاملات لفضّ العراك، وترحمن على جدّات غُلبن على أمرهن مع شبق سيّد متجبّر.

- الحمد لله أن السيّد مختلف عن جدّه... همست إحداهن.

- بل الحمد للخوف... اعترضت الأخرى.

- السيّد تربّى في حفلات جدّه، عاش معه منذ مات والده وهو طفل، وربّاه ليرث دوره. لكنه يخاف الشريفة. والله وحده يعلم ما يدور في كابول حين يكون وحده. ربما كان ممحونا بالنساء بالوراثة. وضحكت.

- يقولون جدّه لم يكن ينتظر من يختار حتى تغتسل من روائح الطعام، كانت حياته جمع المال والخمر وحفلات السهر والطرب، رجل بلا قلب، طرد شقيقه الدرويش وسرق أملاكه. مشرّدا عاش المسكين دون أن يعرف أحد أي بقاع الأرض حنت على اغترابه.

مال السلم بي.. أعدت التوازن، تنبّهت العاملات لصرير الحديد. عضّت أسنان الخوف على شفاه باحت بما لا يجب أن أسمع. وفي رعبها ارتفعت الأدعية بأن يحفظ الله الدارة ومن فيها من كلّ شرّ.

قالت إحدى المتعاركتين: حدّثتها عن زعيم عملت جدّتها في دارته فغضبت.

لم أعلّق، انسحبْتُ في رجاء العيون أن أصدّق ما قيل.

كرهت صورة الجدّ الكبيرة على الحائط، لحظات كثيرة تمنيت لو أمزّق صورته، وخشيت العقاب.

انقبض أبي يوم سألْتَه فجأة عن صلة محتملة لنا مع عائلة غلزاني الأفغانية في القدس مقطّبا قال:

- تتشابه الأسماء أحيانا، أو ينتسب فرع مجهول أو أحد الموالي في الغربة إلى عائلة عريقة من وطن هاجر منه، وكثيرا ما تُنسب العائلات في المهجر إلى بلدانها أو مدنها.

حين تفاجِئُك ذكريات تحاول نسيانها تردّ بعنف. ترفض الاعتراف بعلاقات اقتلعْتَ جذورها منذ أمد طويل ثم داهمتك في غفلة

منك، نبعت من ثنايا الأيام بلا توقّع، فتقيسها بميزان حاضرك، تتقبّل إحياءها أو تسدّ الطريق عليها.

أنكر أبي فرعا سحبته هجرته إلى مدينتك رغم أن كبير العائلة ظهر في حياتنا واختفى فجأة.

عرفنا قصة الرجل يوم سمح أبي لغريب أن يزورنا في المنزل. ربما خشي لقاءه في المكتب فتتناثر القصّة.. ربّما.

مهاب وأنا جمعنا حبّ الفضول وكشف الأسرار، وعاشت فردوس وعالِم في فقاعة الذات ونطاقها.. بالون حجز كلا منهما في عالم نأى به عمّن حوله، وجُبِلْنا مهاب وأنا على رغبة كشف الخبايا. وكثيرة الأسرار حولنا وفي عائلتنا.

لمحت مُهاب وراء بابه نصف المفتوح يتنصّت، سمّاه أبي "الراديو" منذ كان ينقل تفاصيل ما يدور في مجلسه إلى أمّي، وقصص الخدم والفلاّحين إلى الدارة. وقفت مثله وراء بابي، لم نستطع مقاومة الفضول لمعرفة ما وراء زيارة قريب لم نسمع عنه يوما.

قبل أبي في إلحاح أمّي وعلى مضض زيارة قريب بادر بالتواصل، وظلّ متحفّظا في استقباله.

نفث أبي حنقه مع خروج الرجل:

- لست مستعدا لنبش ماض لا أعرف تفاصيله. مجرّد حكاية باهتة بلا دليل

- يفتّش الناس عن جذورهم ليتفاخروا بها، وأنت شرف لمن ينتسب إليك. والرجل لم يشر إلى الماضي، كانت زيارة ودّية أراد التعرّف فيها إلى أسرتك.

في إلحاحها قبل زيارة ثانية للغريب فتكشّف سرّ آخر من دفائن العائلة، وأزال بعض الغموض عن قصة الدرويش شقيق جدّنا الأكبر، ممن اشارت إليه تلميحات العاملين أحيانا.

فشلت محاولات أمّي ليهدأ.

- أي مصلحة للحاضر في إيقاظ ماض غاب الشهود عليه؟ ألا يكفي الحاضر ما فيه من مشاكل؟ لست طريقه لما يطالب به. ليذهب إلى طالبان ومعظمهم من البشتون، لعلّهم يقدّمون له أرض أجدادنا، ويأخذ نصيبه من الخشخاش المزروع فيها، أما أنا فلا أريد أيّة صلة لي به أو بهم.

تتوارث العائلات قضايا الماضي ومشاكلها حقدا دفينا، رغم ما يغلّفونها بها من المجاملات ولقاءات المناسبات، تتوارث الأجيال قصص الخلافات والصراع بين الأخوة والأعمام وراء الجدران... ومن همس الآباء للأبناء تتوالد الضغائن على حقوق اغتصبت فعلا. أو لا إثبات عليها غير رواية الآباء:

- منذ وعيت وجميع أملاك جدّي باسم والدي ميراث لي. فكيف أتنازل عن أرضي لمجرّد إدّعاء غريب؟ فقط لأنه في بيتي تمالكت نفسي بينما تجرأ على جدّي ووصفه بالطمع والتدليس؟ ما أعرفه أن أرضنا كانت مشاعا حين تركها جدّهم وتاه في بلاد الله، وأنه

طالب بنصيبه فيها وأخذه؟ جدّهم تنازل عن أملاكه لأخيه وقبض الثمن، وساح في بلاد الله وانقطعت أخباره! طفلا أخبرني جدّي بالحقيقة ولن أبدّلها، أن أخاه كان شابا لاهيا مبذّرا مترفّعا عن متابعة العمل في الأرض، عاش محبّا للنساء والبذخ، طارد الجواري والخادمات ولم تسلم زوجة فلاح من تحرّشه. فضائح كادت تعصف بمكانة العائلة- وغَضَب الناس شرر توهّج تحت الصمت المقهور.. خافت العائلة من طيش وعبث لا يليق بها فأجبروه على الرحيل مع مال يكفيه. سنوات غياب طويلة ولا خبر، ثم توالت الأنباء عن تبدّل حاله حتى لم يصدّق أحد ما يقال عن زهده.. عشق غانية تمنّعت عليه فضاق عالمه في اشتهائها، وحين تملّكها بالزواج عافت نفسه سواها... وفي رواية ثانية أنه وقع تحت تأثير شيخ انتشل روحه الهائمة من الضياع، فنذر نفسه للعبادة وغالى فيها ليغفر الله ثقل الماضي ومعاصيه. درويشا في حلقات الذكر صار. حاول جدّنا استعادته فأذهله حاله وزوجته، استبدل العباءة الحريرية بخشن الصوف، خلت أصابعه من خواتم الذهب. زاهدا في نعيم الحياة طالب أخاه أن يحقّق أمنيته بالحجّ مع زوجته إلى بيت الله.

التقت الروايات كلّها عند الإعداد لموكب حجّه إلى مكّة، وعلى اتفاق الشقيقين على أن نفقات سفره ثمن لحصّته في الدارة والأطيان حولها.

في رواية حاقدة أن جدّنا التهم حصة أخيه بأبخس ثمن، صحيح أنّه أعدّ له موكبا ضخما من مريدي الدرويش وعائلاتهم وتكفّل

بنفقاتهم، مع مبلغ يقضي حاجاتهم، لكنه مبلغ لا يقترب من ثمن ربع الأرض.

وفي رواية أبي أن الأرض لم تكن تساوي ربع ما تكفّل به الجدّ لأخيه، لكنها حسنة وصدقة، والأقربون أولى بالمعروف.

لا صكّ مكتوبا ولا أوراق، لا تنازل عن الأطيان أو بيان قيمة ما قبض الدرويش، فقط تناثرت الحكاية من روايات الشهود وتلميحات العاملين والفلاحين.. قالوا إنّ جدّنا الأكبر خرج في وداع أخيه الدرويش ووزع النقود على المودّعين كفّارة طريق. وانطلق حجّ الدراويش في موكب لم تعرف المنطقة أكبر منه، وسط ابتهالات وبخور وأدعية.

لم يعد الدرويش ولا من رافقوه.

ما بين الحجّ إلى مكّة والانتقال إلى القدس حلقة ضائعة... لم يعرف أحد متى اختار الدرويش ورفاقه ختم حجّتهم بزيارة الأقصى. ولماذا عاش في المدينة وكيف صار تاجرا كبيرا بين أهلها؟ ما عرفوه أنه كان أمينا، عاش وأهله في وقف كبير في باب الزاوية بجوار الأقصى.. عشق القدس فبادلته الحب. تناقل بعض التجار أنّه بدأ يستورد السجّاد والتحف الفضيّة والخزفيّة من البلاد وباكستان وفارس وأن الله أكرمه في تجارته.

نسي الناس الدرويش في تعاقب الأجيال وعواصف السياسة في البلاد.

ترك أبي اسم الغلزاني المقدسي عند حارس بوابة المجمّع ومنع دخوله.

-كيف أقدّم ما باعه جدّهم إلى جيل رابع لا يعرف الأرض ولم يزر الوطن ويطالب بها؟ ولا دليل لديه غير روايات حقد متوارثة؟

-يعيدنا إليها ونعطيه بعضها. قالت أمّي في أسى.

كأنما وقف وسط الدارة واستعاد ما حولها شدّد على كل حرف:

- لن أفرّط بشبر من أرضي لأي كان، الملالي والعسكر زالوا وطالبان إلى زوال، شعبنا مثقف ولن يرضى بمن يسحبه إلى الجهل، لكنها مسألة وقت.

طال الوقت أكثر من مساحة الأمل. ولم يعد الغلزاني المقدسي ولم يتّصل.

*****

صورة للجد صغيرة بالأسود والأبيض في إطار فضيّ حملها أبي ليلة رحيلنا مع وسام الملك، توقّفتَ أمامها في زيارتك الأولى، روى لك بافتخار قصة إعتاق جدّه للعبيد كفّارة وإنسانيّة.

كثيرة الإشارات الموحية في حياة الجدّ ورثناها في الدارة فروت جانبا من حياة له لا نعرف. أكواب الكريستال الفرنسي الفاخر الملوّنة بأحجام وموديلات مختلفة في خزائن زجاجية على طرفي قاعة الطعام، موشّاة بماء الذهب وبعض الأحجار شبه الكريمة، ورغم جمالها وقيمتها منعت أمّي استعمالها لنا أو لضيفاتها. خرجت الأكواب لضيوف أبي وفي جلساته الخاصة. همست الخادمة: تعتقد الشريفة أنها تنجّست بالخمر، غسلناها سبع مرّات للطهارة فظلّت على رفضها لاستعمالها لعائلتها.

في تواتر أخبار التحريم حيّرنا مصير ما تركنا. هل أدرك من نهب الدارة قيمة ما في القبو الكبير؟ وأين انتهت تلك الكنوز؟ سؤال عذّب أمّي.. وكلّما ألقته في وجه أبي طال صمته المقهور. هل عرفوا قيمة لوحات كبار فناني العالم، أو تحف العاج والسجاد وأطقم الفضة وثريّات الكريستال؟

مهدّما بحزنه قال أبي بعد عودته من دفن أمّي في مزار شريف حسب وصيّتها، وبإذن خاص من الرئيس حامد كرزاي.

– لم يبق من الدارة غير جدرانها، وزّعوا ما فيها غنائم حرب بعد أن قتلوا الحارس. قال الفلاحون هرّبوا بعض اللوحات والسجّاد عن طريق باكستان. لكنهم حطّموا تحف الكريستال اللاليك، وكل ما هو على شكل حيوان أو إنسان، صبّوا الشاي المغلي في أكواب الكريستال الملوّن فتناثرت، مزّقوا كلّ لوحة أو سجّادة تصوّر بشرا أو وحوشا، يقولون إن الله يوم القيامة سيطلب ممن رسمها أو اقتناها أن ينفث الحياة فيها فيعجز، فيلقيه في النار. ربّهم جبّار مثلهم.

حين تغضب فردوس يكتسي وجهها حمرة قانية.

همسْت لها بما قالت صديقتي الطفلة عن رشّ الناس بالمبيد، وما دار في شجار الخادمتين.

هزتني مرارا وأثبتني لاختلاطي بمن هم دون مرتبتنا، وأنني أنسف مكانتنا بالتبسط مع الفلاحين والخدم. وأنني مشكلة العائلة فعلا.

حضنت أمّي حيرتي قبل النوم، قالت:

– بل هي روايات الحسد ممن لا يملك على من رزقه الله. جدكم كان كريما مؤمنا جمع ثروته بالحلال. أمّا الفتيات فممّن ملكت أيمانه مثل باقي زعماء القبائل والإقطاعيين، والرجال كانوا عبيدا ورثهم، لكنه أعتق الجميع طوعا ولوجه الله، ومنحهم بعض أملاكه.

ورأسي في حضنها مسحت شعري: لهذا لا أريد أن تختلطي بهم. لا يشبهوننا، ولا يقدّرون التواضع، إذا اقتربنا يظنّون أنهم ارتفعوا إلينا! أهذا جزاء ما نقدّم لهم؟ يعملون في أرضنا بأجور عالية، وبنينا مدرسة لأبنائهم! لكن.. من اعتاد العبودية يتنمّر في وجه من يفلت قيده

وينقلب خطرا عليه. لو كانت صديقة فعلا لما أساءت لأسلافك بالأكاذيب وإنكار الجميل. لم يرشّوا الناس بالدواء، وما زالت الشركة بإدارة والدك تعتني بالأشجار المريضة، تكافح الحشرات والآفات، ولولا ما يقدّمون من خبرات وبذور لمات الفلاحون جوعا. يكفي أنهم قضوا على دودة القطن بعد أن التهمت محاصيلهم سنوات عديدة.

عدوّة جديدة لي صارت دودة القطن. صغيرة تعيش في التراب، تخترق زهرات القطن فتقطع خيوطها فلا تصلح سوى علفا للحيوانات، وتهاجم البندورة والفواكه، ولولا شركة أبي ستختفي الفواكه التي أحبّ.

- لو كانت صديقتك لما سبّبت لك هذا الحزن... وضمّتني إلى صدرها.

صدّقْتُ طفلة أن المصاحف لأبناء الفلاحين في الكتّاب الصغير مدرسة تعلّمهم، وأنّ الكتب القليلة منحة سخيّة من والدي وأجداده، وعلى الفلاحين أن يسبّحوا بالحمد لشيوخ الغلوازيين.

مع الصباح أطلّت صديقتي الصغيرة من بين قضبان البوّابة المغلقة.. لعلّها نسيت ما قالت بالأمس. يتجاوز الصغار مناوشاتهم. أخبرت الحارس أنها جاءت للعب معي فأمرته أمّي بطردها. حائرة بسر الجفاء لمحتني في الشرفة.. نادتني ولوّحت لي.. لم أردّ بل تابعْتُ ابتعادها المهين، والحارس يحذّرها من الاقتراب من الدارة مرّة أخرى.

مرارا تذكّرت تلك الطفلة.. وجهها الحائر في نكراني لها.. خيبتها وهي تبتعد.. كانت طفلة جميلة وذكية رغم فقرها.. تخيّلت مصيرها

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتمل. زوجة أحد المقاتلين في كهوف تورا بورا.. هل ما زالت حاقدة على الدارة وأهلها بعد ما حدث للنساء هناك؟ أستحضر صورتها وأحزن، وأعجز عن تصوّرها صبيّة في شادور وبرقع. كانت جريئة ومقبلة على الحياة فماذا فعلت بها؟

قال أبي بعد عودته من دفن أمّي: صادروا شركة المبيدات والأدوات الزراعية بعد خروجنا. اغلقوا المصنع وسرّحوا عمّاله.

قليل من البشر قادر على أن يطوي صفحة من حياته بعد انتهائها، ويفتح طريقا جديدا يحقّق فيه ما يستطيع.

أبي لم يقلب صفحة السياسة، كثيرا عاد إليها دون أن تعطّل نجاح رجل أعمال بارز.

بداية الثراء في لندن بوتيك لملابس النساء من الماركات العالمية في أكسفورد ستريت حقّق نجاحا لافتا، فتوسّع بقسم لملابس الرجال الفاخرة، ثم امتلكت العائلة أكبر سوبر ماركت للمنتجات الآسيوية في شرق لندن، عمّاله هنود وباكستانيّون مهاجرون، تجاوز أبي التناقض في تشغيل المهاجرين ما دام لا يقترب منهم أو يعرفونه، أوكل الإدارة لضابط كبير لجأ إلى بريطانيا فحقّق له أرباحا هائلة، واعتقد كثيرون أنه مالك المتجر. وبعد سنوات قليلة تشارك أبي وعائلة سارة في شركة الموادّ الزراعية، ثم أصبحوا وكلاء لاستيراد المنتوجات الزراعية من العالم.

ورأسي على صدر أمّي شرحت لها مخاوفي من إنشاء شركة المواد الزراعية والمبيدات في عمّان.

هدهدت خوفي وقبّلت رأسي. وفي لحظة نادرة باحت بما تعرف عن شركة "داو كاميكلز".

أصابعها في شعري، ودفء صدرها يريح انقباضي بدأت بحكمة إنجليزية لعلّها من الإنجيل:

- "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون". كرما من الله أنكم لم تدفعوا ثمن ما اقترف جدكم، هي حسنات والدك لأنّه رجل طيّب، لهذا عوّضنا الله بعض ما خسرنا هناك. والدك لم يكن راضيا عن كل ما فعله جدّه، لكنه كان صغيرا ويتيما. أراده الجدّ على صورته، لكنه خُلق من معدن مختلف، طيّب مثل والده رغم أنه لم يعرفه، مات وهو في السنة الأولى فتزوجت أمّه وتركته. لم تحتمل تسلّط الجدّ واستبداده.. لكنّها ماتت شابة.

رواية أمّي عن المبيد تطابقت مع ما قالت الطفلة.

بلا مبالاة وأنت تثبّت ربطة عنقك قلت حين سألتُك عن تجارب المبيدات وتأثيرها على البشر:

-لولا التجارب على الفئران والحيوانات وبعض المتبرّعين من البشر لما حقّق الإنسان أي تقدّم علمي، أو تحسّن العلاج أو تطوّرت الأدوية، وتجارب المختبرات أخلاقية ومسموح بها.

ضحكت في صخب لفكرة خطرت لك:

- كأنك ستنضمين إلى جمعية الرفق بالحيوان؟ لن أستغرب أبدا.

لا تعرف عن تجربة المبيد إذن. ارتحت أن أحدا لم يذكرها أمامك. أكملت بينما عطرك يفوح حولي:

-الشركة الزراعية وتصدير المنتوجات الزراعية استثمار جيّد لأرض مهملة. آلاف الدونمات اشترتها عائلتي في غور الصافي دون أن تحاول استغلالها، ارتفع سعرها صحيح، لكننا سنجني ثروة من استثمارها في الزراعات الحديثة المعلّقة، وبعضها يحتاج تربة أقلّ والريّ بالتنقيط مما يوفّر المياه الشحيحة أصلا. والانتاج بمواصفات الأسواق العالمية بداية النجاح.

التمعت عيناك بالحلم وخرجْتَ مبتهجا. فكيف أضعت حلمنا؟

إغواء الثروة أطفأ وخز الضمير، خلق المبرّرات، نعست القيم ثم راحت في سبات.

وأنا حلمت بالثراء مثلك، وعمّان فتحت ذراعيها لنا.. زال خوفي من فشل الشركة، فتركت لك أحلامنا وحياتنا ومستقبل منار.

أحيانا كثيرة حاولت تبديد الخوف بالحديث عنه وكنت تنأى عن الخوف العادي. كأنك لا تأبه به.. حتى حين وصفت لك طريق الرعب في ليلة رحيلنا، عن خيالات عسكر يتربصون بنا ولا يظهرون، بلا رصاص ولا مطاردة لم تعتبر أنه خوف عظيم.

سحبت رأسي إلى كتفك وقلت:

- لا شيء يشبه خوف الهرب تحت القصف، وأنت تسابق من يريد حياتك.

وأعدت حكاية هرب عائلتك يا منذر الشرفا مع الآلاف من شعبك تحت زخّ الرصاص، ومطالبتهم بإخلاء منازلهم.. كأنما لتؤكد أن الخوف الفردي ضئيل أمام مأساة شعب، فخوف طفلة من أشباح حبلت بها دروب الهرب، ويريدون حياتها وعائلتها، لا يقاس بنفير الهرب من الموت المحتّم، وأن ذاك الارتجاف في المطار لا يقارن بالخوف من فقدان الحياة. وفاتك أنّ الخوف على الحياة واحد، وأن الرغبة في النجاة بحياتك ممن يلاحقك عليها واحدة.

أوراقنا في أيدي موظفي المطار حاولنا التصرّف على سجيتنا كما طالبنا والدي. أي سجيّة مع الخوف؟ أمّي على الكرسي المتحرّك ترتجف، وجه أبي اشتاق حمرة الدم.. اللحظات بين الحياة والموت دهور، بين الكرامة أو الذلّ.. الخوف من أن يتراجعوا عن السماح بسفرنا.

هروب الرعب لم يلقني في خيمة، لكنه فعل بمن حولي، وأعرف أن كثيرا من شعبك عاش وكبر وتعلّم في المخيّمات، لكنّهم في بلادي سحبوا الرجال إلى وعورة الجبال، والنساء إلى الاستعباد والذلّ الجنسي. لم أجرّب الجوع لكن كثيرا من أبناء بلدي عرفوا الفاقة، هام شعبك في قفار الخوف ومثلهم أبناء وطني، طاردتهم أشباح غالت في احتكارها لله. عدوك اغتصب منك الأرض، وأعدائي تخيّلوا أن الله أوكلهم بالناس والأرض فتجبّروا باسمه.

أنا وأنت حرمنا من الوطن، هرب أهلك من احتلال الغرباء لبلادك، وهربنا من تسلّط غرباء رسموا حدود الحرام والحلال فضاقت الحياة حدّ الاختناق. غلّفوا احتلال بلادك بأرض الميعاد، وغزا الغرباء بلادي لفرض الدين، اللجوء واحد، والاقتلاع واحد، وحين يجلّل

الخوف أفق الحياة، وتغطّي سحب السواد منافذ الأمان تتشابه تجارب الخوف.

كثيرا تمنيت أن تسمع خوفي من هواية أطاحت بحياتنا، سرقت منها مساحة الفرح والنجاح، ضحكنا كلما لعبْتَ وربحت في البداية، تقبّلنا الخسارات الصغيرة بل تمادينا في تعويضها، ومع المال الوفير ونجاح الشركة صدّقْتُ أنها مجرّد تسلية لكنّك عجزْتَ عن التوقّف. المقامرة متعة تضيّع الحسابات، هجمة الشهوة إلى الربح تطوّح بالعقل. متعة من يمارس السباق مع الحظ. لا حسابات في الصراع مع الحظ، لهذا لا يستطيع المقامر التوقّف. المقامرة لعبة الذات الفردانية والتوحّد، فقدنا الحب حين صرت محور ذاتك... لا يعيش الحبّ على قطب واحد. الحبّ فضاء كلّما اتسع مداره توهّجت نجومه وأضاءت سماءه.

بين زهور حديقة ريجنتس بارك وعلى المقعد الخشبي في المقهى الصغير قرب البحيرة، ونحن نستعد للزفاف قلْتَ:

- هاجم مسلحو الهاغاناه القدس الغربية فهربت عائلتي من القصف بينما مكبرات الصوت تطالبهم بإخلاء الدور والنجاة بأنفسهم. الرصاص طاردهم، وحين تصبح الحياة في كفّة والوطن في الكفّة الأخرى، ترجح كفّة الحياة إلا للشهداء والمقاتلين. وعائلتي مثل الآخرين بلا سلاح، ووعود الجيوش العربية أن عودتهم إلى بيوتهم خلال أسابيع قليلة. فقط عليهم إخلاء البيوت ليمكنهم الدفاع عنها. وفي الخوف لا يملك الناس إلا أن يصدّقوا. عائلتي أفضل حظا من جموع عاشت في العراء أو الكهوف أو المخيّمات. ثم عمل أبي في الخليج، وهناك ولدنا، أنا وشقيقتي هيام، وأكملنا دراستنا في أمريكا.

وطنك زاحمني كلّما خرجنا.. فكيف تنازلت عن ذلك الانتماء في إغواء المال؟

أشجار غضبك ارتوت بمعاناة أهلك وما فقدوا، ووطني قصص طفولة سعيدة سرقتها صراعات غرباء استباحوا البلاد وتجبّروا في العباد.

سألتُك عن طفولتك. قلت: لا شيء مثير في مدن رفاه مستحدث تبحث لها عن هويّة، كانت الأشياء البسيطة متعة كبيرة، المدارس الأجنبية والنوادي القليلة.

وأنا حياتي هناك كانت تتوالد بالدهشة والتنوّع.. لعب ومرح وانطلاق قبل أن يقلبها الخوف توجّسا من إغفاءة الشمس، من حفيف الشجر، وطقطقة الأثاث، وظلال رسمتها أضواء الفوانيس ولامبات الكاز.. تشدّد الحراسة وتأنس لنقيق الضفادع وأزيز الزرازير لأنها تؤكد لك أن لا أحد يزعج مكانها أو يقترب منك.

أنهيت مكالمة عادية مع عميل كان يمكن تأجيلها.. أكملت في إصرار ما توقفنا عنده. أشياء كثيرة كانت مؤشرا على أن ذاتك هي محور حياتك، وأعماني الحب عن تقدير خطورتها، فتسامحت معها.

- التركيز على المآسي الجماعية تضيّع القصص الفردية، كلّ منها تستحق أن تُعْرَف، ومن حقّ صاحبها على الحياة أن تتوقّف عند معاناته وحده، وبمعزل عن المأساة العامّة حوله، قصص الأفراد تكمل الصورة البشعة للحروب، الشعور الجمعي يختزل المشاعر الفردية، هجرة، تشريد تجريف، قتل.. وكلها تطمس معاناة ومشاعر أفراد عاشوها دون غيرهم رغم التعاطف معهم.

ونحن عند حافة المقهى الصغير وأمامنا لافتة: "يُرجى عدم إطعام البط أي شيء تحت طائلة القانون". رميت قطعة كعك لفراخ البط في البحيرة... فاجأك سؤالي :

- منذر، ما رأيك في جدارية غيرنيكا لبيكاسو.

- تأكيد لرؤيتك عن أن الصورة العامة للحروب تختزل مآسي الأفراد. لكنّ عبقرية بيكاسو أنه صوّر الحرب الأهلية الإسبانية بالتركيز على المعاناة الفردية للناس، فتشكّلت من المعاناة الفردية جدارية الهول الجمعي.

*****

كثيرة صور الخوف في ليالي قبل الرحيل.. أريد لمنار أن تعرف أن الحياة في الدارة لم تكن سهلة ووردية كما في لندن. تكدّرت وتهدّدت بعد أن فقدت الزعامات مكانتها، ومع طوفان الجهل والتعصّب.

أسابيع رعب سبقت قرار رحيلنا. عينا أمّي التصقتا بالباب كل الأوقات حتى عاد أبي. منعت أطفال الفلاحين من دخول الدارة، وتجنّبت أصدقاء طالما رحّبت بهم.

أغلقت علبة الشطرنج ودسّتها تحت ثيابها في الخزانة. أحرق الحارس طائرات الورق القديمة والجديدة أحضرها أبي للسباق السنويّ. سوّى الحارس الرماد بصندله. مسح مُهاب دمعتين لنار التهمت طائرة صنعها فنّان متخصّص وسجّلت فوزه الأول، وأخرى لعالِم اشتبكت بشجرة الحور، يومها حضنت أمّي حزنه بعد خروجه من السباق، قبّلت رأسه قالت:

-الحياة سباق يحتمل الربح والخسارة. ستفوز في السنوات القادمة. ظلّ الحلم معلّقا.

-حرّموا الشطرنج والطائرات الورقيّة وألعابا شعبيّة أخرى... فسّر أبي.

لم أفهم خنوع زعيم قومه، ورضوخ سليلة الأشراف لغرباء يخشون طائرات الورق وتسلية الشطرنج.

توالت ليالي الرعب.

صياح هستيري وبكاء أطفال شقّ المساء والعتمة حول الدارة. دجاج انفلت من الأقنّة في زقاء مرعب، وصراخ رجال وبكاء نساء. قطيع ثعالب استقوى على الفلاحين العزل. والخسائر كبيرة.

-صادروا من الفلاحين حتى بنادق الصيد، لم يتركوا لهم غير العصيّ والمشاعل لتردّ الوحوش عن حظائرهم.

افزعتني كلمة "صادروا".

مداهمات الملالي للدور حولنا لم تتوقّف. قائد رجالهم فلاح اختفى من الدور حولنا فجأة ودون أن يعرف أحد مقدار كرهه لقريته. خان الأهل والجيران ليكسب رضى الله. اعتلى ورجاله سطح أحد البيوت وأصدر بيانه الأوّل: "يحرّم تحت طائلة القصاص من يستغل ديكا لغير ما خُلِق له، الاختيال وتلقيح الإناث. مصارعة الديكة رجس من الشيطان".

تناثرت الطيور المذبوحة في الساحات الترابية.. أشجار حزن تطاولت في عيون سكنها العوز.

في زياراتي القليلة لصديقتي الطفلة قبل منعها من دخول الدارة، أذهلتني العلاقة بين الديوك ومدرّبيها. جذبني رفيف الأجنحة والصياح إلى مساحة ترابية صغيرة خلف الدار، وأصبعها على فمها أمرتني أن أصمت. رجل يدرّب ديكين ليتصارعا، يحرّك الديك في دائرة لينهش ديكا صغيرا في يده، ثم يرفسه بقدمه الحافية فينهشها.. ضحكت، استدار غاضبا، هل عرفني؟ أو خمّن لاختلاف مظهري، ترك الديك بعد أن

أداره حول نفسه مرات، وعرفه مفرود منتصب نهش الآخر وأعلن الفوز.

عاد إلى الديك الآخر.

حيّرتني علاقة رجل وديك دربّه وأقنعه أن الباحة لا تتسع إلا له! أن ينتشي حتى الذروة بصراخ التشجيع فيسحق ما أمامه، ينتف ريشه ويهزمه، والناس مقرفصون حوله يراهنون على شراسته.

أي غريزة دمويّة غلّفها الناس بقشور التحضّر بينما ينتشون بمصارعة البشر، أو الثيران او الديكة؟

وأنا في صراع مع مرض يغلبني بعد كل جرعة.. أقاوم وأعود للعمل ولقاء الأصدقاء وأمارس الرياضة في المنزل، أطرى كثير من الأصدقاء مظهري الجديد مع الشعر المستعار، وكثيرا بكيت شعري المفقود، بينما أكدّ الطبيب أن الوضع ثابت، ولا بد من الاستمرار في جلسات العلاج.

*****

نزع الحارس لوحات البورتريه الزيتية عن جدران الدارة، أخفى تماثيل العاج لنساء ورجال وحيوانات، وتمثالا بالحجم الطبيعي لصبيّ أسود حمل مصباحا زيّن مدخل الدار، ولدنا جميعا وهو هناك. لفّها الحارس بالقماش والكرتون ورتّبها في القبو.

غامر أبي بشحن بعض لوحات وتماثيل صغيرة وقطع سجاد نادرة في صندوقين إلى أبراهام وسارة. لم يكن الملالي قد أحكموا

سطوتهم على المطار بعد، انشغلوا بمطاردة الرجال ليستروا نساءهم، ومداهمة البيوت بحثا عن الخمر والميسر.. مرّت الشحنة بمساعدة صديق لأبي، وسبقتنا إلى لندن.

التحسّر على الكنوز الضائعة في قبو الدارة نغّص أحاديثنا طويلا، ثم اعتدنا الخسارة كما يعتاد الإنسان كلّ شيء.

-كأن الحارس أعدّها لهم، كانت جاهزة للمتاجرة بها أو الشحن.

-يتشابه تصرّف الناس في لحظة الخيار بين الحياة وأشيائهم الثمينة، الفلسطينيون لفّوا التحف والفضيات ومقتنياتهم الغالية، وخبأوها في صناديق خوفا عليها، فوجدها اليهود جاهزة.

لم يترك لنا توالي الأحداث فرصة للاختيار أو إعادة النظر في اختيار أشياء أو التصرّف فيها. عصر اليوم التالي حسم أبي تردّده. أدرك أن البقاء في الدارة بعيدا عن العاصمة لم يعد أمانا. وأن الأمان في الرحيل قبل أن يطبقوا على منافذ البلاد بالكامل.

همس الرجال لأبي بما لم نسمع. شدّدوا الحراسة على البوّابات، ومنعوا خروجنا من الصالة.

-لن نحتمل القادم. لا كبير أمام عاصفة هوجاء، وهم أقرب مما نظن، ومهما صادفنا على الطريق فلن يكون أسوأ مما يدور حولنا. لكلّ حقيبة كبيرة وأخرى صغيرة يحملها لئلا نلفت النظر.

في لحظة الفقد تصبح الأشياء كلّها أثيرة.. أعدت ترتيب حقيبتي مرات.

والهرج قريب من سور الدارة تسلّلنا إلى الشرفة، خادمة صغيرة أفلتت من تحذير الأخريات إلى طرف الحديقة الغربي حيث وراء السور أرض فضاء. ركضت وراءها في انشغال الآخرين.

بجانبك على الأريكة أرتجف رويت لك ما لم أستطع نسيانه، لا شيء يشبه ما جرى عصر ذاك اليوم.. جذبْتني إلى حضنك، قبّلت رأسي وعصرت يدي، والصور حاضرة:

-كانت الخادمة قد وصلت أعلى شجرة الحور، انزلقت قدماي على نعومة الجذع وتزحلقت إلى الأرض مرارا، بكيت، نهرتني لأتوقف وأعود إلى الدارة، رفعت صوتي بالبكاء، وبخفة نسناس نزلت وسحبتني إلى حيث هي. أزاحت تشابك الأغصان من أمامنا. أمرتني أن أصمت مهما رأيت.

حفرة جديدة في وسط الساحة تحت بصرنا. قرفص الرجال حولها في صمت متوثب، وفي دائرة كبيرة، شيبا وشبابا وأطفالا.

بين إلحاح الاسئلة وإصرار الخادمة على سكوتي، أقسَمْتُ ألا يعرف أحد بما ستخبرني:

- يطبّقون شرع الله على الزانية. فاتنة المنطقة كلّها، تمنّى الشباب الزواج بها رغم فقرها، لكن والدها باعها لتاجر حبوب كهل دفنها في فراش زوجته الراحلة. وغاب كثيرا في تجارته، والجار شاب وسيم

وحاضر، ورغم الفقر غنيّ بالعواطف ويجيد الحب.. تركت كل شيء وتبعته.

متى أعدّوا الفضاء للموت؟

كثيرا تساءلت بعد مرضي، هل تنفصل الروح عن الجسد في لحظات معيّنة؟ هل تصبحان كيانين لا علاقة لأحدهما بالآخر؟ تنأى الروح عن وعائها الجسدي ولو إلى حين كما في التجلّي والتوحّد؟ أو في انتظار الموت المحتّم حين يعلن الأطباء عجزهم ويتركون المريض لمصيره؟ هل يمكن التعامل مع أحدهما بمعزل عن الآخر فلا تحسّ الروح بما يقاسي الجسد؟

أن تتحقّق معجزة الاحتمال القصوى في مواقف لا يملك الإنسان ردّها؟

جمال الصبيّة فرض حضوره الطاغي على بؤس المشهد. مهرة شاردة تعبت من الهروب فاستسلمت لحصارها، سواد شعرها غطّى حتى خصرها، عليها سروال من الساتان الأخضر وقميص بورود صغيرة، ولم تكترث لوشاح انحسر عن رأسها إلى كتفيْها.

بحبل ربطوه حول خصرها سحبها رجلان نحو الحفرة، دفعها أحدهما فارتطمت بقعرها. شدّها لتقف. برز نصفها الأعلى عند الحافة، وبلا حركة انتظرت. بلا تعابير وجهها. وما حولها لا يعنيها. ورهيب استسلامها.

اكتملت دائرة الموت بالمقرفصين حول الحفرة، ومخيف الصمت حولها.

نهض شاب ورفع يده بإشارة إلى كهل بين المقرفصين. همست الخادمة، رجل الملالي ينفّذ القصاص.

ذليلا محنيّ الظهر نهض الكهل من بين الرجال، تعثّر صندله بالتراب، تمالك لئلا يقع، وجوم مخيف اعترى وجه الصبيّة.. وعيناها زجاج تابعت ما يفعل... التقط الكهل حجرا من رجم صغير أعدّوه قرب الحفرة وتقدّم نحو الصبيّة، رمقته في استنكار وطأطأت في ذلّ. بصق عليها، مختنقا صاح "ملعونة. أنا منك براء إلى يوم الدين"، وارتجّت الصبيّة بالحجر أصاب رأسها.

صرخ رجل الملالي "يُخرج الخبيث من الطيّب، لا تقنط أيها الصالح"، ورمى الصبيّة بالحجر الثاني. هلّل الحاضرون وكبّروا واندفعوا بشهوة القتل إلى رجم الموت.

سريع القضاء. هائج بخيالات ذكور محرومة. وفاتن ذاك الجمال الحزين استقبل موته في سكون.

لم تتزحزح الصبيّة، لم تتفادى انهمار الحجارة...عيناها تبحثان عن شيء لا يراه غيرها، ربّما توسّلت لملاك الموت أن أسرع. أو فصلت روحها عن الألم وصيحات التحريض والإهانة، وركام الحجارة تلوّن بالدم ارتفع حولها. مالت. اختفت، وما زالت أيدي الذكور تقذفها بشهوة الانتقام من ليالي عشق ربما لم تعشها.

لم يعثر أحد على شاب تجرأ على شرف إقطاعي قادر، وحدها الصبية دفعت الثمن.

سدّت الحجارة حفرة النهاية. أهال الرجال التراب فوقها وتفرّقوا.

صورتها لم تبارح الخاطر منذ عرفت بمرضي.. أحاول فهم انتظارها للنهاية. أن أستوعب ما قاست، خذلان الحياة للحب والأحلام وسرقة العمر. وليس أمامها غير انتظار النهاية.

الموت كالنوم يرحل بالروح ويغيّبها.

استهجنت أمّي سؤالي عن قول لجلال الدين الرومي، شاعر الحب الصوفي والأثير لديها:

- ماذا يعني حين قال:إن الجسم مشتبك بالروح، والروح متغلغلة في الجسم.. إذن كيف يصل الإنسان إلى التجلّي وانفصال الروح عن جسدها؟

- ملكة التماهي للمريدين ممن اصطفاهم ربهم وليس لكل من اعتقد أنه قادر. إنه التماهي بتدريب الروح على السمو.

هل يمكنني تدريب ذاتي على فصل الروح عن الجسد إذا حانت اللحظة؟

ونحن نطلّ على عمّان بأحلامنا الشابة، رويت لك واقعة قتل الصبيّة، قبّلْتَ رأسي:

- قصاص النساء واحد رغم اختلاف الثقافات، ما وصفْتِ يشبه رجم الأرملة في رواية كازانتاكس، زوربا اليوناني.

شاهدنا الفيلم من جديد، بالأسود والأبيض، رغم عبقرية الممثلة أرين باباس في الماستر سين الذي لا ينسى لكل من شاهده.، لا قدرة لممثلة على تقمّص الاستسلام للموت كما رأيته على وجه الصبيّة والحجارة تنهال عليها من كل جانب.

والطبيب يبحث عن كلمات مناسبة، نقّل بصره بين لهفتي وجزع فردوس، وأمطرني بنصائح زادت توتّري.. لا يدرك الأطباء أن الكوارث لا تحتمل الوعظ. قال:

- معركة وعليك خوضها بالإيمان، والرغبة في الحياة. ومتابعة العلاج.

لم أعد أطيق صوته، وصورة الصبيّة في الحفرة ماثلة لا تغيب والسؤال يكبر: كم طال عذابها؟

صحبت منار إلى قبرص. أردت أن أخرج إلى فضاء لا نعرف فيه أحدا.. كانت البلاد تحتفل بعيد الفصح.. الفندق يعج بالمحتفلين على وجبة الغداء. انتهوا فارتفعت موسيقى زوربا الشهيرة.. هبّ المحتفلون بفرحهم إلى الانضمام في دبكة يدقون بها الأرض. جنسيات مختلفة من زبائن الفندق والمحتفلين بالعيد، صرت بينهم. تشابكت الأيادي. أدكّ الأرض بغضبي والرفض، أحاول أن أقلّد الراقصين، أضحك بلا توقف في ذهول منار، رفضَتْ المشاركة فبقيت وحدي.. خارت قواي.. توقفت مع أنغام البزق اليونانية.. لم تلمّح منار أبدا إلى ما جرى في ذلك اليوم. أنا ومعركتي وحدي دون حاجة لأن أبرّر لمن حولي لماذا ما زلت على قيد الحياة. أحارب بما أستطيع وأملك، لا أتأخر عن موعد علاج أو

طبيب، أتابع الجديد على الانترنت، وأراسل مراكز طبيّة متقدّمة في العالم.

لم يكن العلاج في لندن ممكنا رغم جنسيتي وتأميني فلن يحتمل أبي مرضي. انتقلت بملفي الطبي إلى مركز الحسين للسرطان فما سأحصل عليه فيه هو ما سيقدّمه أي مركز عالمي.

وعمّان احتضنت مرضي.. حدبت على خوفي، هدهدت أفكاري كما قلبت الانكسار التجاري انتصارا.

وما زلت في جهاز التصوير الطبقي أنبني الخبير:

- كيف نمت؟ أنت أول مريض ينام أثناء الفحص؟ اول حالة تمرّ بي منذ عملت.

- لم أنم.

- بل نمت وانتظم تنفّسك.

لم يعرف أن روحي تركت جسدي في نوم صغير، مارست التجلّي في جهازه بعد أن تركتها لصلواتها فانطلقت في فضاء لا ألم فيه.

تأوّه جسدي من حقنة المادة الملوّنة، أطاع أمر الجهاز تنفّس عميقا واكتم أنفاسك. تنفّست وكتمت، وكانت روحي خارج جسدي وبلا ألم.

التجلّي تحليق النائم في حلم جميل، سكينة يرضخ لها الجسد، يتلاشى الألم في تنامي الوجد ونشوة السمو بالروح، ويشتعل بالعودة إلى واقعه.

تدلّت عناقيد الأسكدنيا شهيّة ناضجة من خلف أسوار البيوت العمّانية فحضرت الدارة البعيدة. أمضي بالسيارة بين البيوت الفارهة بلا هدف، أطلّت بعض الأشجار محملة بقطوف نضجت... لم أصدّق أنني التهمت صندوقين صغيرين قبل أن تعود. خجلت أن أخبرك بسبب تلبّك المعدة الشديد، بينما أقدم لك بعضا من الصندوق الثالث اشتريته لك.

أصناف الأسكدنيا في أسواق عمّان محدودة، محليّة ولبنانية، لا علاقة لها بما عرفنا هناك.. لكن أمّي أحبّت مذاقها حين حملْتُها لها.

قطوف الأسكدنيا جزء من صورة الرحيل الأخير لا تغيب، ناءت بها الأغصان فتدلّت بثقلها على الشرفة تجمّعنا فيها استعدادا للانطلاق مع الصباح.

فجر الرحيل هادئ. وما حولنا لاه عن قرار مصيري.

نعمة والحارس ربّبا الحقائب في السيارات. تحسسّت أمّي عناقيد الأسكدنيا ناوشت حافّة الشرفة، التمعت الثمار بالبرتقالي وأعلنت نضوجها. اسمها في بلادي البشملة، تعدّدت الأنواع والطعوم والأشكال ومواسم النضج، واحتلّت جزءا واسعا من الحديقة، أوراق مفلطحة أو طويلة أو عريضة، مذاق عطريّ أو يابانيّ، بنغاليّ أو مسنّن، كبيرة الثمرة أو صغيرة مستطيلة أو مستديرة، عشقت أمّي دوام

خضرتها، وعناقيد أزهارها ورائحة نوّارها وفرحت بمحصولها الوافر. وخرجت عشرات سلال القش هدايا إلى الأصدقاء في مواسم النضج.

- شجرة شتوية صحيح لكنّ بلاد الإنجليز لن تصلح لها. وتنهدّت.

يتمسكّ الخاسر بأشياء لا تعني شيئا في خساراته الجسيمة.

عاد السائق فرحا بقفير قش صغير من البشملة كبيرة وناضجة. وسبقته ابتسامته:

- زرعها الأفغان من بذور البلاد، ولها طعمها.

ترك أبي نصف الحبّة في طبقه فقمع فرحتها:

- ليس الطعم من البذور وحدها بل للتربة والمناخ تأثير كبير في المذاق. ولاجئو آسيلام asylam, من الجنود والسياسيين والعاطلين ممن يعيشون على المساعدات الاجتماعية، لا علم لهم بالزراعة، لكنهم يبيعون الحنين بتوفير نسخة عمّا كان، لا ترسلي السائق هناك، سيصبح وسيلة اتصالهم بنا، لن تتخيلي كيف حوّلوا مدن بيرمنجهام وهارو إلى كابول صغيرة. معظمهم من البشتون وإن تكلّموا الفارسي، ولا أريد أيّة صلة بهم.

حتى في المناسبة الكبرى لعالِم حين دعي وفرقته للعزف في افتتاح نادي البشتون لم يتنازل أبي عن رفضه دخول النادي، لكنه حين

تبرّع للنادي بمبلغ كبير تفاءلنا، ثم أصمّ أذنيه عن توسلات أمّي بأن يحضر الافتتاح من أجل ابنه.

- لن أبارك عار الغلوازي بحضوري. نحن زعماء القبائل نستأجر من يطربنا ولا نطرب أحدا.

تحدّث أبي بعنجهية الطبقة علنا. ولم تعد دموع أمّي عزيزة كما اعتدنا.

*****

بكت أمّي ذكريات طفولتها بحرقة ومحطة الي بي سي تذيع تقريرا مصوّرا عن تحريم الموسيقى في البلاد، وتدمير المعهد الموسيقي في كابول.

يكبر الناس ممن تجوّلوا في العالم أمام التلفزيون، يتركون مشاق السفر ودهشة الاكتشاف عنوانا للصبا، ويكتفون من عناء السفر بعالم رحب تحمله لهم الشاشات.

تفقد الأشياء متعتها بالتكرار فيتوقّف الكبار عن السفر إلى أماكن عرفوها. تذبل دهشة الاكتشاف في خذلان الجسد، ترجح كفّة الراحة عن نهل المزيد من المغريات.

رغم احتجاجنا الدائم على مساءات طويلة لأبي وأمّي أمام التلفزيون، اعتادا ألا يخرجا إلا قليلا.

انهمرت عينا أمّي على ما حدث هناك، ولعنات أبي لم تتوقّف.

- من أقنعهم أن تحطيم الجمال يمنع الخطيئة؟ والقتل يقود إلى الجنّة؟ كيف لا يحبّ الله الألحان وقد سكبها في كل ما حولنا، حفيف الأشجار، انسياب الجداول، غناء الطيور عنفوان الموج وهياج الريح، ألحان قلّدها البشر بسمفونيات تسمو بالنفوس أو تثيرها.

والسؤال الأكبر ظلّ بلا جواب، من سمح للتلفزيون البريطاني بالتصوير؟ هل جاؤوا بالمراسل الكافر لنقل الواقعة تباهيا؟ أم لإيصال رسالة للغرب بأنهم يرفضون حضارته ويكرهون أصحابها ومن يحاول

فرضها عليهم؟ أو ربما وصل المصوّر برشوة أحد رجالاتهم وخفية عن الآخرين؟ كان التقرير وافيا وصوّر في أكثر من مكان ووقت.

قال أبي:

-بل ليعرّفوا العالم بأنّهم يتحدّون حضارة الغرب بتحطيمها، وليقنعوا الناس بأنهم الصواب والعالم على خطأ. ولا يدرون أن ما فعلوا وصمة عار وهمجية وتخلّف. تناسوا دور الموسيقى التراثية والفكر الصوفي في حياة أجدادنا. كانت الأرواح طريّة كجمال البلاد وتسامح أهلها.

والفؤوس تحطّم الآلات الموسيقية كتمنا صرخاتنا، وباسم الله انهال الخراب على صروح قالوا إنها رجس من عمل الشيطان، تهاوت تماثيل كبار الموسيقيين في الردهة الكبرى مع تكبيراتهم.

مشهد الفأس الذي هوى على لمعان البيانو الضخم فاق احتمال أمّي، غطت عينيها بكفّيها وعلا نشيجها:

- تحفة موسيقية فريدة في العالم، صنعت خصيصا للتباهي بتقدّم دولة مدنية منفتحة على ثقافات العالم. كان مفخرة البلاد يوم أنهى الخبراء تركيبه في مدخل المعهد، ماسة في تاج ما صنعته الشركات في العالم. فقط لو باع هؤلاء الجهلة هذه التحفة النادرة كما يبيعون الخشخاش لكسبوا أكثر.

تابعت الكاميرا قطع البيانو المهشّمة ومفاتيحه تدوسها النعال المغبرّة بالحقد والتراب، جمعوا لمعان أخشابه وأشعلوها على الرخام المصقول وقرفصوا حولها يفركون أيديهم من البرد. ناداهم زعيمهم،

تقاسموا الآلات النحاسية جمعوها من غرف التدريب والمخازن. تابعت الكاميرا انطلاق الغنائم خارج المعهد. واكتملت رحلة الخراب ببيعها في أسواق الخردة، ثم صهرها إلى قدور وملاعق.

حضور بلادنا اليومي على أخبار البي بي سي، ثمرة العلاقة الشائكة بين البلدين، تورّط الإنجليز في تحالف القبائل والدول المحيطة، ثم فشلوا في منع انتشار الفكر الشيوعي بين النخب والعسكر، فاستقبلت بلادهم آلاف اللاجئين والمصابين العسكريين للعلاج ممن عملوا معهم. ونالوا جميعا مواطنتها.

بيانو جديد احتل صدر الصالة الواسعة في لندن، لم تتوقف أمّي عن العزف عليه، واشترت جيتارا ثمينا لعالِم.

تخبو التقاليد المتوارثة في مناخات الحريّة. يصبح الإصرار عليها خروجا على الزمان والمكان فيتوالد صراع الأجيال، ويتجلّى الانفصام في اغترابهم. الماضي والحاضر في بيئات الرحيل قطبا مغناطيس يتنافران، جيل حمل موروثه وآخر يراه عبئا يعيق اندماجه.

*****

ماتت أمي دون أن تعرف بمرضي.. ولم ترض يوما عن انفصالنا:

-سيكون الطلاق الأول في عائلة الغلزاني. التمرّد طبعك، كان اختيارك في الحالين، الزواج ثم الطلاق.

بأمر من الرئيس حامد كرزاي وفي حراسة مشدّدة، رافق أبي جثمان أمّي إلى مزار شريف، دفنها كما أوصت في مقابر عائلتها. محنيّ

الظهر بالشوق والألم عاد. وبغير اهتمام وضع أوراقا أمامنا. وأعلن قطع الحبل السرّي مع وطن هناك:

- إقرار من الحكومة بإعادة الدارة والأملاك وبيت كابول لي ولورثتي. لكنّها خرائب، جدران وأطيان مهملة، زرعوا جزءا واسعا من أملاكنا القريبة من حدود باكستان خلف الدارة بالخشخاش، أتلفوا الحديقة، كسروا التماثيل ونهبوا كلّ ما في القبو والمخازن. وحوّلت الحكومة دارنا في كابول دائرة إفتاء، وقّعت معي عقدا لتأجيرها بسعر حدّدوه، لا عودة لأي منكم. لم يعد الوطن ما وجدته هناك.. الوطن مكان النجاح والأمان.

*****

تراودني نفسي أن امزّق ما كتبت في حيرة السؤال. لماذا كتبت؟ هل اقتنعت فعلا بالنشر؟ هل أبحث عن شهرة بأن أدوّن تجربة امرأة مهاجرة مريضة بالسرطان، ونصف نساء الأرض معرضات للإصابة به؟ هل يقبل الناس على تجربة امرأة مهاجرة ثرية لم تعرف بؤس الاقتلاع والتهجير، وما تعاني اللاجئات في مخيمات النزوح من استغلال وذل وفاقة؟ هل يتعاطف القرّاء مع اقتلاع طفولة سعيدة، مع خوفها العظيم حين سدّ أفق الحياة، مع تهجير حفر عميقا في النفس دون معاناة الفقر؟

أردت أن أسرد قصتي لأنني مختلفة، اقتنعت بذلك منذ طفولتي، وصفوني بالمتمرّدة دون أن يسألني أحد لماذا أتمرّد وأخرج على قوانين الدارة؟ كنت أحس باختلافي.

الآن أسأل نفسي، لماذا كتمت سر المرض عن الجميع؟ أهو الخوف من النهاية؟ لهذا دوّنت قصتي كما تداعت ذكرياتي. كتبت دون تخطيط وبلا حذف، سيرتي أنا والوطن وأنت، لم أجمّل ولم أحذف سوى ما سقط من الذاكرة سهوا، فمعظم من يكتبون التاريخ أو السيرة الشخصية يسقطون منها ما يريدون. حرجا أو محاباة لمن أوكلهم بتدوينها، أو طمعا بعطايا من يسجلونها لصالحهم. ولا أريد شيئا من هذا.

أعرف أن منار تقدّس أمي. رأت فيها الأميرة الشجاعة التي لم تنحن يوما لإعصار. وأن موتها ما زال حاجز حزن لم تتجاوزه رغم عناية فردوس وأبنائها بها. وهو ما يطمئنني إلى مستقبلها حين أغيب.

لم تكن أمي بطلة طوال الوقت.. كانت بشرا أصابها الرعب، استنجدت بأسلافها ليحموا طريقنا، وتنكّرت بالبرقع صباح الرحيل مثل نساء الملالي وخوفا من رجالهم.

ليلة الرحيل، وفي هول الخوف، نشبت المعركة الكبرى بين والديّ حول الرحيل في السابع أو الثامن من الشهر، أمّي استنجدت بغيبيات قد تحمي خروجنا، وأبي سابق الوقت والواقع.

- كلّ دقيقة فارق قد يحفظ حياتنا أو ينهيها. وحقدهم يزحف نحونا. هدموا السينما والأوبرا والمؤسسات الثقافية التي بناها الملك، يعتقدون أنها مفسدة للأخلاق، ومغيّبة للعقول.

قبّل رأسها ويدها، حبّهما يزداد توهّجا في الأخطار، ومع تجاذب الأفكار واختلاف الرؤى.

طوّق كتفها، مسح على حزن وجهها براحة يده. ابتسمت في أنفة. داعبها:

- البشتون أصل هذا البلد، وأنتم سلالة العرب المحتلّين، اتركوا لنا أمور البلاد. العرب يقولون أهل مكّة أدرى بشعابها. نحن بنيناها ونحن نهدمها.

أدركَتْ أنه وضع حدا للنقاش حين خاطبها بأميرتي مرّات، بدأنا الاستعداد للرحيل.

مع الفجر كان أبي وأمّي في ثياب الأمس. أمام مكتبه حقيبة مفتوحة فاضت بالملفّات، ونار المدفأة ما زالت تلتهم غيرها.

أكياس كثيرة عليها أسماء العاملات في غرفة أمّي عبّأتها بملابسنا وألعابنا. طلبت من الحارس توزيعها، مع كلّ ما في المخازن بعد رحيلنا:

- قل لهم كفّارة لتدعوا للشريفة بالشفاء في رحلة علاجها.

السيارات الفورد الثلاث أمام الباب في انتظارنا وما زالت الشمس تستعد ليوم بدأ فيه الصيف.

رجم الصبيّة اقتلع كثيرا من العائلات حولنا، تركوا ما يملكون وهو قليل، وتسلّلوا عبر الحدود إلى باكستان وقرى فقيرة مثلهم، أو إلى سماسرة الهجرة لتهريبهم عبر مطار كراتشي إلى دول تقبل لجوءهم. وقلة منهم توجهوا إلى كابول كملاذ محتمل.

*****

رقم سيارة والدي خاص بمجلس الشيوخ فتح لنا الطريق في حيرة الحرّاس، اختلفوا بين من يريد مهاجمتنا ويخشى سطوة لأبي ربما ما زالت، وبين مبجّل للزعيم البشتوني، وكثير من طالبان من قبائل البشتون ويعرفون أن الغلزانيين لن يقبلوا بإهانته. تشاوروا همسا وفتحوا الطريق.

في القرار المصيري تتوقف الاحتمالات على الأمان والرخاء، ولم يكن أمامنا إلا الرحيل. الأمل الوحيد قبل العاصفة.

كلنا يعرف أن لوالدي رجل القانون حسابات في لندن، وأنه ورث الكثير من الأطيان والمال عن جدّه الغلوازي الكبير، وحقق

نجاحات هندسية مع أكبر شركة للمقاولات وبناء الجسور عرفتها كابول.

حساباته في بنوك لندن كانت صمّام الأمان لنا في تقلبات وصراعات لا تتوقف وتزداد عنفا ووحشية.

لهذا قاتلت لاسترداد الشركة، وإنجاح مشروع منار في إحياء التراث التقليدي.

المال صمام الأمان لحياة كريمة لها بعدي.

وفي مدينتك عمان عرفتُ النجاح ، مثلما حنت على مرضي.

ستعرف منار الآن لماذا تنازلْتَ لي مرغما عن شركة خاسرة.. لكنك حتى في لحظة الطلاق لم تجرؤ على مواجهتها بالحقيقة، أنك تخلّيت عن أحلام كبيرة زينت حياتنا يوما بالحب والنجاح بعد أن تركتها انقاضا.

بحرج وخوف طالبتُ أبي بجزء من نصيبي في الإرث بعد وفاة أمي، حملقت دهشته في وجهي بلا تصديق فارتميت في حضنه، اعتذرت وبكيت، أخبرته عن إفلاس الشركة وانسحاب عزرا. وأنني أريد إنقاذ ما يمكنني من أجل حياة كريمة لمنار لأنني أسابق العمر.

جسده في ذراعي ارتجف بعنف، تعوّذ من الشيطان الرجيم.. وحمد الله كثيرا، طوّقني كأنما يريد الهرب بي من مصيري، أغرقت دموعه عنقي. قبلني وضمني بقوة مرّات كأنما يخشى أن يفلتني فلا أعود إلى حضنه.. تفجّر الكبت في صدري بركانا.. نحْتُ وانتحبت.. وبكل صمتي وثقل سرّي طلبت أن يتفهّم رغبتي في حفظ سرّ مرضي عن الجميع ..

مسح دموعه وتفهّم خوفي على منار.. وخيبته فيك كانت أكبر مما توقّعت. مؤلم أن تتهاوى صورة رسمتها لأحدهم وآمنت بها طويلا.. لم يصدّق أنك دمّرت حياتنا بهواية المقامرة، وعد ألا يتخلى عن منار.. وبما منحه لي دون أن يعرف أحد أنقذت ما أستطيع من الشركة وبدأت مشروعنا لتطوير التراث.

المال مغامرة الحياة، وبالصبر استعدت الكثير.

ابتهجت روحي بممارسة ما تحب، إصلاح ما أفسدت بالعمل.. البحث عن مصادر دخل لي ولمنار. تابعت تفوّقها في التصميم وتطوير التراث الشرقي... فتحت عمّان صدرها لإبداعنا معا.. سنوات حققنا فيها أرباحا كبيرة.

النجاح إرادة قاومت المرض وما زالت.

انضم إلى مكتبة .. اضغط اللينك t.me/t_pdf

ليلى الأطرش
روائية وإعلامية

• منذ ظهورها ككاتبة، وما زالت على مقاعد الدراسة الثانوية، نذرت نفسها للدفاع عن قضايا إنسانية واجتماعية بجرأة متناهية، فكسرت العديد من التابوهات، ومن خلال ممارستها الكتابة، المقروءة والمسموعة والمرئية.

• دافعت عن حرية الرأي والتعبير وتميزت بجرأة الطرح وكسر التابوهات الاجتماعية والدينية والسياسية، بدفاعها عن حرية المرأة، وصحتها الإنجابية وجرائم الشرف والعنف ضد النساء ومعاناة النساء من الفكر البطريركي والتمييز والعنف. وجور قوانين الأحوال الشخصية، وأثر الحروب والصراعات الإقليمية على المرأة والطفل. وتناولت قضايا وطنية وشرعية خلافية في رواياتها.

• ترجمت بعض رواياتها وقصصها القصيرة ومقالاتها إلى عدد من اللغات، وقرر بعضها في جامعات أردنية وعربية وأمريكية وفرنسية، وقدمت عنها رسائل جامعية عديدة بالعربية والإنجليزية. وكذلك في إيران والصين والهند وباكستان.

• أسهمت في إعداد ملف عن الكتابة النسوية في الأردن لمعجم الكاتبات الصادر بالفرنسية عن اليونسكو٢٠١٣.

• اختارها تقرير التنمية الإنسانية العربية الرابع عن المرأة ضمن قلة من الكاتبات ممن تركن أثرا واضحا في المجتمع. واعتبرتها مجلة «سيدتي» الصادرة بالإنجليزية عدد ديسمبر ٢٠٠٨ واحدة من أنجح ٦٠ امرأة في العالم العربي.

• اختارتها جامعة أهل البيت، ثم جامعة عمان الأهلية وحركة شباب نحو التغيير شخصية العام الثقافية في الأعوام ٢٠٠٩- ٢٠١٠- ٢٠١١. وكرّمت في بلدان عربية، تونس والمغرب والجزائر ولبنان والبحرين وفلسطين.

- شاركت في برنامج الكاتب المقيم في جامعة أيوا الأميركية ٢٠٠٨، لمدة ثلاثة أشهر، وحاضرت في عدة جامعات أمريكية وأوروبية، شاتام في بنسلفانيا ٢٠٠٨، وجامعة نورث وست في شيكاغو ٢٠٠٨ وجامعة مانشستر البريطانية ٢٠٠٦ وجامعة ليون الثانية الفرنسية ٢٠٠٤. ومنحت نوط الشجاعة للفرسان لجرأة محاضراتها لطلاب التبادل الأمريكيين في معهد اللغات في الجامعة الأردنية.

- عملت على نشر الفكر التنويري من خلال برامج تلفزيونية ناقشت أهم الكتب العالمية التي غيرت الفكر الإنساني وأنجزت ٦٥ حلقة تسجيلية عن رموز الفكر والفن والتنوير في الوطن العربي، في مواقعهم وفتحت ملف الأحوال الشخصية في الوطن العربي.

- مؤسس ورئيس رابطة القلم الدولية فرع الأردن – PEN JORDAN للدفاع عن حرية التعبير.. ورئيس تحرير مجلته الإلكترونية www.pendialogue.com للتواصل بين كتاب العالم والدفاع عن الكتاب في السجون، وتعزيز كتابة السلام، وتوثيق جهود النساء الكاتبات في العالم .

- شاركت في عشرات الندوات والمؤتمرات الأدبية والإعلامية في العالم العربي ودول العالم حول الأدب والرواية والإعلام والمرأة وحقوق الإنسان.

الأعمال الأدبية: -

١- «وتشرق غريا» ١٩٨٨ ٢ط
٢ - «امرأة للفصول الخمسة» ١٩٩٠- ٣ ط
٣- «يوم عادي وقصص أخرى" ١٩٩١
٤- «ليلتان وظل امرأة» ١٩٩٦- ٣ ط
٥- «صهيل المسافات» ١٩٩٩ط ٣ - إحداها لمشروع «مكتبة الأسرة» بواقع ٥ آلاف نسخة-
٦- «مرافئ الوهم « ٢٠٠٥ ٢ ط-
٨- «نساء على المفارق» - جزء من سيرة ذاتية ٢٠٠٩
٩- «رغبات.. ذاك الخريف» ٢٠١٠ ٣ ط- إحداها لمشروع مكتبة الأسرة بواقع ٣ آلاف نسخة
١٠- رواية «أبناء االريح» ٢٠١٢
١١- «ترانيم الغواية» ٢٠١٤ طبعتان، القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية ٢٠١٥، جائزة الدولة التقديرية للآداب من دولة فسطين ٢٠١٧
١٢- مسرحية «أوراق للحب» ٢٠١٣
١٣- مسرحية «البوابة ٥» — ٢٠١٥
١٤- مسرحية «أحلام زرقاء اليمامة¬ موسيقية للأطفال
١٥- مسرحية «قوارير العسل»

الجوائز

جائزة الدولة التقديرية للآداب - دولة فلسطين ٢٠١٧
الدولة التقديرية للآداب، الأردن ٢٠١٤
جائزة الإبداع المسرحي عن مسرحية « البوّابة ٥» لأفضل عمل متكامل وزارة الثقافة الأردنية ٢٠١٥
الجائزة الفضية من مهرجان المسرح الحر«البوابة ٥» ٢٠١٥
جائزة «جوردن أوورد» رواية «رغبات ذاك الخريف « كأحسن رواية أردنية ٢٠١٠ وكانت قد نالت منحة التفرغ الإبداعي لكتابتها ٢٠٠٨

- حصلت على عدد من الجوائز الذهبية والفضية وشهادات التقدير الخاصة عن إعداد وتقديم برامجها في مهرجانات الإذاعة والتلفزيون أثناء عملها الإعلامي

- كرمت في المنتديات الثقافية العربية والجامعات في المغرب والجزائر وتونس والأردن ولبنان وفلسطين. والبحرين.

العضوية

- مؤسس ورئيسة امركز القلم الأردني للدفاع عن حرية التعبير والكتاب في السجون، ورئيسة تحرير مجلة حوار القلم الإلكترونية من ٢٠٠٧- حتى الآن
- شاركت في عدد من لجان التحكيم لجوائز عربية وأردنية.
- عضو مجلس إدارة وكالة الأنباء الأردنية. بترا - ٢٠٠٨-٢٠١١
- عضو اللجنة الوطنية العليا ل «مكتبة الأسرة» - وزارة الثقافة - ٢٠٠٧- ٢٠٠٩ ورئيسة اللجنة الإعلامية والناطق الرسمي باسم المشروع
- عضو المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦ - ٢٠٠٨ والناطق الرسمي باسم المؤتمر الوطني الأول للثقافة
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة عمان ٢٠٠٤ - ٢٠١٠
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة أفكار ٢٠١٣ - ٢٠١٤
- عضو منتدى الفكر العربي
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين
- عضو اتحاد الكتاب العرب.

t.me/t_pdf

هذه الرواية

قصة حب بدأت في لندن وانتهت في عمّان، عشق كبير من طبيبة أفغانية هربت عائلتها الثرية إلى لندن، ومهندس فلسطيني هجّرت عائلته من القدس.

قصة حب تقاطعت فيها تجارب التهجير القسري لعائلة المهندس، وهجرة عائلة طفلة أفغانية هرباً من الصراع الديني والعرقي واضطهاد النساء.

قصة صداقة كبيرة بين الشريفة الأفغانية والتاجرة اليهودية والقبول والتعايش مع انتشار الصوفية قبل أن ينقلب الحال إلى رفض الاختلاف وانتشار التطرف واضطهاد كل مغاير.

رواية الخوف الإنساني في مناطق الصراعات والتهجير، الانفصام بين التمسك بالقيم الوطنية والنجاح المالي في المهجر، والخوف من فقدان الحب والخوف من الموت حين يحس الإنسان أن رسالته في الحياة تحتاج الوقت فيقاوم المرض، بينما يسابق الحياة.